الافتتاحية

انما الامم...

احتفلت الجزائر منذ أسابيع قليلة بالعيد الحادى عشر لاستعادة استقلالها واسترجاع سيادتها بعد كفاح طويل .

وهى الآن بصدد اعادة البناء ، وتدارك قرون من الجمود والركود ، أعقبها أكثر من قرن وربع من الاستعمار القائم على الثلاثى المشؤوم ، الذى حدده أرسطو منذ أكثر من ألفى عام ، وهو الفقر ، والجهل ، والمرض .

واذا كانت الجزائر قد استردت حريتها وثرواتها المادية ، واذا كانت اليوم فى طريق التغلب على هذا الثلاثى المشؤوم ، فان هناك جانبا واحدا لم تستكمل فيه تحررها وانعتاقها ، وهو لا يقل أهمية عن أى جانب من جوانب البناء ، وهو الوجه الروحى الاخلاقى ، الذى هو الاسمنت الروحى للمجتمعات والامم .

فهو الذى يعزز ، بل يضمن وحدتها وتماسكها ، ويجعلها تتخلص من كل ما يكون قد علق بها من عادات سيئة مستوردة،وتحصن نفسها ضد كل غزو فكرى،يسترجع بيد ما سلمه بأخرى عن كره ومضض .

والجزائر فى هذا ليست وحدها من بين اخواتها . ولكن ليس هذا طبعا بعزاء أو تخفيف للنفس مما يحز بها من توجسات ، ويقضها من تخوفات ، من ان ينطبق عليها من قريب او بعيد ذلك البيت المعروف فى هذا السياق :


مساواة ! وحرية ! وتفتح على العالم الأوسع !
Egalité !... Emancipation! Ouverture sur le Monde, le Vaste Monde



انفتاح وانبطاح... والشباب عماد المستقبل!
33 خبّاطة!

منهج الفرنسيين فى كتابة تاريخ الجزائر

د. أبو القاسم سعد الله

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

يذكر السيد بيربروجر ، اول رئيس (للجمعية التاريخية الجزائرية) ، ان الفرنسيين قد شرعوا فى ادخال نظمهم العلمية والادبية والفنية الى الجزائر منذ ١٨٣٠ . وتروى الصحيفة الرسمية (المرشد الجزائرى Moniteur algérien التى اسسها الفرنسيون سنة ١٨٣٢ ، انه قد وجدت آنئذ مدرسة للطب ، وجمعية خيرية تقوم بنشاطها فى (جامع السيدة) ، كما شرع فى انشاء مكتبة عمومية . ومن بين هذه النظم العلمية ايضا الدراسات التاريخية . ففى سنة ١٨٣١ اذن بيرتزين ، قائد الجيش الفرنسى ، للسيد شيافى الذى كان عالما اثريا ، بالتنقيب عن الآثار فى المنازل والحدائق العامة (١) .

وفى دراستنا لمنهج الفرنسيين فى كتابة تاريخ الجزائر سنقصر حديثنا على الفترة الواقعة بين ١٨٣٠ ـ ١٩٥٤ مع بعض الاشارات للعهد العثمانى (١٥٠٠ ـ ١٨٣٠) كلما اقتضى الامر ذلك .

انظر التعاليق فى آخر البحث

مجالات البحث عند الفرنسيين :

ورغم جهل الفرنسيين أول الامر بواقع الجزائر وتاريخها ، ورغم انشغالهم بعمليات الحملة والاحتلال وافتقارهم فى البداية الى الذوق الثقافى ، فانهم اتجهوا فى البحث ثلاث مجالات فى نفس الوقت :

١ ـ نشر الاثار السابقة عن الجزائر ·

٢ ـ انشاء اللجان «العلمية» ، ومنح الرخص للافراد للقيام بعمليات البحث والجمع والتعريف بالاثار التاريخية فى البلاد ·

٣ ـ تكوين الجمعيات المختصة ، والصحف والدوريات التى تحفظ المكتشفات التاريخية وتعتنى وتعرف بها المهتمين ·

وفى نطاق المجال الاول نشروا منذ ١٨٣٠ كتب الرحلات والانطباعات التى كتبها الاوروبيون عن الجزائر خلال العهد العثمانى ، مثل شيلروشو وبانانتى ورونودو وهايدو وفانتوردى بارادى · كما نشروا غزوات عروج وخير الدين مترجمة عن النسخة العربية واهتموا (بالزهرة النيرة) وبالوثائق العربية لحملة شارل الخامس على الجزائر · وعادوا الى كتب المؤرخين والرحالة العرب وشرعوا ايضا فى نشرها ، جزئيا او كليا كابن خلدون ، والبكرى والعياشى وحسن الوزانى (ليون الافريقى) ، وغيرهم · ومن جهة اخرى نشروا مراسلات دايات الجزائر مع حكام فرنسا ، ومذكرات وتقارير القناصل والجواسيس الفرنسيين امثال دوبوا ـ تانفيل ، وبوتان وكيرسى · واهتموا بارشيف الغرفة التجارية بمرسيليا وبتقارير الشركات الفرنسية التى توالت على ما كان يسمى (بحصن فرنسا) · وبالاضافة الى ذلك ابدوا عناية بالوثائق العثمانية التى وجدوها فى الجزائر والتى ضاع كثير منها ساعة الفوضى التى سادت دخولهم الجزائر (٢) ·

وبخصوص المجال الثانى (انشاء اللجان العلمية) ، نجد ان اللجنة الافريقية ، التى زارت الجزائر سنة ١٨٣٣ بقصد التحقيق فى مصير الجزائر ، تنهى اعمالها بتقارير ومحاضر غنية عن الجزائر فى مختلف المجالات ، ولا سيما الاقتصادية والاجتماعية · وفى ١٨٣٧ انشات وزارة الحربية لجنة باسم (اكتشاف الجزائر العلمى) · وقد قامت بنشر دراسات هامة فى عدة اجزاء عن الآثار والعلوم الطبيعية والفنون الجميلة والتاريخ وعلم السلالات · وكذلك قام العديد من الافراد يبحثون وينشرون اعمالهم فى التاريخ المحلى ، عن اللهجات ، والطرق والنظم ، وطبائع السكان ، والزوايا ، والحياة القبلية والمدن الخ · وقد ظهرت من ذلك مجموعة من الدراسات والانطباعات التى كتبها عسكريون سنتحدث عن دورهم بعد قليل (٤) ·

اما المجال الثالث (الجمعيات والصحف) فقد ظهر هو الاخر منذ بداية الاحتلال · فمنذ ٢٦ جوان ١٨٣٠ ولدت الصحافة بالجزائر فى سيدى فرج · ولعلها لم تكن صحافة بالمعنى الدقيق للكلمة ، لان أول جريدة حقيقية اسسها الفرنسيون فى الجزائر هى «المرشد الجزائرى» · وكانت تهتم بالاضافة الى القرارات والاعلانات الرسمية ، بالتاريخ المحلى واخبار المسلمين وحركات الاهالى ، وكان على رأسها السيد بيروبرجر الذى

كان له دور فى ادخال كثير من عوامل الحضارة الاوربية الى الجزائر· ثم صدرت جريدة (الاخبار) سنة ١٨٣٩ ، وكانت هى الاخرى تهتم بالابحاث التاريخية الى جانب كونها جريدة سياسية اخبارية · وقد اهتمت أيضا (المبشر) التى ظهرت ١٨٤٧ بالاخبار المحلية وان كانت قليلة ، ولا سيما فى عهدها الاول ·

غير ان تاسيس (جمعية قسنطينة للاثار) (٥) سنة ١٨٥٢ قد ادى الى ظهور الدوريات المتخصصة فى الدراسات التاريخية والاثرية · فقد كانت هذه الجمعية تصدر منذ عامها الاول (تقويما Annuaire تحول فيما بعد الى (مجموعة Recueil من الدراسات والملاحظات المتعلقة بتاريخ المنطقة · وبوحى من الحاكم العام راندون ظهرت فى مدينة الجزائر سنة ١٨٥٦ (الجمعية التاريخية الجزائرية) (٦) التى اصدرت (المجلة الافريقية (R.A) وهى المجلة التى اصبحت بعد مائة سنة ونيف مرجعا لاغنى عنه للباحثين فى تاريخ الجزائر فى مختلف عصوره · ولم تحن سنة ١٨٧٨ حتى ظهرت فى وهران أيضا (جمعية وهران الاثرية) · وقد اصدرت بدورها (نشرة Bulletin تضم ابحاث اعضائها ومراسليها عن تاريخ المنطقة · وكل هذه الدوريات استمرت طويلا واثرت البحث التاريخى فى الجزائر وظهر على صفحاتها جم من العلماء الذين كرسوا اوقاتهم لجمع المعلومات عن التاريخ المحلى ·

والى جانب هذه الدوريات والجمعيات ظهرت مكتبة ومتحف الجزائر فقد ظهرت اول نواة (مكتبة مدينة الجزائر) سنة ١٨٣٥ ولم تبدا فى العمل فعلا الا خلال سنة ١٨٣٨ · وبوحى من بريسون المتصرف المدنى ، اضيف الى المكتبة (متحف اثرى) · واصبحت المكتبة والمتحف منطلقا للباحثين فى تاريخ الجزائر يجدون فيهما المخطوطات العربية المطبوعات والاثار التى هى عدة المؤرخ · والملاحظ ان اول مقر للمكتبة والمتحف هو (دار الحاج عمر) ، صهر الداى حسن باشا وكانت هذه الدار على الطراز الاندلسى الجزائرى الجميل · وكانت تتكون من طابقين خصص الطابق الثانى للمكتبة ، وكان يضم اربع قاعات ثلاث منها للكتب والرابعة للمطالعة · والقاعة الاخيرة مقسمة الى جناحين واحد للمطالعين الاروبيين والثانى للمطالعين الجزائريين · والملاحظ ان الجناح الاول كان يحتوى على الكتب المتعلقة بالجزائر والتى كانت مطلوبة اكثر من غيرها ·

اما المتحف فكان فى الطابق الاول من الدار وكان يضم ايضا اربع قاعات ، خصصت ثلاث منها لعرض وحفظ التحف والاشياء الثمينة والخطوط والالات والاثار والاسلحة والحيوانات الخ · اما القاعة الرابعة منه فقد خصصت لدرس اللغة العربية الذى كان يقوم به السيد بريسنى · وبالاضافة الى مكتبة ومتحف مدينة الجزائر توسعت المكتبات العسكرية التى كانت تتبع الحاميات فى المدن التى وقع احتلالها ، كما تكونت متاحف اخرى مثل متحف شرشال الذى تكون فى الشهور الاولى للاحتلال والذى تخصص تقريبا فى حفظ الاثار الرومانية التى اولاها الفرنسيون اهتماما خاصا (٧) ·

دوافع البحث فى تاريخ الجزائر :

انطلق الفرنسيون فى كتابتهم تاريخ الجزائر من عدة معطيات اهمها : كونهم تغلبوا على الجزائريين بالقوة ، وكونهم شعبا متحضرا حكموا شعبا متخلفا ، وكونهم مسيحيين قبضوا

على زمام شعب مسلم · وهذه المعطيات ، متفرقة ومجتمعة ، هي التي قررت نوعا من (الحتمية التاريخية) عندهم ، وهي التي حددت منهجهم الذي تطور مع الزمن كلما ازدادوا صلة بالجزائريين · ولعل تلك المعطيات هي التي ما زالت تتحكم في الكتابات الفرنسية عن الجزائر حتى اليوم ·

وكانت هناك دوافع كثيرة دفعت الفرنسيين الى الاهتمام بالتاريخ الجزائري · فهناك اولا الرغبة في التعرف على شعب وقع في قبضة الحضارة الاروبية · وكانت هذه الحضارة تحمل معها الى الجزائر كل ادوات الغزو الفكري · فقد جاءت بالمطبعة والصحيفة ، وبالمستشرقين الذين يدعون معرفة الاسلام وتاريخه ، وبالتراجمة الذين تخرجوا من مدارس اللغات الشرقية الاروبية أو من الذين جاؤا من الشام ومصر بعد ان ارتبطوا بالحضارة الاروبية عقب حملة نابليون (٨) ·

وهناك ثانيا دافع السيطرة والاحتلال ، ولا يمكن ان يتحقق ذلك الا بجمع الاثار المكتوبة وغير المكتوبة وتمحيصها وتقييمها واستخلاص النتائج منها · ومن اجل ذلك استعان الفرنسيون ايضا بالكتاب الجزائريين ونذكر على سبيل المثال ما كتبه العنترى وابن المبارك عن تاريخ قسنطينة بوحي من بواسوني ، وما كتبه محمد بن على التلمساني عن علماء وهران وتلمسان بوحي من عامل وهران الفرنسي · وماثر جمه ونشره ابن ابى شنب والحفناوى وغيرهما بتحريض من الحاكم العام جونار وجملة من الباحثين الفرنسيين ·

وهناك ثالثا دافع الفضول العلمي · فقد احتلت الجزائر في وقت كان فيه العقل الاروبى (الديكارتى) جامحا يتطفل على ميادين المعرفة ويجوب افاق الحياة يكتشف اسرارها ويذوق لذاتها ويحاول السيطرة على المجهول والمخيف منها · بينما العقل الشرقى (الجزائرى) كان ما يزال راكدا قابعا· ومع سيادة العقل الاروبى ظهرت فكرة التمايز والتفاضل بين الشعوب فاصبح هناك علماء يؤمنون بافضلية الشعوب الاروبية على الشعوب غير الاروبية ، وينادون بضرورة «تمدين» هذه الاخيرة بواسطة الاولى ، وهم يطالبون بذلك لا على انه تمنيات وآمل ولكن على انه (رسالة حضارية) لا بد من القيام بها والعمل من اجلها · وسنرى ان كتاب التاريخ الجزائرى من الفرنسيين كانوا من دعاة هذا المذهب ·

وهناك اخيرا دافع الدين فقد احتلت الجزائر بعد صراع شديد بينها وبين اروبا المسيحية دام ثلاثة قرون · والاروبيون يطلقون على ذلك عهد القرصنة (٩) ، وهو في الواقع كان الفصل الثاني من عهد الحروب الصليبية · ولذلك اهتموا بتاريخ الجزائر اولا لمعرفة اسرار العهد المشار اليه ، وثانيا لتحطيم المعنويات التي قد تحدث تغييرا جذريا بعد نجاح الاحتلال · وسنرى انهم اهتموا بالدراسات الاسلامية والطرق الصوفية ورجال الدين ذوى النفوذ الروحي ، تمشيا مع هذا الاتجاه · كما شاركت الكنيسة ، بواسطة رجال التبشير ووسائلها المعنوية والمادية في تبنى هذا الاتجاه (١٠) ·

ويمكن ان نقسم فترات البحث في تاريخ الجزائر الى عهدين كبيرين هما : عهد المؤرخين

العسكريين وعهد المؤرخين المختصين او الجامعيين · وسندرس فيما يلى اهم ما تميز به كل عهد من الاهمامات ، واشهر رجال كل عهد ·

عهد المؤرخين العسكريين ١٨٣٠ ـ ١٨٨٠ :

يطلق المؤرخ ستيفان غزال على هذا العهد اسم (المدرسة الجزائرية القديمة)(١١) فى كتابة التاريخ · ذلك ان الذين تولوا كتابة تاريخ الجزائر ، الاقتصادى والسياسى والادارى خلال هذا العهد هم كتاب عسكريون بالمهنة او تراجمة عسكريون وقد ظلت الادارة الفرنسية فى الجزائر عسكرية من ١٨٣٠ الى ١٨٧١ (باستثناء سنتى ١٨٥٨ ـ ١٨٦٠) · وان هناك مناطق من الجزائر ظلت عسكرية الى قيام الثورة · ولذلك فانه يمكن ان يقال بان الحكم الفرنسى فى الجزائر كان حكما عسكريا بالنسبة للجزائريين حتى عندما كان حكما مدنيا بالنسبة للاروبيين المقيمين بالجزائر· ذلك ان الادارة الفرنسية قد اعتمدت فى (الشؤون الاهلية) على ضباط كانوا يتكونون تكوينا خاصا ثم تسند اليهم وظيفة محلية محددة كان يطلق عليها اسم (المكتب العربى) · وشيئا فشيئا اصبحت (المكاتب العربية) هى فى الواقع الحكومة المحلية التى تباشر تسيير شؤون الجزائريين · وقد اختلفت ادارة شؤون الاروبيين من عهد الى عهد · ولكنها بالنسبة للجزائريين ظلت تعتمد على (المكاتب العربية) حتى ١٨٧١ · وعند ما تحولت الادارة العليا الى ادارة مدنية فى عهد الجمهورية الثالثة اصبح الجزائريون خاضعين لاجراءات لا تختلف عن مزيج من الادارة العسكرية والبوليسية ·

ومن هنا لا نستغرب ان يتولى العسكريون وهم الذين كانوا على صلة مباشرة بالجزائريين كتابة تاريخ محكوميهم · فخلال العشر سنوات الاولى من الاحتلال ظهر كتاب عسكريون امثال كاريت ، وبيليسى وهانوتو ، وديلامار ، وغيرهم· وقد شارك هؤلاء فى «اللجنة العلمية» التى اشرنا اليها (١٨٣٧) والتى كونتها وزارة الحربية لاكتشاف الجزائر ومعرفة احوال اهلها الماضين· وهكذا كتب كاريت عن القبائل الجزائرية وعن العلاقات الاقتصادية بينها ، وكتب بيليسى دى رونو كتابه (اخبار الجزائر) الذى ارخ فيه للثمانى عشرة سنة الاولى من الاحتلال · كما كتب هانوتو عن لهجات ونظم الجزائريين ، وجمع ديلامار وثائق عديدة عن الآثار والخطوط · يضاف اليهم البارون دى سلان الذى ترجم تاريخ ابن خلدون وجغرافية البكرى وغيرهما ، واختص الضابط بروسلار بالخط العربى · وقام فورنيل بكتابة تاريخ شمال افريقية فى العصور الوسطى اما لاكروا فقد نشر دراسات عن الاستعمار والادارة الرومانية فى افريقية · ومن كتاب هذا العهد ايضا بيربرجر الذى ملأ (المجلة الافريقية) بمقالاته عن اخبار الجزائر سواء التى جمعها مباشرة او التى ترجمها عن كتاب مسلمين مثلما فعل مع رحلة العياشى ·

واذا كان هؤلاء قد التفوا حول (اللجنة العلمية) فان هناك جماعة اخرى من الباحثين العسكريين قد التفوا حول مشروع (لوحة عن وضع المنشات الفرنسية فى الجزائر) وقد ظهر من هذا المشروع الضخم سبعة عشر مجلدا ، بين سنوات ١٨٤٣ ـ ١٩٦٤ · وفيه دراسات احصائية وغوص فى حياة السكان · ورغم قدم العهد فان هذه المجادات ما تزال مرجعا للباحثين · ومن كتاب هذا العهد شارل فيرو ، والاسكندر بيلامار، وارنو ، وولسن ايسرتهازى ، وروبان ، وترملي

ولويس رين ، وغيرهم • وبالاضافة الى مشروع (اللوحة) تجمع هؤلاء حول (جمعية قسنطينة للآثار) و (الجمعية التاريخية الجزائرية) ومجلتيهما • وقد امدوا هذه المنشآت بالدراسات والمذكرات عن القبائل وزعمائها والطرق والاثار والتواريخ المحلية • واللهجات والنظم والشخصيات السياسية التى لعبت دورا فى تاريخ الجزائر كالامير عبد القادر ، والحاج احمد وبومعزة ، وبوبغلة ، والحوادث الهامة كالمعارك والثورات ، ودور بعض العائلات والطرق الصوفية ، ولا نكاد نجد تاريخا لحروب الامير ، ونزاع الحاج احمد مع خصومه فى الزيبان وحوادث جرجرة ، وثورات أولاد سيدى الشيخ وثورة ١٨٧١ ونحوها الا بالعودة الى كتابات بيلامار ، وزيروكا ، وروبان ، وورين وتروملى ، ودوماس ، ودونوفو ، واضرابهم (١٢) •

وقد اعتمد هؤلاء فى كتاباتهم على المصادر الاهلية فى غالب الاحيان • وهذه المصادر على نوعين مكتوبة وشفوية • ومن المصادر المكتوبة وثائق العائلات الكبيرة ، وعقود الملكية، ومذكرات رجال العلم الجزائريين • اما المصادر الشفوية التى اعتمدوا عليها اكثر من الاولى ، فقد جعلتهم يسجلون قصصا واحداثا من مختلف المشارب والانواع (١٣) ، وقد ساعدت الادارة هؤلاء الباحثين بجمع ما تفرق من الوثائق العربية والتركية التى وجدها الفرنسيون ساعة دخولهم الجزائر ، وفى هذه الوثائق معاهدات ، ودفاتر حساب ، وسجلات عسكرية ، وعقود وأوراق ادارية ، فقد انشئت (ادارة الدومين) ووضعت تلك الوثائق فى قسمها العربى الذى اسندت ادارته الى السيد ديفو وظل ديفو ٢٥ سنة كمحافظ للارشيف العربى ، ونشر خلال ذلك وثائق هامة عن تاريخ الجزائر الدينى ، والعسكرى ، والبحرى (١٤) • ورغم ان اعمال هؤلاء الباحثين العسكريين كانت تعتمد الجمع ، ولا سيما من المصادر الشفوية والمشاهدات الشخصية ، فانها قد تركت للمؤرخين اللاحقين ارضية يبداون منها ومنافذ يطلون منها على احوال الجزائريين الذين لم يكونوا يعرفون عنهم الا القليل •

عهد المؤرخين الاختصاصيين ١٨٨٠ ـ ١٨٥٤ :

بتاسيس جامعة الجزائر يبدأ عهد جديد من كتابة تاريخ الجزائر عند الفرنسيين • ففى سنة ١٨٨٠ صدر قانون بانشاء (المدارس العليا) فى الجزائر ، وهى التى اصبحت بعد حوالى ثلاثين سنة (١٩٠٩) جامعة الجزائر ، وكانت المدارس العليا تضم مدرسة الآداب ، ومدرسة الطب ، ومدرسة الحقوق ، ومدرسة العلوم ، وقد تكاثفت جهود اساتذة الجامعة مع جهود رؤساء الجمعيات التاريخية والاثرية التى سبق ذكرها ، وكتاب الدوريات العلمية ، واساتذة التاريخ فى الثانويات ونتج عن هذا التكاثف اهتمام خاص بتاريخ الجزائر ، ولكن ميلاد المدارس العليا تصادف مع موجة الاستعمار العنيفة التى بلغت ذورتها بالنسبة للجزائر فى الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال ، وتعكس الدراسات التى ظهرت خلال هذا العهد مدى تبعية كتابة التاريخ للاستعمار ، أو مدى ذاتية المؤرخ عندما يرتبط بمصلحة وطنه ويضحى فى سبيل ذلك بقيم البحث واخلاق العلم ، ذلك ان كتابات هذا العهد كانت تعمل على تبرير الاستعمار والتاريخ له ، وتعمل فى النهاية على انجاحه واستمراره (١٥) •

وتصادف ميلاد جامعة الجزائر ايضا مع احتلال فرنسا لتونس واهتمامها بقضية المغرب الاقصى ، وبذلك اتسعت رقعة البحث لدى مؤرخى هذا العهد واصبحوا يتناولون فى كثير من الاحيان تاريخ شمال افريقية بصفة عامة ، ويربطون بين مصالح فرنسا فى الاقطار الثلاثة ، ويضاف الى ذلك منطقة الصحراء التى دخلت اهتمامات الابحاث الفرنسية خلال هذا العهد ايضا ، ولا غرابة ان نجد بعض التراجمة والباحثين الذين (تدربوا) فى الجزائر قد اصبحوا عاملين فى تونس والمغرب أيضا ، ولا غرابة ايضا ان تتكون سنة ١٩٣٥ (اتحادية الجمعيات العلمية لشمال افريقية) وقد اصبحت تجتمع كل سنة فى احدى مدن المغرب العربى لتنسق جهودها وتتذاكر فى خططها وتتبادل الخبرات والمعلومات وتلقى خلال ذلك الابحاث والدراسات ، وخلال هذا العهد ولد أيضا (معهد الدراسات الشرقية بالجزائر) ١٩٣٣ الذى أخذ على عاتقه الاهتمام بالحياة العربية الاسلامية لماضى الجزائر بالذات وقد تولى كبر أموره السيد جورج مارسى ثم هنرى بيريس المعروف بتعصبه ضد الجزائريين ، كما ولد سنة ١٩٤٠ (معهد الابحاث الصحراوية) ·

بدأ اذن العهد الجديد من اهتمام الفرنسيين بتاريخ الجزائر خاصة وماضى شمال افريقية عامة (بعد احتلال تونس والاستعداد للمغرب) عندما فتحت مدرسة الآداب العليا (كلية الآداب فيما بعد) مجال التدريس والبحث فى تاريخ المغرب العربى وافريقية ، ولما كانت الابحاث تهدف الى خدمة الادارة الاستعمارية سواء فى الجزائر أو فى غيرها من اجزاء افريقية ، فان تسهيلات وتشجيعات مادية ومعنوية قد توفرت للاساتذة سواء اثناء وجودهم على كرسى التدريس أو اثناء تنقلاتهم بحثا عن المعارف والمصادر · وتذكر المصادر أن هؤلاء الاساتذة قد تنقلوا كثيرا وبعيدا وركبوا فى سبيل هدفهم الاحصنة والبغال وحتى الجمال (١٦) · ومن الاساتذة الجامعيين الذين برزوا خلال هذا العهد السيد ماسكرى ، الذى لم يختص بموضوع بعينه ورينى باسى الذى اختص بالدراسات اللغوية واللهجات المحلية ، ودوتى الذى كرس جهوده للابحاث الاجتماعية ، وجورج ايفير الذى اهتم بتاريخ الاحتلال ، وستيفان غزال الذى تخصص فى تاريخ شمال افريقية القديم ، ومارسيل ايمريت الذى اهتم بالنواحى الاجتماعية والاقتصادية للاهالى خلال العهد الفرنسى ، وياكونو الذى تناول قضايا الاستعمار والمكاتب العربية ، ويضاف الى هؤلاء عدد من المهتمين بتاريخ شمال افريقية فى فرنسا نفسها أمثال شارل اندرى جوليان (تاريخ شمال افريقية) وما نصو (التاريخ الادبى لافريقية المسيحية) ، وكانيا (الجيش الرومانى الافريقى) وديل (افريقية البيزنطية) ·

وخلال هذا العهد انشئت عدة مصالح ساعدت هؤلاء المؤرخين الاختصاصيين على اداء مهمتهم ففى سنة ١٨٨٠ تأسست (مصلحة الآثار التاريخية)بالجزائر، وهى التى قامتبيعث مدينتى جميلةوتيمقاد الرومانيتين ، وفى باريس تأسست سنة ١٨٨٣ (لجنة افريقية الشمالية) التى كانت مهمتها بعث الوثائق والخطوط والنقوش الاثرية· وفى عهد جونار تأسست سنة ١٩١٥ لجنة بالجزائر عهد اليها بنشر مراسلات ومذكرات رجال العهد الفرنسى فى الجزائر وعلاقات الاهالى معهم ، وضمن هذا المشروع صدرت

مراسلات كلوزيل وروفيقو وفوارول وديرلـون وآثار بوتان كما صدر كتـاب (الجزائر فى عهد الامير عبد القادر) لا يمريت ، وفى عهد جونـار ايضـا اعطيت الاشـارة لتشجيع الدراسـات الاسلامية فقام محمد بن أبى شنب بنشر رحلتى ابـن عمـار والورتلانى ، وتحقيق كتب قديمـة كعنوان الدراية للغبرينى ، والبستان لابن مريم ، وبغية الرواد ليحى بن خلدون ، وقام الحفناوى بوضع قاموس تراجمـه (تعريف الخلف بـرجال السلف) وتولى لوسيـانى (الذى كـان مسـؤول الشؤون الاهلية فى نفس الفترة) التعريف بآثـار رجال الدين المسلمين كالسنوسى وعبد الرحمن الاخضرى ٠

وعندما حان الاحتفال بمـرور مائـة سنة على الاحتلال تجند هؤلاء المؤرخون فى اللجـان التى كونتهـا (الحكومة العـامة) عندئذ لوضـع دراسات تركيبية عن تاريخ الاستعمار فى الجزائر وعن جهود فرنسا الحضارية فيها ، مـع نظـرة نقدية شاملة لما تحقق فى ميدان الكتابة التاريخية حتى ذلك العهد ، وقـد خرجت مـن هذا الجـهد مجموعة من الابحاث اصبحت تعرف (بمجموعـة المائة سنة) وهى تشمل ميادين التاريخ ، والآثـار والجغرافية ، والفنون ، وغيرها ، وهذا اللقـاء بين المؤرخين الفرنسيين فى جامعة الجزائر وبين الحكومة العامة يبرهن من جديد على مدى تواطىء هؤلاء المؤرخين مع الادارة الاستعمارية وخدمتهم لاغراضها ٠

وبحلول سنـة ١٩٥٦ احتفلت (الجمعيـة التاريخيـة الجزائرية) ومجلتها (المجلة الافريقية) بمرور مائة سنة أيضا على ميلادها ، وقد قـدم عدد من المؤرخين الجامعيين والباحثين دراسات هامة عن تقدم الكتابـة التاريخية خـلال سنوات ١٩٣٠ ـ ١٩٥٦ ٠ ونذكر من بين هذه الدراسات عن الفتـرة التى نكتب عنهـا مقالـة ياكونو التى تناول فيها تقييم ما كتب منذ الاحتلال ، وجزءا من مقالـة روجى لوثورنو عـن (العصـور الوسطى والعهود الحديثة) ، وهما بحثان غنيـان بالآراء والملاحظات والمراجع ، وفى نفس الوقت يبرهنان على مـدى مـا وصلت اليـه الكتابـة التاريخية الفرنسية عن الجزائر ، ومن جهة أخرى نـلاحظ أن البحثين كتبا فى بداية أحداث الثورة الجزائرية ولذلك لا نستغرب ان ينتهى لوتورنو الى القول بأن «البحث التاريخى عن الجزائر المسلمة ما يـزال بعيدا عن الانتهاء (١٧)» وان ينتهى زميله ياكونو الى القول بانه لا توجد دراسة شاملة عن سياسة فرنسا الاسلامية فى الجزائر ولا عن التحول الذى أصاب الاهالى بتأثر الاستعمار(١٨) ٠ والواقـع أن المؤرخين الفرنسيين فى الجزائر قـد درسوا تاريخ الحملة والاحتلال والاستعمار ، ولكنهم لـم يدرسوا تطـور المجتمـع الجزائرى ولا سياسـة بلادهم نحو الجزائريين ٠

مواقف المؤرخين الفرنسيين من قضايا التـاريخ الجزائرى :

رغم بحث الفرنسيين عن المصادر الاهلية فانهم كثيرا مـا شككـوا فى قيمتهـا واتهموهـا بالتجريدية والمبالغـة ، بـل نـادى بعضهم بعدم الاعتماد عليها ، فقد ادعى وليام مارسى انه يجب الاعتماد فى كتابة تـاريخ الجزائـر خـلال العهد العثمـانى على المصـادر الاوروبيـة ووثـائق الارشيف الرسمية والتجارية (١٩) ، وهو فى هذا يقتدى برأى دى سلان الذى شك فى صحة اخبار

العرب عن المغرب (٢٠) • ووافقه فى هذا الادعاء استيفان غزال حيث قال عن العهد الاسلامى (من الفتح العربى الى ١٥٠٠) ان الباحث فيه يدخل فى «ظلام دامس» لعدم وجود الوثائق الصحيحة والمعاصرة ، وقال ان الباحث لا يجد سوى بعض الحوادث المتأخرة وغير المنقودة وبعض التسجيلات للاحداث لكنها تسجيلات مرتبطة بالنظم العسكرية وغير نزيهة • ولم يستثن غزال من هذا الحكم سوى ابن خلدون ، لذلك نادى ايضا بالاعتماد على رحلات الاوروبيين وارشيف الدول الاوروبية • وقد وقف نفس الموقف من المصادر الاهلية خلال العهد العثمانى ، فقال ان المؤلفين العرب لم يكتبوا عن السادة (يعنى الاتراك) وعلاقاتهم بالاوروبيين والسلطان ، لذلك راى ايضا الاعتماد ، لدراسة هذا العهد ، على الارشيفات الاوروبية ، والارشيف التركى ، والرحلات الاوروبية (٢١) ، والواقع ان الذى سبق الى هذا الراى هو دى غرامون الذى رفض فى كتابه عن تاريخ الجزائر العثمانية الاعتماد على المصادر الاهلية لعدم الثقة فيها •

ومع هذا الموقف المجحف من المصادر الاهلية ، فان الفرنسيين قد عملوا كما لاحظنا سابقا على ترجمة الآثار العربية عن الجزائر فى شتى العصور ، ولا يكاد يوجد مخطوط رحلة او وثيقة او مجموعة رسائل او سجلات حكومية الاترجموها كاملة او مجزاة ، ويطول بنا الحديث لواستعرضنا هنا كل الاعمال التى قاموا بها فى هذا الصدد، ويكفى ان نحيل القارىء الى الدراسة القصيرة ، لكنها مفيدة ، التى قام بها السيد هنرى ماسى بعنوان (الدراسات العربية فى الجزائر من ١٨٣٠ ــ ١٩٣٠) وهى الدراسة التى اخرجها بمناسبة الاحتفال المئوى بالاحتلال ، وكذلك الدراسة التى قام بها السيد كور بعنوان (ملاحظات عن كراسى اللغة العربية) فى الجزائر ونود أن نلاحظ ان الفرنسيين لم يكتفوا بما قام به مترجموهم فى نشر الدراسات الاسلامية العربية عن الجزائر ، بل استعملوا ، كما اسلفنا ، بعض المثقفين الجزائريين لنفس الغرض ايضا ، ومن هؤلاء محمد بن ابى شنب ، والعنترى ، والحاج صادق ، وصوالح ، واسماعيل حامد ، ويكفى ان نذكر فى هذا الصدد ترجمات الفرنسيين للكتب التالية : (تاريخ باشوات الجزائر) لابن المفتى ، و (الزهرة النيرة) للتلمسانى ، و (غزوات عروج وخير الدين) لمجهول ، و (الحلل السندسية) و (عجائب الاسفار) لابى رأس الناصرى ، و (بهجة الناظر) للمشرفى ، و (رحلة الباى محمد الكبير) لابن هطال ، و (رحلة الورتلانى) ، و (رحلة ابن عمار) ، و (كشف الرموز) لابن حمادوش ، و (تاريخ قسنطينة) لابن المبارك ، و (مذكرات) حمدان خوجة ، و (مذكرات بوضربة و (مذكرات) سى عزيز بن الشيخ الحداد ، و (مذكرات) الحاج احمد باى قسنطينة ، و (تاريخ بنى زيان) للتنسى ، و (تاريخ العدوانى) ، و (الفارسية) لابن قنفذ وغيرها • بالاضافة الى العديد من الوثائق والرسائل والشعر الملحون، وكتب الفقه والنحو والاصول •

واذا كان هؤلاء المؤرخون قد اهتموا بالطرق الصوفية ورجالها وبكتب الفقه والاصول كمصادر للتفكير الاهلى ، فانهم وقفوا موقفا مشبوها من الاسلام، ذلك اننا لا نجدهم يعترضون على استيلاء الادارة الاستعمارية على ضم الاوقاف الى الدولة (الدومين) ولا على تحويل المساجد الى كنائس ،

ولا على تهديم بعضها ، حتى باسم الآثار والحرص على (الوجه الافريقى) للجزائر ، وقد اكثروا فى كتاباتهم من استعمال عبارات «الاسلام الجزائرى» و «الاسلام الجزائرى الجديد» وهم يعنون الاسلام كما يمارسه الجزائريون الذين يتهمونهم بانهم لم يعتنقوه عن وعى ولم يمارسوه عن عقيدة ، وانما هو عندهم نوع من التقاليد الموروثة والفولكلور الذى يظهر فى المناسبات ، ويتجلى هذا الموقف من نعت الفتح العربى (بالغزو العربى) ، ومن التركيز علىاحداث تاريخيةخاصة كحادثة الكاهنة مع حسان بن النعمان ، وحادثة كسيلة وعقبة بن نافع . وعندما تحدثوا عن هجرة بنى هلال تحدثوا عنها «كفارة ذئاب» ، حسب تعبير ستيفان غزال ، على المغرب قصد فرض لغتهم ودينهم على السكان، وقد تاسف هذا الكاتب على أن الرومان قد اخطاوا عندما لم يحولوا السكان فى شمال افريقيا الى «مسيحيين لاتينيين (٢٢) .

ويعزو هؤلاء المؤرخون شدة مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسى لا الى الروح الوطنية والنفور من حكم الاجنبى وانما لضيق الافق والتعصب الدينى (٢٣) ، اما ايميل قوتى فقد اطلق اسم « القرون الغامضة » على عهد الامارات الاسلامية فى الجزائر والمغرب من الفتح العربى الى مجىء العثمانيين ، ويتصل بهذه النقطة اعتناؤهم « بقديسى الاسلام » فى الجزائر فقد نشر دوتى كتابا بعنوان (الاسلام الجزائرى) ونشر ترو ملى كتابا بعنوان (قديسو الاسلام الجزائرى) واهتم دونوفو ولويس رين وكولانى (بالمرابطين والاخوان) ودرس اغسطين بيرك (المرابطين والعلماء) ، واخرج مارسيل بودان دراسة عن احمد بن يوسف الملياني ، وهلم جرا.

والكتابات التى كتبها الفرنسيون عن الامير عبد القادر كثيرة ، ولكنها لا تخرج فى اغلبها عن الحط من دوره الوطنى ، وجعله شخصا متعصبا دينيا فى البداية وصديقا لفرنسا فى النهاية ، وهذا الموقف يلخصه بصراحة كتاب بول ازان المسمى (الامير عبد القادر من التعصب الاسلامى الى القومية الفرنسية) ذلك ان أسناد دور المدافع الوطنى للامير يبطل عمل فرنسا فى الجزائر ، والغريب أن مؤرخا مختصا مثل جورج ايفير الذى تناول الامير وعصره فى عدة مناسبات يقول عن الامير انه لم يكن بطل جنسية عربية فى الجزائر لانها لم توجد ، ولم يكن سياسيا مجددا يهدف الى ادخال الحضارة الاوروبية على مواطنيه الذين كانوا (نصف برابر) ولكنه كان مرابطا طموحا ارادان يحل نفسه محل الاتراك ، واستغل لتحقيق ذلك الهدف غفلة الفرنسيين ونسبه الشريف وشجاعته الشخصية ، ويضيف ايفير أن الامير قلد الاتراك فى ادارتهم لانها كانت تصلح للاهالى، فملا خزانته بالمال مثلهم (الاتراك) واعتمد على حكم القوة ، وقد اخذت فرنسا هذا النظام ايضا وطبقته على الاهالى ولكنها جعلته (اكثر انسانية) وينهى ايفير حكمه على الامير بقوله انه لم ياخذ من الحضارة الاوروبية الوسائل المادية التى تجعله يتخلص بسهولة من اعدائه المسلمين والمسيحيين على السواء (٢٤) ، ولم يكن بول ازان واندرى جوليان (٢٥) اقل قسوة فى الحكم على الامير من ايفير . ونفس الموقف فى الواقع يقفه هؤلاء المؤرخون من زعماء المقاومة الوطنية ، فلا الحاج احمد ولا المقرانى ولا الحداد ولا بوبغلة ، ولا حمدان خوجة قد وجد من هؤلاء دارسا نزيها يحكم له او عليه ، دون الارتباط المسبق بخدمة المصلحة الاستعمارية ، ذلك أن

الهدف البعيد لهؤلاء المؤرخين هو تجريد الجزائريين من «ابطالهم» كما حاولوا تجريدهم من اسلامهم الحق ، واتهامهم بالايمان « باسلام جزائرى » هو اقرب الى الخرافة منه الى العقيدة الراسخة الواعية ٠

واذا كان المؤرخون العسكريون يعرفون فى الغالب اللغة العربية التى استفادوا منها ونقلوا عنها ، فان المؤرخين الاختصاصيين الذين يفترض فيهم البحث فى تاريخ الجزائر معرفتها ، كانوا يجهلونها فلا ايفيرولا غزال ، ولا ايمريت ولا ياكنو كانوا يتقنون اللغة العربية ـ لغة الشعب الذى يكتبون عنه ـ ومن هنا اعتمدوا فى فهم (الروح الاهلية) على ترجمات الصنف الاول من المؤرخين وعلى خريجى (مدرسة بيريس) من الجزائريين الذين كانت مهمتهم سواء كانوا تراجمة عسكريين او شرعيين أو معلمين ، ترجمة المصادر الاهلية للفرنسيين ٠

ويتبين من هذا ان اللغة العربية لم تكن محل ثقة عند المؤرخين الفرنسيين (لانهم انتقدوا مصادرها) كما انها لم تكن اداة تاريخ عندهم ، وهم بذلك يصدقون على وجهة نظر الدوق دى روفيقو الذى اعلن سنة ١٨٣٢ عندما كان قائدا اعلى للجيش الفرنسى فى الجزائر قائلا ان هدفنا هو ان نحلّ الفرنسيّة محل العربية بنشرها بين الاهالى عن طريق السلطة والادارة ، ولا سيما اذا اقبل الجيل الجديد على التعلم فى مدارسنا (٢٦) ٠

وقد اكدت هذا الاعلان الرسمى جريدة (المرشد الجزائرى) فى فاتح سنة ١٨٣٣ عندما كتبت تقول ان هدفنا هو ان يعرف الاهالى لغتنا لا ان يعرفوا لغتهم ، فالعربية ليست مفيدة لنا الا فى علاقتنا بهم ، اما الفرنسية فهى لا تفتح لهم باب العلاقات معنا فقط ولكنها بالنسبة اليهم هى المفتاح الذى يدخلون به الى كتبنا واساتذتنا ، اى الى العلم نفسه ، وقد لخصت هذه الجريدة الموقف بقولها : ان ما بعد تعلم العربية ليس سوى اللغة اما ما بعد تعلم الفرنسية فهو جميع المعارف الانسانية (٢٧) ٠

وقد اكدت سنوات الاحتلال المتلاحقة على هذا الاتجاه ، ولذلك لا نستغرب ان لم يستعمل المؤرخون الفرنسيون فى الجزائر اللغة العربية فى مصادرهم ، باستثناء بعض الترجمات كما لاحظنا ، بل انهم لا يكادون يعودون ، فى تناولهم للعهد الفرنسى ، حتى الى ما كتب باللغات الاوروبية الاخرى عنه ، وقد لاحظنا انهم يلجأون الى هذه اللغات فى العهود السابقة لسنة ١٨٣٠ لعدم ثقتهم فى المصادر العربية عن الجزائر ٠

والمتتبع لانتاج هؤلاء المؤرخين يجدهم يتناولون كل الموضوعات تقريبا ما عدا (الشعب الجزائرى) واذا ما اطلقت هذه العبارة (الشعب الجزائرى) عندهم فهم يعنون بها السكان الاوروبيين بالجزائر ، اما السكان الاصليون فهم (أهليون) وهو تعبير يشعر الجزائريين بالذلة والصغار ، لانه لا يطلق الا على من كانوا غير مواطنين ، اى غير المتساويين مع الآخرين فى الحقوق والواجبات ، وبهذا المعنى ظل مؤرخو العهد الاستعمارى يكتبون ، فغطوا ميادين الحملة والاحتلال والاستعمار والجيش الفرنسى ، والادارة والتشريعات والهجرة الاوروبية والاقتصاد ، واللهجات المحلية والطرق الصوفية ٠٠ الخ ، الا (الشعب الجزائرى) أو الوطنية الجزائرية (٢٨) ٠

وهذا فى الواقع هو النقص الفادح فى الكتابات التاريخية الفرنسية عن الجزائر الذى ظل الى قيام الثورة ، بدون تدارك · وقد اشرنا سابقا الى ملاحظة ياكونو الذى كان يكتب سنة ١٩٥٦ · ومن جهة اخرى اعترف جورج ايفير سنة ١٩٣٠ انه قد كتب الكثير عن الجزائر منذ مائة سنة ولكن الكتابات التاريخية الموضوعية قليلة وسطحية ، وكثير منها عبارة عن نقل عما سبقها (٢٩) · غير ان ستيفان غزال الذى كان يكتب فى نفس السنة تمنى ان يرى علماء يكتبون تاريخا عن الاسلام فى شمال افريقيا ، وتاريخا عن المنشآت الاسبانية والبرتغالية فى شمال افريقيا ايضا ، وتاريخا كاملا عن الاحتلال الفرنسى ، وتاريخا عن الاستعمار الفرنسى فى الجزائر (٣٠) · هذه اذن هى تمنيات المؤرخ الفرنسى بعد مائة سنة من الاحتلال · والذى يلاحظ على هذه التمنيات ان صاحبها لم يقترح كتابة تاريخ اى جانب من جوانب المجتمع الجزائرى (سياسيا ، اقتصاديا ، ثقافيا) · ولكن الذين واصلوا الرسالة بعد ١٩٣٠ لم يخرجوا عن هذا الاطار الذى تمناه لهم ستيفان غزال ·

بعض الاستنتاجات :

ومما سبق يتضح ان الفرنسيين قد كتبوا الكثير عن الجزائر وتناولوا تقريبا كل فرع من فروع المعرفة الخاصة بها · كما انهم ادخلوا تكنيكا جديدا فى البحث ، واستعملوا طريقة النقد الحديثة للمصادر ، وتوصلوا الى جمع آثار ومخطوطات ووثائق كثيرة عن الجزائر وحفظوها فى المتاحف والمكتبات والارشيفات وانشاوا الجمعيات العلمية ، وعقدوا اللقاءات والمؤتمرات التى يكشفون خلالها عن اكتشافاتهم ويتبادلون الخبرات والمعلومات ويوثقون الصلات فيما بينهم· وبالاضافة الى ذلك اسسوا الصحف والدوريات التى كانت تنشر ما توصلوا اليه من نتائج وما جمعوه من مواد · وكانت الادارة العامة للجزائر تمدهم بالمال وتوفر لهم امكانيات الانتقال والاتصال والاطلاع ، وتساهم فى تجمعاتهم وفى جمعياتهم وفى طبع انتاجهم · كما كانت الجامعات والمعاهد الفرنسية فى فرنسا تساهم هى الاخرى بامكانياتها البشرية والعلمية والمعنوية فى دفع عجلة البحث الذى يقوم به الفرنسيون بالجزائر· وكانت الحكومة الفرنسية ايضا تغطى نشاطهم وتفتح امامهم مجالات العمل وتشجع على عمل اللجان وتحمي مغامرات الافراد من اجل البحث لانها فى الواقع هى المستفيدة فى نهاية المطاف ·

ولكن هؤلاء الكتاب والباحثين لم يكونوا مؤرخين بالمعنى الاختصاصى الدقيق للكلمة · كان معظمهم من الهواة ومن كتاب الثقافة العامة والانطباعات والمذكرات ، والتقارير الرسمية · وقد راينا انهم فى الفترة الاولى كانوا ضباطا عسكريين يجمعون بحماس شديد كلما تقع عليه ايديهم من مصادر مكتوبة او شفوية ، ومن اثار قديمة وحديثة · وهدفهم من ذلك الوصول الى فهم السكان الذين يحكمونهم وليس هدفا علميا · وكانوا يحصلون على تلك المصادر بالاغراء تارة وبالقوة تارة اخرى وبالضغط مرة ثالثة · وتذكر الكتابات انبيربروجر كان يتبع الجيش حيثما توجه ، وعندما تحتل مدينة يأخذ هو المخطوطات العربية من الزوايا والجوامع والمكتبات الخاصة ويعود بها الى العاصمة (٣١) · كما تذكر المصادر ان الجزائريين كانوا يضطرون الى بيع مخطوطاتهم وآثارهم وتحفهم اثناء شهر رمضان الذى تكثر فيه المطالب الاقتصادية (٣٢) ·

وكان بعض الباحثين الفرنسيين قد حصل على جواز مرور من الحاكم العام ليجمع المعلومات والكتب من مكتبات الزوايا فى الصحراء · وكان الاهالى يخافون فيقدمون ما عندهم عندما تطلب منهم سلطات المكاتب العربية ذلك · ولعل بعضهم كان يفعل ذلك تملقا وتقربا ايضا ، وهكذا توفرت للباحثين الفرنسيين العسكريين مصادر اهلية استفادوا منها كثيرا فى حكمهم للشعب الجزائرى ·

ونفس الظاهرة تنطلق على كتاب العهد الثانى · فاذا استثنينا بعض المؤرخين الاختصاصيين الذين تميزت كتاباتهم بالتحليل والنقد والمقارنة ، فان معظم الذين يطلق عليهم (مؤرخو الجزائر) لم يكونوا فى الواقع مؤرخين وان كانوا باحثين بالمعنى الواسع للكلمة · اخذ مثلا ايميل قوتيى الذى كتب (القرون الغامضة) والذى كتب تاريخ الاستعمار الفرنسى حتى سنة ١٩٣٠ · انه لم يكن مؤرخا بالمعنى الدقيق· بل كان كاتبا عاما فى قضايا الاستعمار والمستعمرات · وكان اساس اهتمامه الجغرافية وطبقات الارض ونحو ذلك· وخذ مثلا آخر جوزيف ديبارسى الذى كتب الكثير عن عادات وتقاليد الشعب الجزائرى ، انه لم يكن مؤرخا هكذا ايضا وانما اهتم اثناء تدريسه بالبليدة ، بالنواحى الفولكلرية الجزائرية ، فركز على هذا الجانب وجمع منه مواد كثيرة فى العقائد الشعبية والخرافات ونحوها · وقد كان هدف هؤلاء ، كما كان هدف اولئك، هو مساعدة الادارة الاستعمارية الفرنسية فى الجزائر لكى تسيطر على مقاليد الجزائريين وبالطبع الدعاية للثقافة والوجود الفرنسى بين الجزائريين من جهة وبين الاجانب من جهة أخرى ·

ويمكننا تلخيص النواحى الايجابية فى أعمال المؤرخين الفرنسيين بالجزائر فى النقاط التالية· (١) جمعهم المصادر والآثار وحفظها فى المكتبات والمتاحف والسهر عليها والاستفادة منها · (٢) نشر كثير من الآثار العربية الاسلامية فى لغتهم ، واحيانا فى نصها الاصلى ، وبذلك ساعدوا على بقائها ومكنوا الباحثين منها · (٣) استخدام التقنية الحديثة فى البحث كتصيف المواد حسب الاختصاص ، وتنظيم الفهارس ، والكاتالوق ، والتنظيم الا بجدى ، ومصطلح الفترات الزمنية والتصوير ، وما الى ذلك ·(٤) استعمال وسائل البحث وتشجيع الباحثين ، وشيوع التضامن العلمى بينهم وتبادل الخبرات عن طريق نشر الدوريات والكتب وعقد الملتقيات والمؤتمرات ، وتبادل الزيارات ، وتوفير المادة الضرورية لجمع المعلومات ونشرها باقرب الطرق (٥) · واخيرا نقد المصادر والوقوف منها موقف الشك والتحفظ وهذه النقطة وان كانت ايجابية اذا نظرنا اليها كظاهرة من ظواهر البحث الحديث الا انهم طبقوها خصوصا على المصادر العربية – الاسلامية ، فاصبحت وكانها ظاهرة غير علمية فى هدفها رغم ان اساسها علمى واضح ·

اما النواحى السلبية عندهم فيمكن حصرها ايضا فى النقاط التالية : (١) اهمالهم للشعب الجزائرى فى تناولهم لتاريخ الجزائر· لقد كتبوا عن الجزائر كمنطقة جغرافية من العالم تداولت عليها الدول والشعوب من الفنيقيين حتى الفرنسيين · وليس هناك فى نظرهم «شعب» أو «أمة» او «كيان» او «مجتمع متماسك» وانما هناك قبائل متنافرة متنابزة تخوض حروبا مستمرة ، ولا تخضعها الا القوى كالرومان والاتراك

والفرنسيين · هذه هي «فلسفة» الفرنسيين في كتابتهم تاريخ الجزائر وهم لم يطبقوا هذه «النظرية» على عهدهم الذي يبدأ من سنة ١٨٣٠ ، ولكن على جميع عهود تاريخ الجزائر تبريرا لوجودهم · (٢) مجاراة المؤرخين ، عسكريين واختصاصيين، للسلطة ، ولا سيما الادارة الاستعمارية ووزارة الحربية التي كانت مسؤولة عن الجزائر ، وخضوعهم لالحاح وضغط المعمرين ، ونستطيع القول ان هؤلاء المؤرخين كانوا «اصوات» السلطة العسكرية في الفترة من ١٨٣٠ الى ١٨٧١ و «اسواط» الادارة خلال الفترة المدنية الممتدة من ١٨٧١ ــ ١٩٥٤ · وهذه (التبعية) للسلطة قد اعمتهم عن الحقيقة وجعلت اعمالهم التاريخية تفقد روح البحث المجرد، واصبحت تتميز «بالطابع الرسمي» الضيق· (٣) وهذه الظاهرة جعلتهم يركزون في كتاباتهم على التاريخ الاقتصادي والاداري والعسكري جريا وراء الاستعمار والادارة (عسكرية ومدنية) وتحركات الجيش وقواده · فاذا ماتناولوا قضية دينية او قبلية او نحو ذلك فانما ذلك من اجل محاولة السيطرة على اصحابها كما فعل دونوفو بالنسبة للطرق الصوفية مثلا · وبذلك اهمل تاريخ الجزائريين السياسي والثقافي والاجتماعي ·(٤) اهتم الفرنسيون بالعهد ١٨٣٠ ــ ١٩٥٤ وكتبوا عن رجاله وسياستهم وتغير الحكومات الفرنسية واثر ذلك على الجزائر ، وعن الهجرات الاوروبية· الخ · ويأتي في المرتبة الثانية من اهتمامهم تاريخ الرومان في الجزائر وتاريخ المسيحية فيها ، واخيرا تاريخ البيزنطيين فيها ايضا ، اما تاريخ العرب والمسلمين ، تاريخ العهد الذي تحرر فيه السكان من القيود الاجنبية واصبحوا فيه احرارا يؤسسون اماراتهم ويديرون شؤونهم بانفسهم فقد ظل عندهم «عهدا غامضا» ، حسب تعبير قوتي · وكذلك فعلوا مع العهد العثماني في الجزائر· وهو العهد الذي قويت فيه شوكة الجزائر وتوحدت فيه جغرافيا وسياسيا وتمركزت ادارتها·

هذه ، اذن بعض نقاط القوة وبعض نقاط الضعف التي تميزت بها الكتابات الفرنسية عن تاريخ الجزائر خلال الفترة من١٨٣٠ الى ١٩٥٤· واني اعترف بان هذه دراسة تفتقر الى مزيد من التعميق ، لانها في الواقع اقرب الى المدخل منها الى الدراسة الكثيفة المركزة ·

التعــــالـــيق

١) بيربروجر فى مقدمة المجلة الافريقية (١٨٥٦ ـ ١٨٥٧) ، ص ٤ ٠

٢) وليام مارسى فى كتاب «التاريخ ومؤرخو الجزائر» ، باريس ، ١٩٣١ ، ص ١٦٣ ٠

٣) انظر عنها كتابى «تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتلال» ، القاهــرة ، ١٩٧٠ (معهد البحوث والدراسات العربية) ٠

٤) ستيفان غزال فى كتاب «التاريخ ومؤرخو الجزائر» ، ص ٧ ـ ٨ ٠

٥) يعود الفضل فى تاسيسها الى الضابط كروللى ، والضابط بروسلار ، وشيربونو ، أستاذ العربية٠

٦) اول مكتب لها كان يتكون من بيربروجر (رئيسا) وعضوية دى سلان ، ودونوفو (كلاهما عسكرى) وبريسنى (كاتب عام) استاذ اللغة العربية ٠

٧) بيربروجر فى مقدمة «المجلة الافريقية» (١٨٥٦ ـ ١٨٥٧) ، ص ٤ ـ ٦ ، انظر كذلك «لوحــة عــن وضع المنشآت الفرنسية» (مجلد ١٨٤٦ ـ ١٨٤٩) ، ص ١٩٦ ـ ١٩٧٠

٨) مثل جورج غروى ، وجونى فرعون ٠ انظر شارل فيرو «مترجمو الجيش الافريقى» وكذلك هنــرى ماسى «الدراسات العربية فى الجزائر» (١٨٣٠ ـ ١٩٣٠) فاصلة من «المجلــة الافــريقية» ٣٥٦ ـ ٣٥٧ (١٩٣٣) ، ص ١ ـ ٣ ٠

٩) يقول الفريد بيل ان حكومة الاتراك فى الجزائر كانت حكومة قراصنة ، جعلت القرصنة البحريــة نظاما لها ٠ وكان اعضاؤها اتراكا أو مرتدين مسيحيين ٠ وكان اسلامهم «خفيفــا» ٠ انظــر «التاريخ ومؤرخو الجزائر» ص ١٩٤ ٠

١٠) منذ السنوات الاولى للاحتلال كانت صحيفة(المرشد الجزائرى) تتحدث عن تاثير الكنيسة على الجزائريين ٠ وسنة ١٨٤١ كون (دوبوش) رئيس كنيسة الجزائر جمعية باسم (جمعية سان أو غسطين) ٠

١١) انظر «التاريخ ومؤرخو الجزائر» ص ٧ ـ ٨٠

١٢) بالاضافة الى انهم عسكريون فانهم اصلا لم يكــونوا مهتمين بالدراســات الجزائرية ٠ غــير ان وحدة الهدف ووحدة العمل ، وكذلك الزمالة ، جعلتهــم يتكاتفون وينتجون ٠ انظر غبريال اسكــير ، «الجمعية التاريخية الجزائرية» فى «المجلة الافريقية» (١٨٥٦ ـ ١٩٥٦) ، ص ١٩٨ ٠

١٣) وليام مارسى «التاريخ ومؤرخو الجزائر» ، ص ١٦٦ ٠ ينتقد الكاتب المصادر الاهلية بانها تفتقر الى الضبط التاريخى ، فهى حسب رايه تصف احداثا مضى عليها من ٥٠ الى ٢٥٠ سنة ٠

١٤) نفس المصدر ، ص ١٦٣ ٠ يقول الكاتب ان ديفو لم يكن فوق النقد وان بعض الوثائق التى كــان يشرف عليها وجدت تباع اثنــاء حياته ٠

١٥) بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية للاحتلال (١٩٣٠) انعقد فى الجزائر المؤتمر الوطنى الثانى للعلوم التاريخية· وكان ذلك بتاييد من الحكومة العامة بالجزائر · وقد تراسه السيد كوفيل رئيس اللجنة الفرنسية للعلوم التاريخية · وكان المؤتمر الوطنى الاول قد انعقد فى باريس سنة ١٩٢٧ · وفى خطبة الافتتاح التى حضرها الحاكم العام السيد بورد ، قال كوفيل ان انعقاد المؤتمر بالجزائر لا يعنى فقط الاحتفال بحادث عسكرى مجيد (يعنى نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر) ولكنه يعنى ايضا الاعتراف بماقامت به فرنسا فى الجزائر منذ مائة سنة انظر «المؤتمر الوطنى الثانى للعلوم التاريخية» (الجزائر ١٩٣٢) ، ص ٨ ·

١٦) انظر غزال (تاريخ ومؤرخو الجزائر) ، ٩ ·

١٧) لوتورنو (المجلة الافريقية) (١٨٥٦ ــ ١٩٥٦) ، ص ١٤٣ ·

١٨) ياكونو ــ نفس المصدر ، ص ١٨٣

١٩) وليام مارسى ، «تاريخ ومؤرخو الجزائر» ، ص ١٦١ ·

٢٠) نفس المصدر ، ص ١٧٤ ·

٢١) غزال ، نفس المصدر ، ص ٦ ــ ٧ ·

٢٢) نفس المصدر ، ص ٥ ·

٢٣) الفريد بيل ، نفس المصدر ، ص ١٩٦ ·

٢٤) جورج ايفير ، نفس المصدر ، ص ٢٩٠ ·

٢٥) انظر مقالى «الاستاذ جوليان والتاريخ الجزائرى» المعرفة (الجزائرية) ، عدد جوان ١٩٦٥ ص ١٠ ــ ٢٣ ·

٢٦) ماسى «الدراسات العربية فى الجزائر ، ص ٤ ·

٢٧) (المرشد الجزائرى) عدد ٥٢ ، تاريخ ١٩ جانفى (يناير) ، ١٨٣٣ ·

٢٨) يجب ان نستثنى بعض كتابات جوليان ، ونوشى ، واجرون ·

٢٩) جورج ايفير «التاريخ ومؤرخو الجزائر » · ص ٢٦٧ ·

٣٠ غزال ، نفس المصدر ، ص ١٦ ·

٣١) انظر «المجلة الافريقية» (١٨٥٦ ــ ١٩٥٦) ، ص ١٩٥ وما بعدها ·

٣٢) انظر «لوحة عن وضع المنشآت الفرنسية» فى الجزائر» (سنوات ١٨٤٦ ــ ١٨٤٩) ، ص ١٩٦ ·

ملحـق (١)

اللجان والجمعيات التى اهتمت بتـاريخ الجزائر

١) لجنة التحقيق المعروفة باسم (اللجنة الافريقية) سنـة ١٨٣٣ .

٢) لجنة اكتشاف الجزائر العلمى (اصدرت ١٧ مجلدا) سنـة ١٨٣٧ .

٣) جمعية قسنطينة الاثرية (لها مجلة) سنة ١٨٥٢

٤) المفتشية العامة للاثار التاريخية والمتاحف الاثرية سنـة ١٨٥٤ .

٥) الجمعية التاريخية الجزائرية (لها مجلة) سنـة ١٨٥٦ .

٦) اكاديمية هيبون (عنابة) (لها مجلة) سنة ١٨٦٣ .

٧) جمعية وهران الاثرية (لها مجلة) سنة ١٨٧٨ .

٨) مصلحة الاثار التاريخية بالجزائر سنة ١٨٨٠

٩) المدارس العليا (منها مدرسة الاداب العليا) سنة ١٨٨٠

١٠) الجمعية الجغرافية لمدينة الجزائر وشمال افريقيا (لها مجلة) سنة ١٨٩٦

١١) جامعة الجزائر (منها كلية الاداب) سنة ١٩٠٩

١٢) لجنة جونار لنشر الوثائق التاريخية (نشرت مراسلات ووثائق) سنة ١٩١٠

١٣) لجنة التحضير للاحتفال المئوى بالاحتلال (نشرت المجموعة المئوية) سنة ١٩٢٥

١٤) معهد الدراسات الشرقية بالجزائر (له مجلة) سنة ١٩٣٣

١٥) اتحادية الجمعيات العلمية فى شمال افريقية (نشرت ابحاثها السنوية) سنة ١٩٣٥

١٦) معهد الابحاث الصحراوية بالجزائر (له مجلة) سنة ١٩٤٠

١٧) جمعية اصدقاء تلمسان القديمة سنة ؟ ١٩

١٨) جمعية تبسة لما قبل التاريخ والاثار سنة ؟ ١٩

١٩) الجمعية التاريخية والجغرافية لمنطقة سطيف سنة ؟ ١٩

ملحــق (٢)

الجمعيات العضوة فى «اتحادية الجمعيات العلمية بشمال افريقية» عام تاسيسها سنة ١٩٣٥ بالجزائر

عن الجزائر :

- اكاديمية هيبون (عنــابة)
- مركز دراسات الاستعمار المقارن
- معهد الدراسات الشرقية
- الفرع الجزائرى للجمعية الفرنسية الفزيائية
- جمعية قسنطينة الاثرية
- الجمعية الاثرية والسياحية لتغاست (سوق اهراس)
- جمعية جغرافية مدينة الجزائر
- جمعية وهران للجغرافية والاثــار
- جمعية التاريخ الطبيعى لمدينة الجزائر
- الجمعية التاريخية الجزائريــة
- الجمعية التاريخية والجغرافية لمنطقة سطيف
- جمعية اصدقاء تلمسان القديمة

عن تــونس :

- معهد قرطــاج
- جمعية ســوسة الاثرية

عن المغــرب :

- مراكز الدراسات القضائية المغربية
- لجنة دراسات المياه الجوفية
- جمعية الدراسات الاقتصادية والاحصائية
- جمعية المغرب الجغرافية
- جمعية التاريخ الطبيعى بالمغــرب

ملحق (٣)

الاسماء الاجنبية الواردة فى البحث

ملاحظة : تسهيلا للباحثين الذين يريدون الاهتداء بهذا البحث ، اضع هنا قائمة بالاسماء الاجنبية بالحروف اللاتينية حسب الترتيب الابجدى · ولم اشأ ان اثقل البحث بذكر الاسماء بالحرفين العربى واللاتينى فى ثنايا ه ·

ارنو	Arnaud
ازان	Azan, P.
باسى	Basset, R.
بيرتزين (قائد عام الجيش)	Berthezène
بيرك	Berque, A.
بيلمار	Bellemare
بيربروجر	Berbrugger,
بريسنى	Bresnier
بريسون	Bresson
بروسلار	Brosselard
بودان	Bodin
بواسونى	Boissonnet
بوتان	Boutin
كانيا	Cagnat
كاريت	Carette
شارل ٥	Charles V
كلوزيل قائد عام الجيش وحاكم عام	Clauzel
كوبلانى	Coppolani
كور	Cour, A.
دوماس	Daumas
ديرلون (حاكم عام)	D'Erlon
ديلامار	Delamare
دونوفو	De Neveu
دي سلان	De Slane
ديل	Diehl
ديبارمى	Desparmet J.
دوفو	Devoulx
ديبوا ـ تانفيل	Dubois-Thanville
ايميريت	Emerit, M.
فيرو	Feraud, Ch.
فورنيل	Fournel
قوتى	Gautier, E.F.
غرامون	Grammont (de)
غزال	Gsell

هانوتو	Hanoteau
هايـدو	Haedo
جونار (حاكم عـام)	Jonnart
جوليان	Julien, Ch. A.
لاكروا	Lacroix, N.
لوتورنو	Letournou
لوسياني	Luciani
مارسي ، جورج	Marçais, G.
مارسي ويليام	Marçais, W.
ماسكاري	Marsquary
ماسي	Masset, H.
مونصـو	Monceaux
كيرسي	Kercy
باناني	Pannanti
بيليسي	Pellissier (de Reynaud)
بيريس	Pérès, H.
راندون (حاكم عام)	Randon
رونودو	Renandot
ريـن	Rinn, L.
روبـان	Robin
روفيقو	Rovigo
شيـافي	Sciavi
سيروكـا	Seroka
شيلر	Sholer
شـو	Shaw
ترملي	Trumelet
فانتور دي بارادي	Venture de Paradis
فوارول (حاكم عام)	Voirol
ويلسن ـ ايسترهازي	W. Esterhazy
ياكونو	Yacono, X.
ايفير	Yver, G.

النظريات التاريخية بين
التفسير والتحريف

عبد المجيد مزيان
استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

انه لمن ادعاءات عصرنا ان نستاثر دون أبناء العصور الاخرى بالتحليقات النظرية على التاريخ ونؤكد لانفسنا أننا فهمنا المخطط العام للمسيرة البشرية واكتشفنا الانسانية كانها الكائن النوعى الموحد اللذى رسمت له غريزته الحيوية اهدافا تزعم انه من الممكن النظر اليها فى آفاق المستقبل البعيد .

وكم من تخليط وقع فى مثل هذا الموقف بين معقولية التاريخ وسحرية الخيال . ولقد أصبح من الواجب الاكيد على الناقد ان يتحذر اليوم من مؤرخى الاحداث الجزئية الذين يفككون التاريخ قطعا قطعا حتى لا تعنى أى قطعة اى شيء ، بقدر ما يتحذر من بعض فلاسفة التاريخ الذين يجولون فى عالم ما وراء التاريخ كمن ينظر الى الارض من ابعاد السماء .

لقد تساوت فى السخف نظرية « تاثير انف كليوباترا » فى تاريخ العالم ونظرية المعقولية المسبقة لكل التاريخ . ولقد تاه باسكال فى جزئيات الوجوه والانوف بدعوى التفكير الدقيق بقدر ما تاه هيجل فى تتبع مخطط خيالى مشترك بين الله والناس لتحديد أهداف الوجود .

ليس للتاريخ عقلانية مستقلة عن الاحداث التاريخية نفسها ، وليست الاحداث شظايا مشتتة لا يمكن جمعها . وهذا الاعتبار هو الذى يفرض علينا أن نحدد معقولية التاريخ فى نظريات لها قيمتها كاداة لفهم الاحداث ، على شرط ان لا تصبح هذه النظريات عقيدة فلسفية مستقلة بذاتها ، وعلى شرط ان نقول بنسبيتها فى الزمن وفى مختلف المجتمعات . ان مهمة النظرية التاريخية هى ان تفسر الاحداث وتعقلن التطورات والارتباطات وليست مهمتها لذاتها . وما من نظرية الا ولها وجهان : انها صالحة مادامت أداة للمعقولية، وهى فاسدة حينما تدعى الاطلاق والتسلط على كل عصر وكل زمن، وهى فاسدة أيضا حينما تجر الى سهولة التصورات واختصار البحث فى العلاقات المتشعبة الدقيقة .

من قبيل التصورات المختصرة تلك النظرية التى يمكن ان نسميها نظرية « الاستدجان » عند توينبى . وملخصها ما يلى :

ان الحالة الذهنية التى يكتسبها الانسان من سلوكه المعاشى تبقى متوغلة فيه . وقد تسيطر عليه حينما ينتقل من وضعية اقتصادية واجتماعية بدوية الى وضعية حضارية . فتتفتق هذه الذهنية عن انتقال صورى بينما محتوى السلوك يبين أن الذهنية لم تتغير جذريا وانما بقى صاحبها محافظا عليها ، رغم التحول السطحى الظاهر .

وتطبيق هذه النظرية ان البدوى الذى يسكن المدينة مثلا يبقى محافظا على معايير المعاش البدوى رغم مظاهر التحضر السطحية .

ولنا فى التاريخ ، فيما يدعى توينبى خير مثال عن صحة هذه النظرية : فلناخذ المجتمع التركى كنموذج للبدو الذين مروا بمراحل حضارية مختلفة المستويات . ان الترك كانوا فى آسيا الصغرى يربون المواشى . وقد تعودوا على ترويض الطبيعة الحيوانية من الاسهل فالاصعب حتى مرنوا على « تدجين » أنواع مختلفة من الشاة والمعز الى الكلاب الى الخيل الى الابل . وحضارتهم كحضارة كل من فى وضعيتهم من البدو انما هى حضارة كلها تربية وترويض للحيوان . ومن الطبيعى فى ذهنيتهم أن يحاولوا تطبيق هذه الرياضة أو قل هذه التقنية التى هى تقنية التربية

على أعلى حيوان فى سلم الوجود الا وهو الانسان • ان الترك شرعوا فى استدجان البشر بمجرد ما تحولوا الى الحياة الحضارية أى بعد تسلطهم العسكرى على البلاد الاسلامية ، وقد وصلوا باستدجانهم هذا مرتبة المنظومية والاتقان حينما بدأوا فى الاستيلاء على بعض المناطق الغير الاسلامية •

ولقد كان مآل هذه الحضارة ابتداء من الفترة الاتقانية فى النظام ان اخضعت كل وجودها لهذه الظاهرة التى هى ظاهرة استدجان البشر •

وكانت الحلقة التى تجول فيها هذه الحضارة منحصرة فى اختطاف البشر لتربيتهم فى الثكنات، للهجوم على بشر آخرين ، الاختطاف ، للهجوم، فى دور وتسلسل عقيم ، عبر الاجيال • فالانكشارى أو المملوك ربى على أن يكون « كلب حراسة » تماما ككلب الحراسة الذى يرعى القطيع ، والشعوب المحتلة ربيت على أن تكون شياها يستخرج منها المعاش • وأثرت سلوكات « كلب الحراسة » فى كل من الطبقة الحاكمة والحارسة على السواء وتحجرت بذلك الحضارة تحجرا سريعا أدى بها الى الانحطاط • فاتقان ظاهرة الاستدجان للبشر من ترويض طبقة منهم على ان تكون بمنزلة « الكلاب » وترويض طبقة أخرى على أن تكون بمنزلة « الشياه » ، وتعميم هذه التقنية هو سبب هلاك السلطنة العثمانية ، لانها رجعت بالانسان الى مستوى الاتقان والتحجر الذى عرفه النحل والنمل ملايين السنين قبل ان يتأنسن الانسان فوق الارض •

واذا أردنا ان نتصور صحة هذه النظرية كما يظن توينبى فما علينا الا أن نرجع الى النماذج الاجتماعية التى أتانا بها التاريخ • ان المجتمعات الحربية كلها من نمط واحد : انها تصل بالنظام العسكرى الى مستوى الاتقان وما تلبث الحراسة التى هى وظيفة هذا النظام ان تخنق الوظائف الاخرى خنقا ، فاذا تأملنا سبارتا مثلا وجدنا مجتمعها قوى النظام ولكنه قفر حزين لا فن فيه ولا فكر ، ولا اختراع • هكذا كانت المجتمعات الآسيوية فى القرون الوسطى وهكذا كانت الفاشية فى القرن العشرين • وما يلبث المجتمع الحربى أن يصاب بالترف الاقتصادى والمالى لتكرار هجوماته ولاشتداد حراسته • وسرعان ما تتحول « كلاب الحراسة » اذا جاعت ، الى ذئاب ضارية ترتمى على القطيع أكلا وتقتيلا ، ويتدهور الاقتصاد والعمران ، وتنعدم الغاية التى كانت ترمى اليها وظيفة الحراسة وهى الحرب الخارجية للسلم الداخلى ويضطر المجتمع الى تقتيل « كلاب الحراسة » الآكلة للقطيع ويتبادل القتل ويعم ، ويفنى هذا النوع من الحضارة فى مناظر كابوسية كلها موت وخراب وقفار ، وجيف ونسور ، وحزن رهيب •

هذا ملخص نظرية الاستدجان • وانها لنظرية جذابة ولا أنكر اننى احببتها لقوتها الشعرية وليتها كتبت باسلوب دانتى لتكون جزءا رائعا من رحلته الى الجحيم •

وليس الجانب الشعرى الخيالى هو الوجه الوحيد الذى يحبب الينا هذه النظرية ، اذا قرأناها

مسرعين . بل نقول ان لها قوة المعقولية المريحة التى تفسر لنا جزءا كبيرا من تاريخ الانسانية ، وهو تاريخ المجتمعات الحربية فى جميع الفترات والبقاع . وهى أيضا مفتاح لفهم لغز الانحطاط الحضارى الذى اتعبتنا مجهودات التحليل بشأنه ولم نصل بعد فيه الا لنتائج تقريبية لا تؤدى الى الاقتناع . وأما اذا نظرنا الى هذه الفكرة من حيث التماسك ، فانها فى الظاهر متماسكة وقوية لانها تربط ربطا وثيقا بين الاقتصاد والتفكير والسلوك فى صيرورة الحضارات . اننا هنا بصدد حضارة بدوية ارتقت الى مستوى الاتقان وكانت جل تحولاتها فى اتجاه واحد ، مع تحسن مستمر فى هذا الاتجاه : من اسفل الى أعلى ، من تربية الحيوان الى تربية البشر وهو قمة الاتقان . ولكن ليس بعد قمة الاتقان النظامى الا التحجر ، والتحجر الاجتماعى هو الانحطاط بالذات . فكاننا بصدد المعقولية العلمية التى لا تتقبل النقاش ، وكان النظرية توحى هنا بقانون النشوء والارتقاء والفناء الذى يسيطر على الكائنات الحية، والمجتمع كائن حى ممتاز .

انى لمعترف ان هذه النظرية كان فى الامكان ان تقنعنى اقناعا كليا وأن لا أفكر فى مناقشتها فى يوم ما لو تناولت نموذجا حضاريا مثل سبارتا ، وألمانيا النازية مثلا ، ولكنى بدأت أشعر بعدم صحتهالانها تناولتتاريخ بلادى وتفسير حضارتى بطريقة تثير الاحساس وتثير الشكوك فى نفس الحين . وان اعترافى هذا يحتوى ضمنيا على تمسكى بسبق منهجى وهو اعتقادى بأن النظريات التاريخية صورة واضحة للعقيدة التى ينتمى اليها أصحاب هذه النظريات . فالبحث عن الاصول العقائدية لكل نظرية تاريخية يعد اذا من الخطوات الاولى فى سبيل النقد التاريخى .

انه لا يصعب على أى باحث ان يلمس فى نظرية الاستدجان موقفا عقائديا تحركه عواطف البغضاء للانظمة العسكرية ، ويحركه التمسك بذلك النوع من الحرية الاقتصادية الذى يسيطر على العالم الغربى منذ ثلاثة قرون .

لماذا نتنبه الى نوع واحد من الاستدجان ولا نتنبه الى أنواع الاسترقاق النازلة بالانسان ؟ ولماذا نتنبه الى تربية البشر فى الثكنات العسكرية ولا نتنبه الى استعبادهم فى المصانع التى هى سجون عصر التكنولوجيا ؟ ذلك لاننا ندرك كوارث الآخرين وتمنعنا عقيدتنا النابعة من مجتمعنا عن ادراك تناقضاتنا وتدهور حضارتنا . ان المجتمعات البشرية عاشت كلها على انظمة استرقاقية منذ اقدم عصور التاريخ . ولم يكن من حظ البدو ان اخذوا بنظام الاسترقاق أكثر من غيرهم من المجتمعات . فلو سلمنا ان العرب باستعمالهم المماليك ، والترك باستعمالهم الانكشارية ، كانوا النموذج الاكثر بروزا لهؤلاء البدو الذين تجرأوا على تربية البشر كما تربى الحيوانات لسلمنا بموقف خاطىء فى بدايته ، وذلك لسببين . أما السبب الاول فلأن جيوش المرتزقة وأنظمة الارتزاق كانت من الانظمة المعروفة المشهورة فى مختلف الحضارات وفى

مختلف العصور • وكانت مستويات الاتقان في هذا النظام عديمة العلاقة بالاصل البدوي او الاصل المدني للمجتمعات • ان قرطاجنة العريقة في الحضارة مثلا قد وصلت بنظام الارتزاق الى حد لا يستهان به من الاتقان النظامي • وأما السبب الثاني فيرجع الى التغافل عن ظاهرة التحول الاجتماعي والانتقال من حال الى حال • ان النظام السياسي الذي يستعمل الارتزاق ويدقق له الوسائل والقوانين ، هو النظام الذي قد تعود على الحياة الحضرية وصار عاجزا عن حراسة ممتلكاته الا بوسائل الاستدجان • فالعرب المستعملون للمماليك او الترك المستعملون للانكشارية انما هم أبناء مجتمعات قطعت كل علاقاتها الاقتصادية والاجتماعية والذهنية مع البداوة الاولى • والخطا هنا في التخليط بين الاجيال وعدم الانتباه الى التحولات الجذرية التي فصل بينها •

هذا ولا ينتبه اصحاب هذه النظريات المختصرة الى حقيقة ظاهرة اتخاذ المماليك جندا وحرسا في العالم الاسلامي • انها تختلف عن الرق كل الاختلاف • ان المملوك يحارب من أجل أسياد ظاهريين ، وانه في عالم طغت عليه الحروب وشتى الاصطدامات السياسية لهو السيد الحقيقي لانه يحمل السلاح • ولو قارنا بين المرتبة الشرفية التي كان يحظى بها الخلفاء ووضعية المملوك الذي كان يضغط بكل قوة سلاحه ونظامه العسكري على الاحداث ، لرأينا ان السلطة الفعالة كانت بيد المملوك • من المماليك قواد حرب ، وأمراء أساطيل ، وملوك بكل ما في معنى الملك من قوة وسلطان • ولا تعني هذه الملاحظة اننا نحبذالنظام الذي كانت تسوده مثل هذه العلاقات ولكننا نريد أن نثبت ان الاستدجان كثيرا ما يقع لصالح المماليك لانهم يتصرفون في أصحاب السلطة الشرفية تماما كما يتصرف الحاكمون في محكوميهم، من تنصيب ، وعزل ، وقتل ، ومراقبة شديدة على سلوكاتهم العمومية • ولم يمر دهر طويل على هذه الظاهرة الحضارية حتى اصبحت قضية الدولة هي قضية المماليك . هم الحريصون على كيانها ، والصامدون في وجه أعدائها ، والمستميتون في سبيل عقيدتها • وليس هذا السلوك من قبيل سلوك العبيد أو المستدجنين ، أو المرتزقة التقليديين •

ومن تمويهات نظرية الاستدجان انها تعمد الى قانون الاحياء لتقرن بين الاتقان والانحطاط • كان المجتمع حيوان كبير يخضع لقانون النشوء والارتقاء والفناء • وليس الاتقان النظامي فيما تزعم النظرية الا من حظ المجتمعات الحربية ، واسرافها في الاتقان والآلية هو الذي يجرها الى الهاوية لانها تقضي على روح الاختراع • أو لم يلاحظ المؤرخونان ما يسمى بالاتقانالنظامي انما هو حالة تحجر يكون قد سبقها الانحطاط الحقيقي منذ أجيال ؟ فآلية الانظمة سواء في أجهزة الادارات أو أجهزة الجيوش انما هو انكماش يدل على روح التقليد وعدم القدرة على الاختراع ، وعدم تفهم الصيرورة التاريخية التي تفرض دوام التجديد •

وليس التحجر والانحطاط من حظ المجتمعات العسكرية وحدها ٠

لا يعنينا كثيرا أن نعــدد الادلة التاريخية على فساد مثل هذه النظرية ، بقدر ما يهمنا ان نفكك اجهــزتها الى العناصر العقائدية والعاطفية التى ركبت منها ٠ هل يمكن لفيلســوف ومؤرخ يؤمن بمزايا الحرية الاقتصادية التى يعيش عليها مجتمعه أن ينظر الى العالم الخارجى نظرة استحسان ؟

ان التسلط العسكرى ، والاستبداد فى الحكم ، والرق ، والبداوة الغاشــمة ، والبــدائية كلها ظواهر اجتماعية وتاريخيــة لا يمكن بزعمهم ، أن توجد لها النماذج الا خارج الغرب ٠

ولقد سبق لهيجل ان التمس رمــزا للحكــم المستبد فلم يلمسه الا فى النوع الآسيوى، وحينما أراد ان ينوه بالبناء السياسى الامثل فلم يجده الا فى النظام الاوروبى المشبع بالعقيدة الفلســفية الجامعة بين الفكر الغربى وروحانية المســيحية ٠ ولنقف قليلا عند الاسترقاق ٠

اذا كان لابد من البحث عن نوع من الاستدجان، واتقان النظام فيه فليس هناك نموذج اجتــماعى وتاريخى يمثل هذه الظاهرة أحسن من الاقطاعية الغربية التى عاشت عليها أوروبا عدة قرون ٠ ان الحاق البشر بالارض وتشــــبيثهم فى المعاملات المتعلقة بها ، ومنعهم من التملص منها ، والاحتكار الطبقى لكل النشاطات المتعلقة بالزراعــة ، لمــن الاتقان الدقيق للنظام الاسترقاقى ٠ فهــل كان اقطاعيو العالم الغربى ، واعوانهم من رجــــال الكنيسة بدوا قد وصلت بهم البراعة فى تربيــة المواشى الى البراعة فى تربية رقيق الارض ؟ وهل جر هذا الاتقان الدقيق لنظام الاســـترقاق الى انحطاط العالم الغربى ، أم ادت به الاسرافات فى تشديد النظام الى الثورة والنهوض ؟

وهل يمكن ان نلمس الاستدجان واتقان نظــام استغلال الانسان للانسان وهو الامتداد العصرى للاسترقاق ، فى غير الانظمة الرأســمالية التى استعانت اليوم بالتكنولوجيا لتدقيق أجهزة ذلك الاستغلال ؟

واننا لنعجب فى مثل التصنيفات التى يأتى بها فلاسفة التاريخ المتشبعون بعقيدة الغرب الرأسمالى أن يجعلوا بعض المجتمعات الاسلامية نماذج للنظام الحربى ، ويتغافلون فى كل مرة عن الالتــفات الى النماذج العسكرية التى يأتى بها الغرب ٠

لقد كان من الممكن ان ناخذ المجتمع الانجليزى فى عصر الاستعمار كنموذج لاتقان النظام الحربى وسيطرته على جميع الاجهزة السياســية الموجودة آنذاك ٠ اليست سياسة التوسع المســـــتمر ، وتوطيد النظام فى المستعمرات عبارة عن اتقــان دقيق لفنية الحــروب ؟ واذا أردنا ان نكشف عن منظومية الحرب وطغيانها على باقى النشــاطات الحضارية فى المجتمعات فلا احسن من المجتمعات الغربية لاعطائنا نماذج واضحة صريحة عن هــذه الظاهرة ٠ ولننظر الى التــاريخ القريب : فمن الامبراطورية النمساوية الى بروسيا الى فرنســا البونابرتية ثم الاستعمارية الى أمريكا فى عصرنا هذا الى دولة صهيون ، انها كلها مجتمعات تقدس الحرب وتهىء لها الاســـباب ، وتعممها تعميما

جنونيا وتسعى لابادة الآخـــــرين ، وتتفنن فى استخدام الفكر واستدجان المحاربين ، والعلماء ، والمهندسين‌حتى تسخر كل‌الطاقات الماديةوالفكرية فى سبيل الحروب . فاين غريزة الراعى فى مثـل هذا النظام العســــكرى الذى يسهر على تربية الجيوش واتقان اجهزتها ؟ ولماذا لا يمكن ان نتكلم عن التحجر والانحطاط فى مثل هذه الحال ؟

اننا نلمس من هذه المقارنات أهمية العقيـــدة كمحرك للنظريةالتاريخية · ولسنا ندعى التحليل النفسانى لصاحب النظرية فنقول ان العقيـــدة تحركه بكيفية لا شعوريةوتجعله يعشو عن كوارث مجتمعه ويحلق بفكره فوق مجتمعات الآخرين · بل نرى انه فى عقيدته ونظرياته ذو التزام صريح بفلسفة مجتمعه بكل ما لها من جوانب سياسـية وأخلاقية وتطبيقية ·

اننا نرى من خلال الحكم على النظام والاتقـان بالعقم والتحجر موقفا شـــعوريا وأخلاقيا يجعل صاحبه مبالغا فى مقت كل حضارة لا تؤمن بالحرية والاختراع · ولو تصورنا الحاسة الحضـارية فى المجتمع الامثل ، حسبما يوحيه علينا هذا الموقف، لتصورناها عبارة عن تجسس فى الظلام ، واختراع مستمر ، وقدرة دائمة على التكيف مع الظروف · هكذا يمكننا أن نلخص كل مواقف الفلســــفة التجريبية العملية التى ظهرت فىالعالم الانجليزى الامريكى منذ القرن الماضى · ولا يظنن الباحث فى تاريخ الافكار ان هذه الفلسفة نبعت الى الوجود من أدمغة المفكرين وبمحض الاختيار المطلق ، بل ليس من الممكن أن نغفل عن ربطها بفكرة الحـرية الاقتصادية التى تدعو الى تشــجيع المبادرات ، والتفتح على الاكتشاف والاختراع ، والتقليل من الانظمة المضيقة على حرية الافراد · ويمكننا ان نقول بعبارة اخرى ان هذه الفلســـفة ليست الا عبارة عن عقيدة المجتمع الذى نبعت منـــه وانها تحتـــوى ضمنيا على تناقضاته الاقتصـــادية والاجتماعية · انها تمثل الحرية الفردية لصـــالح أفراد فى طبقة . ولكنها تمثل الحجـــر وتمتين النظام والحراسة الشرطية والعســكرية على باقى الطبقات ، وعلى الشعوب التى تعترض حـــرية « الافراد المخترعين » · انه لا يمكن مع هــــذا الالتزام الشعورى واللاشعورى بالعقيدة أن نؤمن بمعقولية النظريات التاريخية مهما ظهر منها من تماسك وقوة بناء ·

يقول ماركوز فى كتابه عن « الانســـان ذى البعد الوحيد » ان معقولية التاريخ هى الممكن فى حدود الحتمى · ونجيبه نحن أبناء العالم الثـالث بأن الحتمى أضخم مما يتصوره المؤرخون.ان‌تصارع الحضارات يفرض علينا الدخول فى تيار العراك ، ونحن ملزمون بالتجهيز لهذا العراك من اتقـــان لوسائل الحرب ، وتحرر مستمر · وليست عظمة بعض الحضارات فى عالم اليوم الا بناء يرتكز على استغلال الشعوب والضغط عليـــها وانزالها الى مرتبة الخضوع وفقدان الوعى ، الذى بواســـطته يمكن تفهم حدود الممكن والحتمى فى كل انجـــاز حضارى · هذه حالة مضيقة لحدود الممكنات · ان بعض المجتمعات بنت عظمتها على حساب مجتمعات أخرى · وليس هناك أمكان بالنسبة لهؤلاء وهؤلاء

الا التـــمادى فى الصراع واعــداد العدد له من الطرفين ، الاقوياء للمحافظة والزيادة فى القوة ، والضعفاء للتخلص من الضغوط والاســتغلال ٠ فكان الممكن ضاق حتى أصبح هو الحتمى بالذات ٠

وبناء على هذا الاعتبار نقول ، ان تعميم الانظمة العسكرية واتقانها بالوسائل التكنولوجية ، وخلق الحروب المتسلسلة ، وجدلية الصراع المستمر ، أمر محتوم فى عالم اليوم ، سواء للمحـــافظة او للتحرر . وترجع مسؤولية هذا الوضع الى الحضارات البورجوازية لان الحضارات الاخرى عبارة عن ردود فعل وأجوبة على تحديات العظمة والطغيان للعالم الغربى ٠ ومن العجب ان خالقى حتمية الحــروب يدافعون ظاهرا عن الحرية والسلم ٠ لسنا ندعى حينما نتكلم عن ضخامة الحتمى وتحديد نطــاق الممكن ، بان الارادة البشرية لن تتجاوز هـــذا الوضع ٠ ولكنها ستتجاوزها بالقضاء على التوازن الحالى الذى يفرض بقاء بعض البشر فى الخمول ، ليصعد البشر الآخرون الى النجـــوم ٠ وهذه هى رسالة الثورات ٠ لكل مجتمع حريته وسلمه ٠ ان حرية الشعوب الضعيفة وسلمها هى أن يرفـــع عنها كابوس الضغط والاستغلال ، وان حــرية المجتمعات القوية وسلمها هى ان لا يتغير أى شىء ٠ كل شىء نسبى كما نرى فى ميدان التاريخ : ان الفكرة نسبية ويختلف مفهومها من مجتـــمع الى مجتمع ، وان النظرية التاريخية نسبية لا تتعدى صفة الاداة لفهم وضعية محدودة فى الزمن ، وان التحليـــل والنقد الذى يســـلطه المؤرخون على المجتمعات يحتوى على مواقف مذهبية مهما كانت مظاهر المعقولية فى النقد والتحليل ٠

ما المقصود العملى من هــذا العرض ؟ وما هى أغراضه بالنســـبة لتاريخنا ؟ يمكننا تلخيص الاجوبة فى بعض النقط :

1) ان كل ما كتب عن تاريخ بلادنا وأمتنا يمكن مراجعته وتفسيره من جـــديد ، كما يمكن ازالة جميع التخريفات النظرية والخيالية التى ألصقت بهذا التاريخ ٠

2) يجب ان يكون النقد التاريخى جــذريا ، لاسترجاع الواقع ، وان ينتبه الناقد الى الالتزام العقائدى الذى يحرك المؤرخين

3) ليس المقصود من النقد التاريخى هو ابطال نظريات الاجانب للدفاع عن حضارتنا والانتصــار لمذاهبنا ، بل يجب ان يكون النقد التاريخى نقدا ذاتيا أيضا ، وأن ينبه الناقد الى واقع مجتمعنــا بالاضواء التى لا تتوفر عند الآخـــرين ، وذلك للمساهمة عن طريق التوعية الفكرية فى انجازات التاريخ الحاضر الحى ٠ وذلك للاعتبار الآتى :

4) ان التاريخ هو قبل كل شىء ما ينجــز ، وأما ما يكتب فهو فى الغالب تصوير ذاتى أكثــر منه عقلانى لاحداث وظواهر تجزئى الواقع وتصبغ عليه الوانا من العقائد والشعورات ٠

وأقول بهذا الصــــدد لاخوانى الذين تذهب نفسهم حسرات على سوء نية المؤرخين الذين يزيفون تاريخ أمتنا بان التاريخ ليس ضميرا انســـانيا شموليا الا في ميدان الانجـــاز لانه هو الباقى الملموس الذى تشاهده الاجيال ، وأما كل ما يكتب فيمكن نقضه بمكتوب جديد ٠

الدفاتر التركيّة والعربيّة في الجزائر

د . عبد الجليل التميمي

استاذ بكلية الآداب

جامعة تونس

يتمتع فن التاريخ (1) هذه السنوات باهتمام المسؤولين في المغرب العربي ، فكثيرا ما نسمعهم ينوهون بعلم التاريخ داعين المؤرخين المغاربة الى كتابة تاريخنا القومي وتنقيته من الافتراءات والاخطاء والتشويه الذى لحقه واصابه على يد المؤرخين الغربيين ، ذلك ان هذا الميدان كان وقفا عليهم يوجهونه حسب ارائهم ، ومعتقداتهم،

1) هذه الدراسة هي خلاصة للمقدمة التي وضعتها لكتابنا المخطوط : « فهرس موجز للوثائق العربية والتركية » والذى نامل ان ينشر قريبا باللغتين العربية والفرنسية

ومخططاتهم ، ومن المؤسف ان يكـــون هـــؤلاء المؤرخون خاضعين لعدد من الاحكام المسبقة على تاريخ شعوبنا بتركيزهم البحث على فترات دون فترات وعلى اشخاص دون آخرين وعلى فنون دون اخرى ، من ذلك الاهتمام المفرط بتاريخ المغـرب قبل الفتح العربي واكسائه اهمية خاصة وكذلك فترة الاحتلال الفرنسي ، اما الفترات الاخرى ، فقد عرفت ارتفاعا ونـــزولا حسب اهتمامـات المختصين وتكوينهم العلمي وسير ابحاثهم .

ولقد شعر عدد من المؤرخين الفرنسيين بعدم تـوازن الدراسات التاريخيـة وحتمية الاهتمام بما يسمونه « بالعصور المظلمة » حتى تستكمـل الفجوات الخطيرة التي يشعـر بها كـــل باحث لتاريخ المغرب العربي .

من ذلك يجمع المؤرخون الفرنسيون ان الحلقة المظلمة والمجهولة من تاريخ المغرب ، على الرغـم من قربها التاريخي ، هي فترة العهد العثماني ، **اذ الدراسات التي نملكها تكـــاد تكـون نادرة ومعلوماتنا العامة قد استمدت مـن انطباعـــات** الرحالة الاوروبيين ومن تقارير قناصل الـــدول الاجنبية ، اما وثائق الدول المغربية العربيـــة والتركية ، فلم يقع الاهتمام بها ولم تفهرس ولم يتم استغلالها ، وعلى هذا الاساس لا يمكننا اليوم التصدي لكتابة هذا التاريخ ، دون ان نقـــوم بعملية اولية للكشف عـــن كنوزنـا الوثائقية والمخطوطات والعمل على فهرستها لنتحسس مدى غناها واهميتها ، ونشرها ان امكن ، ومن هنا تاتي اهمية نشر الفهارس مهما كانت موادها ، ذلـك ان عمل الباحث اليوم يقوم على اساس الفهارس والبيبليوغرافيا ، فضلا عن نشر الوثائق نفسها ، ولا بد اذا اردنا للمدرسة التاريخية المغربيـــة **الناشئة ، الشمول والنجاعة والجدية والعلميـة** من توفير مثل هذه الادوات لنغـــذي دراساتنا **ونكسبها القيمة العلمية الثابتة .**

★ ★

ولنا ان نتساءل ما مرد عدم الاهتمام الـذي اظهرته المدرسة التاريخية الفرنسية تجاه تاريخ الجزائر خلال الثلاثة قرون من وجود العثمانيـين بالبلاد ؟

يعلل المؤرخون الفرنسيون سبب ذلك الى عدم **استغلال وثائق ودفاتر الحكام العثمانيين والمحررة** باللغتين العربية والتركية والتي استولت عليها الحكومة الفرنسية يوم ان احتلت الجزائر مـــع اوائل الربع الثاني من القرن الماضي ، وقد نادى هؤلاء المؤرخون بضرورة الاهتمام بهاته الدفاتـر وفهرستها (2) لتكون اساسا ومنطلقا لدراســة

(2) A) BUSQUET, Raoul, *Le fonds des Concessions d'Afrique et l'Organisation du Gouvernement Général de l'Algérie,* pp. 385-401, in, la Révolution Française, Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine, 28ᵉ année, 405, Paris, Novembre 1908.

B) DELPHIN, G, *Histoire des Pachas d'Alger de 1515 à 1745*, extrait d'une chronique indigène traduit et annoté, pp. 161-233, in, Journal Asiatique, Paris, Avril, Juin, 1922.

C) DENY, Jean, *A propos du fonds arabo-turc des Archives du Gouvernement Général de l'Algérie*, pp. 375-378, in. Revue Africaine, 1ᵉ trimestre, 1921, Alger, 1921.

ولاية الجزائر . ذلك انه لا سبيل الى دراسة تاريخ بلد ما ، دون ان نضع يدنا على وثائق الدولة الرسمية ومراسلاتها وقوانينها الادارية والمالية والاجتماعية والعسكرية التى سنتها • والتى تعتبر العمود الفقرى لاى محاولة جادة لسبر الابعاد التاريخية والحضارية للبلد المعنى والمراد دراسته •

ان الجزائر كسائر الولايات المرتبطة بمركز الامبراطورية العثمانية قد عرفت نشاطا حثيثا تجاريا وعسكريا فى حوض البحر الابيض المتوسط فى العصر الحديث ونتج عن ذلك وفرة الوثائق الرسمية • ولا ادل على ذلك من هاته المراسلات التى تمت بين الجزائر والباب العالى وانتظامها ، وبين الجزائر وسائر الدول الاوروبية حيث احتفظت لنا دور وثائقها بالنسخ الاصلية التى كان قد اوفدها حكام الجزائر الى رؤسائها ، ويمكن لنا ان نقرر بالنتيجة ان الدولة الجزائرية كانت لديها دفاتر وثائقها الرسمية المتعلقة ببيت المال والتجارة الخارجية والداخلية والضرائب والاحباس وما يتعلق بالانكشاريين ، بالاضافة الى مراسلاتها السياسية مع جميع الدول •

ونظرا الى عدم استعمال كل هاته المراجع الاساسية ، يمكننا ان نقرر على ضوء ذلك ، ان العهد العثمانى بالجزائر كما هو الحال بالنسبة لتونس وليبيا لم يدرس ، وان الابحاث القليلة التى تناولت بعض المسائل المتفرقة لا يمكن اعتبارها اساسية ، اذ هى تكتسى قيمة نسبية هذا ما يعترف به مؤرخو الغرب على اختلاف نزعاتهم وتكوينهم العلمى •

ودون ان نتعرض الى السرد التاريخى لمصير الوثائق الرسمية وهذا ما فصلناه فى مقدمة مخطوطنا ، نلاحظ ان الدفاتر العربية والتركية التى نجت من الضياع تتألف من حوالى 500 دفتر تضم 42 الف ورقة مخطوطة تقريبا ، سنحاول اعطاء بعض الاشارات حول مختلف موضوعات محتوياتها •

تجارة واقتصاد ولاية الجزائر

ان الدراسات التاريخية التى تناولت تجارة بلاد الجزائر مع دول البحر الابيض المتوسط قليلة وعليه تكاد تكون معرفتنا بهاته المواضيع شبه معدومة •

فمثلا تكاد تتركز معظم الدراسات التى ظهرت عن القرن السابع والثامن عشر حول القرصنة واسترقاق الاسرى المسيحيين وفديتهم، الشيء الذى جعل بعض المؤرخين يذهبون الى الاعتقاد ان القرصنة تشكل الصناعة الوطنية

B) MARÇAIS, William , *Un siècle de recherche sur le passé de l'Algérie Musulmane*, p. 163, in, Histoire et Historiens de l'Algérie, Paris, 1931.

E) EMERIT, Marcel, *l'Algérie à l'époque d'Abdelkader*, Paris, 1948.

F) YACONO, Xavier, *L'Algérie depuis* 1830, p. 162, in, Revue Africaine, centenaire de la Société Historique Algérienne, 1856-1956, Alger, 1956.

G) MANTRAN, Robert, *Les données de l'histoire mod. rne et contemporaine de l'Algérie et de la Tunisie*, pp. 243-248, in Annuaire de l'Afrique du Nord, 1962, Aix-en-Provence - Paris, 1963.

(3) والمورد الرئيسى للبلاد ، وهو راى خاطىء ٠

ان نظرة سريعة لمحتويات هاته الدفاتر تفند بصورة لا مجال للشك فيها ، بطلان هـذا الراى، فالدولة الجزائرية عرفت حركة تجارية نشيطة مع موانىء الشرق مثـل ازمـير وسـالونيك واسكندرية (4) وطرابلس بسوريـا وطرابلس الغرب وتونس والمغرب الاقصى . وكذلك مع موانىء الدول الاوروبية وخاصة مع مرساى وكان لداى الجزائر وكلاء له فى عدد من هذه الدول ٠

ان هاته الدفاتر تذهب الى ابعد من اعطـاء صورة مصغرة على هاته التجارة ، بل على العكس من ذلك ، تسمح لنا بتقييم تجارة الجزائر تقييما تقريبيا بما توفره من معرفة صادرات وواردات البلاد ومقادرها مع ذكر اسعارها ٠ ولا ننسى ان الجزائر لعبت دورا متكاملا مع وضعية البحـر الابيض المتوسط مع كل من مالطة والبندقيـة ومرساى وصقلية وغيرها من الموانىء ، وانه اذا اريد كتابة تاريخ الجزائر الاقتصادى والتجارى للمائتى سنة التى سبقت الاحتلال الفرنسى ، لا بد من دراسة الدفاتر العربية والتركية اولا ثـم تكملتها بدراسة دور الوثائق بايطاليا وخاصـة صقلية(5)والبندقية والغرفة التجارية بمرساى(6) Chambre de Commerce de Marseille وارشيف استنبول ودار الوثائق التونسية ٠

الادارة الجزائرية فى عهد الاتراك

ان هذا الحقل من الدراسات لم يهتم به الباحثون الا نادرا وتكاد تكون معرفتنا لاصـول الادارة العثمانية بالجزائر قد استمدت مـن الرحالـين الاوروبيين امثال لوجييى دو طاسى (Lougier de Tassy) وبيصونال (Peysonnel) وديفنتان (Desfontaine) وبوارى (Poiret) وفنتور دو برادى (Venture de Paradis) شو (Shaw) وغيرهم ، وقـد وصفوا الادارة وتركوا لنا انطباعاتهم التى لا تخلو مطلقا مـن الاهمية (7) على الرغم من ان اكثرهم كان يحقـد على الاتراك ، واصفين اياهم بالبربرية والقرصنة وقد تبع هؤلاء عدد من المؤرخين خاصة فى القرن التاسع عشر وهم الذين حاولوا دراسة هـذا الموضوع وتبنوا احكامهم ونتائجهم (8) ٠

كانت الادارة التركية بالجزائر خلافا لما يعتقد ادارة محكمة التنظيم وجد دقيقة ، اذ كان الدايات بالاستعانة بعدد من الوزراء والموظفين والمسؤولين قد تمكنوا من تسيير مختلف شؤون البـلاد ،

(3) ESQUER, Gabriel, *Le Commencement d'un empire : la prise d'Alger*, p. 11, Alger, 1923.
نلاحظ ان القرصنة شكلت بالنسبة للقرن السابع عشر موردا للجزائر العاصمة ، خلافا لمقاطعات ولاية الجزائر الثلاث التى كانت تعتمد على التجارة والصيد عموما

(4) GIRARD, P.S., *Mémoire sur l'agriculture, l'industrie et le commerce de l'Egypte*, pp. 299-305, t. 17, in, *Description de l'Egypte*, l'Edition, Paris, 1924.

(5) TRASELLI, Carmelo, *Les sources d'archives du trafic maritime en Sicile*, pp 106-119, in, *Les sources de l'histoire maritime en Europe du moyen âge au XVIII[e] siècle*, Paris, 1962.

(6) CARRIERE, Charles, *Les sources provençales de l'histoire de l'économie maritime à l'époque moderne*, pp. 227-243, in, *Les sources de l'histoire maritime en Europe du moyen âge au* XVIII[e] siècle, Paris, 1962.

(7) COLOMBE, Marcel, *L'Algérie Turque*, pp. 99-123, in *Initiation à l'Algérie*, Paris, 1937.

(8) BOYER, Pierre, *Introduction à une histoire intérieure de la Régence d'Alger*, pp. 297-316, in, Revue historique, Avril-Juin, 1966.

فالدولة كانت تتبع نظاما دقيقا لجباية الضرائب مثل العشر والمعونة والغرامة واللزمة وغيرها (9) كما كانت الدولة تميز القبائل الغنية من الفقيرة وفي بعض الاحيان كانت تسجل عدد افراد القبائل واملاكهم الشخصية (10) وعدد الحيوانات التي يملكونها ومداخيل المحصولات الزراعية (11) وكان جمع الضرائب وتوزيعها يتم على اساس نسبي للثروات والمحصولات ، كما ان هاته الدفاتر احتفظت لنا بتفاصيل كاملة للاداءات المفروضة على الواردات والصادرات ونشاط الجمارك وضرائب الشرطة على الاسواق اليومية والاسبوعية وكذلك الضرائب على تجارة اليهود ، كما نجد ايضا معلومات اخرى حول كميات الذهب والفضة التي اخذت من خزينة الدولة ليقع تحويلها الى عملة نقدية للتداول • ثم عجز الميزانية التي ترتب عنه تخفيض العملة في كثير من المرات • (12)

تمكننا مثل هذه المعلومات من دراسة كل المظاهر الادارية والاجتماعية لحياة الدولة الجزائرية ، وتكون منطلقا لدراسات مفصلة ودقيقة ، كما ان هاته الدفاتر العربية والتركية ، تسمح لنا ايضا بالقيام باحصاء تقريبي لبعض القبائل وتوفر لنا معلومات مشجعة لعلاقات الجزائر ببقية البايلكات الثلاثة والاحداث الداخلية والمعارك التي شنتها الدولة ضدالقبائل الثائرة التي ترفض تسديد الاداء كما نجد تسجيلا دقيقا لتعيين الموظفين وتاريخ ذلك ثم عزلهم وتاريخ من عوضهم واسمائهم . كما نجد معلومات عن الهدايا التي ترفع لدار السلطان والضرائب (الدنوش) التي يحملها بايات ولاية الجزائر الى الداي مرتين كل سنة اثناء فصل الربيع والخريف وكذلك ما يقدمه الاغاوات والامراء وسائر القبائل من اداء وهدايا الى دار السلطان•

ومن جهة اخرى نامل ان تساعدنا هاته الدفاتر على تحديد بعض الوظائف الادارية وتعددها واختصاصات كل منها واسماء القائمين عليها • على ان الباحث يجد بعض الاشارات والمعلومات التاريخية المفيدة لعلاقات الدولة الجزائرية مع الامبراطورية العثمانية وعدد كبير من دول البحر الابيض المتوسط وخاصة مع جاراتها •

والواقع اننا لا نستطيع التعرض لكلمحتويات هاته الدفاتر ، فهذه لمحة سريعة استوجبها التعريف بها وبمحتوياتها •

يذكر لنا السيد بواير ان معلوماتنا عن الجزائر لم تتقدم منذ السنة التي نشر فيها قرامن Gremont سنة 1881 كتابه التالي : Histoire d'Alger sous la domination Turque
يبدو لنا ان عمل قرامن ومرسيي Mercier اللذين يعدان من انصار المدرسة التاريخية والمستندة في اغلبها على اساس الاحداث السياسية الفاصلة Histoire événementielle هما في نظرنا على الرغم من محاولتهما الجدية يفتقدان لمعطيات وافكار مسبقة وخاطئة عن الجزائر اثناء الحكم التركي

9) ان الضرائب التي كانت مفروضة على المواطنين بالجزائر هي اقل بكثير واخف وطأة من الضرائب التي فرضها البايات الحسينيون وحكامهم على رعايا البلاد التونسية والذين ضربوا اسوا الامثلة على ابتزاز اموال المواطنين بالقوة

10) راجع الدفتر رقم 4 من القسم الثاني الموجود بارشيف الرئاسة بالجزائر

11) راجع الدفتر رقم 13 من القسم الثاني الموجود بارشيف الرئاسة بالجزائر

12) لقد تعرضنا بشيء من التفصيل في المقدمة الى ذلك ، خصوصا ما كان متعلقا منها في الربع الاول من القرن الثاني

الاحبـــاس

تعتبر الاحباس من اهم المشاريع الخـيريـة التى اوجدها المجتمع الاسلامى ، ذلك ان المحبس لشىء يملكه لفائدة النفع العام كان مدفوعـا فى ذلك بحبه للخير والتقرب لمرضاة اللـه ورحمـة بالفقراء وحبا للعلم ، وعليه انشئت المسـاجد وشيدت المعاهد العلمية والخيرية والزوايـا والملاجىء والتكايا ، وقد تزاحم الحكام والاغنياء فى تحقيق ذلك ·

وقد تعددت فى مدينة الجزائر خاصة فضـلا عن قسنطينة ووهران ، الاملاك المحبسة ، حيث كانت مداخيلها ذات قيمة كبيرة سمحت بالقيام بعدد من المشاريع الخيرية والتعليمية مثل الاهتمام بالطلبة ومساعدتهم وصرف مبالغ كبيرة للاساتذة والقائمين على شؤون التعليم ورعاية السقايات ومساعدة فقراء الولاية وتخصيص قسم مـن مداخيل الاحباس لفقراء الحرمين الشريفين (13) والمرابطـين والاندلسيـين والشرفـاء ودار الانكشاريين وفدية الاسرى المسلمين الذين وقعوا فى اسر المسيحيين الى غير ذلك من المشاريع التى تكتسى طابعا خيريا وانسانيا ·

ان الدفاتر العربية والتركية تسمح لنـا بالقيام باحصاء تقريبى لمداخيل الاحباس نقدا ومحاصيل ومعرفة مصادرها ونوعيتها والمبالـغ المتاتية عن كرائها ، كما تمكننا من تحـديد ممتلكات الافراد والقاء بعض الاضواء على المعطيات الاولية للحياة الفلاحية وبعض الاسعار العامة ، كما نجد بعض الاحصائيات لمصاريف الدولـة العامة على الاحباس كالترميم مثلا ، ومن جهـة اخرى نجد سجلا بالمبالغ المرسلة الى الحرمـين الشريفين او الموزعة على فقراء الجزائر او المودعة فى بيت المال مع ذكر تصفية الحسابات مـع الوكلاء القائمين عـلى جمـع مداخيل الاحباس ، وبالتالى تعد هاته المصادر مصدرا لدراسة طبقات المجتمع والفروق الموجودة بينها ، ذلك ان هـذا النوع من الدراسات لم يجلب اليه الباحثـون ولا بد اذا اريد الاهتمام بهذا الحقل من الدراسات من استغلال وثائق الاحباس الثرية والمتضمنـة عددا من المعطيات الاقتصادية والمالية والاجتماعية قل ان توفرها لنا الوثيقة التاريخية السياسية الصرفـة ·

الانـكشـــاريـون

ان الدفاتر الموجودة بالمكتبة الوطنية بالجزائر والتى يبلغ عددها 35 دفترا تمكننا من تعميق معرفتنـا بفيلق الانكشاريين ومختلف وحداتهم ومرتباتهم واسماء الثكنات العثمانية التى كانوا يقيمـون بها ، كما نجد فى عدد من الدفاتر الاخـرى والموجودة برئاسة الوزراء بالجزائر اسمـاء الانكشاريين الذين جندوا من الامبراطوريـة العثمانية وتاريخ وصولهم وعددهم ·

(13) JANSSENS, Gérard Busson de, *Contribution à l'étude des habous algériennes,* p. 27, étude dactylographiée.
يذكر المؤلف ان الاحباس المسجلة فى الجزائر باسم الحرمين الشريفين تبلغ ثلاثة ارباع الاحباس جميعها : نستطيع حصر نسبة ذلك بالضبط غير اننا نـرى ان الاحباس باسم مكة والمدينة كانت بالفعل تتمتع باعلى نسبة فى ذلك

ولدراسة ادارة الاتراك بالجزائر ، لابد من الاهتمام بفيلق الانكشاريين وطريقة حياتهم والنظم العسكرية التى كانوا يخضعون لها حتى يكون اهتمامنا بتاريخ الجزائر اثناء الحكم التركي اكثر تبصرا ووعيا ·

لغة الدفاتر

حررت اكثر الدفاتر باللغة العربية وبخط مغربي تختلف جودته ورداءته من دفتر لآخر · اما الدفاتر الهامة فقد حررت بلغة تركية وهو ما اصطلح عليه «بالعثمانية» وهى صعبة القراءة وكثيرة الاخطاء ، ولا بد ان نتصور ان موظفى الاتراك القائمين على الشؤون المالية والادارية لم يكونوا يتمتعون بثقافة واسعة · ومن هنا نعلل كثرة اخطائهم ورداءة اسلوبهم ·

لقد هدفنا بهذا العرض السريع لمحتويات هاته الدفاتر ، لفت الباحثين العرب والاجانب لوجود هاته الدفاتر وغناها واهميتها دون ان ندعى اننا احطنا بكل شيء ، وكفانا مسؤولية اننا وفرنا اطارا ومادة جديدة للبحث العلمي التاريخي · (14)

14) لقد فصلنا فى المقدمة التى وضعتها للفهرس المخطوط ، الظروف والملابسات التاريخية التى لازمت هاته الدفاتر الى ان نقلت الى فرنسا قبيل الاستقلال ، ولم تسترجع الى الجزائر الا سنة 1965 بعد ان احتفظت الادارة الفرنسية بنسختين منها على شكل ميكروفيلم ، اودع احدها بالارشيف الوطنى بباريس تحت رقم 15 وسلم الثانى الى الارشيف الوطنى باكس آن بروفانس بنفس الرقم الباريسى

اما اصول هذه الدفاتر فقد احتفظت بارشيف رئاسة الوزراء بالجزائر ، هذا وقد تاكد لدى ان قسما من اصول هاته الدفاتر لم تسلم بعد الى الجزائر !

البولونيون
وتاريخ المغرب الوسيط

د. ابراهيم فخار *

استاذ محاضر فى تاريخ المغرب
عميد كلية الآداب
جامعة قسنطينة

تقديم

يتسم العصر الحديث الذى تنوعت فيه الدراسات بالمنهجية العلمية فى أغلب أنواع المعرفة وبالتخصص الدقيق فى كل علم أو فن بحيث انه صار لكل علم وكل مجال من مجالات المعرفة منهجيته الخاصة وعلماؤه المتخصصون .

اما فى مجال التاريخ العربى عامة والمغربى خاصة فقد اتسمت كتابة المؤرخين الاوروبيين بعدم التعقل والتبصر أولا ثم بالمبالغة والغلو فى المناهج العلمية أو الرياضية ثانيا .

اما بالنسبة لمؤرخي الاسلام في العصر الوسيط عامة فقد اتسمت دراستهم للتاريخ بمناهج البحث الأدبي والاسرائيليات ثم بالتحيز وعدم الالتزام ، الأمر الذي يحتم علينا ان نعيد النظر من جديد لا فيما كتب عن تاريخ المغرب الوسيط فحسب بل وحتى بالنسبة للتاريخ الاسلامي العام ؛ فتاريخ الاسلام والهجرة يحتاج الى مراجعة وغربلة وتاريخ الشام تلزم اعادة النظر فيه . وتاريخ بغداد تنبغي دراسته على ضوء روح العصر الذي كتب فيه ، وكذا الأمر بالنسبة لتاريخ شمال افريقيا (قديمه وسيطه وحديثه) فهو في اشد الحاجة الى ثورة شاملة لكنها ثورة هادئة وهادفة يكون الغرض منها : 1) اعادة الاحداث التاريخية الى وضعها الطبيعي أي ابعاد جميع الخرافات وروح العصبية التي طبع بها ·

2) وضع هذه الاحداث حسب العصور في جوها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي تبلورت فيه حتى نتمكن من تفسير هذه الاحداث واخضاعها لقانون العلية ·

3) جعل التاريخ المغربي العام في شخصيته الخاصة به كتاريخ شعب وأمة تعيش – جغرافيا – بمنطقة معينة وتخضع لنواميس تتأثر بها وتؤثر فيها ·

4) وبعد اضفاء طابع الشخصية المغربية على تاريخ هذه المنطقة نضع هذا التاريخ المغربي البارز الشخصية في الاطار العام المشترك بين تواريخ الشعوب عامة ، ابتداء من تاريخ الاسلام والمسلمين في المغرب والقارة الافريقية الى ربط هذا التاريخ المغربي الافريقي بتاريخ الشعوب الاسلامية دون النظر الى مهبط وحيها أو مسقط رأسها اذ يوجد حتى اليوم في أقطار الارض مسلمون يستشهدون من أجل نصرة الاسلام كما ان هناك اسلاما تنتهك حرماته دون أن يحرك أتباعه الجغرافيون أي ساكن ·

واعتقد ان هذه الخطوة الأولية أمر ضروري.واذا اقترنت هذه الخطوة ببعض الشروط الحتمية فقد نحقق بعض النجاح ونقدم خلال عشرين عاما تاريخا لا تظهر فيه روح المؤرخ بقدر ما تظهر الصورة الحقيقية الحية للشعب أو الوطن الذي أرخ له أو عنه بحيث تذوب شخصية المؤرخ ضمن المجموعة التي يؤرخ عنها وينتمي اليها ويكتب من أجلها ·

وهذه الشروط في رأينا هي :

1) جمع كل الوثائق والمخطوطات المهربة والتي لها صلة بتاريخ المغرب بصفة عامة (2) ·

2) ابعاد كل ما كتبه المؤرخون الغربيون المتعصبون عن المغرب والجزائر ، واذا استخدم ما كتبوه فيكون استعمال هذه الكتابات للرد عليها ودحض الشبه ·

3) استخدام ما كتبه المؤرخون والباحثون الذين يحدوهم الصدق في العمل والجدية في البحث والتجرد للعلم ليس غيره ·

4) توحيد المجهودات وتنسيق العمل بين ابناء المغرب المتخصصين في التاريخ وذلك مثل تأسيس مؤسسة علمية على مستوى مغربي تعنى

بتاريخ المغرب وشؤون مجتمعه ، اصدار مجلة مغربية للتاريخ ، واخيرا تبادل الآراء في القضايا التاريخية التي يشترك فيها ككل •

هذه بعض الاقتراحات التي هي مجرد رأي يمكن ان تناقش ويضاف اليها أو يعدل فيها ، المهم هو انه حان الوقت للنظر في هذا الجانب الهام سيما اذا عرفنا ان هناك أناسا يدعون البحث والتعمق فيه ، وجدوا الطريق ممهدة الى وثائقنا المكتوبة منها والمروية على حد سواء ، فتسللوا أولا الى عقول البسطاء فاعتمدوها مصدرا لكتابة تاريخهم المغرض ، ودخلوا المكتبات العامة والخاصة فهربوا كنوزها وتسربوا الى أقسام الوثائق باسم العلم وعالمية الثقافة فابتزوها ثم ادعوا فيما بعد انهم – دون سواهم – اعرف بتاريخ بلادنا وهم اقدر على فهم التاريخ وربطه بقانون العلية والاسباب والمسببات وهم يرمون من كل هذا تشويه الشخصية الوطنية وتجريدها من كل مقومات الحضارة والرقي •

البولونيون •

انصافا للعلم والحقيقة لا نريد ان ننسى أولائك الذين انصفوا تاريخ العرب والمغرب والاسلام ، وظلوا مغمورين طيلة نصف قرن كامل •

لقد حاول البولونيون ان يدرسوا تاريخ المغرب على ضوء الوثائق والمخطوطات ووضعوا مبدا لهم هو تخليص الدراسات التاريخية المغربية من الشوائب التي علقت بها ، هذه القاعدة هي التي اعتمدتها المدرسة البولونية عندما تصدت لدراسة تاريخ المغرب أو تقديم بحوث عن المغرب •

فالبولونيون (أقصد منهم المؤرخين المحدثين أو المعاصرين) عندما ارادوا دراسة تاريخ المغرب لجؤوا الى مصدر واحد هام في نظرهم هو النصوص وكل كتابة عندهم لا تعتمد النصوص التاريخية المغربية أو ما كتبه المغاربة انفسهم تعد لغوا وهراء

غير ان الملاحظ في هذه المدرسة البولونية التي ظهرت أواخر القرن الثامن عشر ومطلع هذا القرن هو انها اهتمت بتاريخ المغرب اهتماما كبيرا وجمعت خلال ثلاث وثمانين عاما اعز واغلى وانفس ما يملكه المغرب من وثائق ومخطوطات •

وقد يتبادر الى الذهن سؤال أو أسئلة •

ما علاقة البولونيين بتاريخ المغرب الوسيط ؟

ولماذا عنى البولونيون بهذا القسم من افريقيا الشمالية سيما ليبيا وتونس والجزائر واخيرا امتدت جذور هذه الدراسة بحكم الترابط والموقع الجغرافي الاستراتيجي امتدت الى جنوب المغرب الاقصى فموريتانيا ثم النيجر ومالي وتشاد وتركزت خصوصا حول أودغشت وتمبكتو وتادمكت •

وما هي طبيعة الدراسات وفرع التاريخ المغربي الذي أهتم به البولونيون ؟

هل توجد وثائق ومخطوطات مغربية في بولونيا الكبرى ؟

كل هذه الاسئلة وغيرها هي موضوع دراستنا هذه •

حسب ما توصلت اليه من دراسة عميقة وبعد اتصالات مباشرة وعمل مع البولونيين في بولونيا تبين ان اكتشاف البولونيين لتاريخ المغرب يرجع

الى العقد الثامن من القرن التاسع عشر ذلك ان الرائد البولونى الاول الذى تعرف على هذا المغرب فى الفترة المذكورة هو دى كالاسنتى موتيلانسكى الذى كان ترجمانا عسكريا فى خدمة الجيش الفرنسى ، ولكنه اذا كان قد وضع خبراته كترجمان فى خدمة الجيش الفرنسى فقد سخر مواهبه الى م تاريخ المغرب وارساله مباشرة الى بولونيا بدل فرنسا ·

ولقد كانت مساعى مونيلانسكى الاولية تتلخص فى الخطوات التالية :

1) جمع اكبر ما امكن جمعه من الوثائق والمخطوطات المغربية سيما التى لها صلة بصحراوات المغرب وعلاقتها الاقتصادية مع افريقيا الغربية والوسطى ·

2) محاولة التعرف على عادات الشعب وتقاليده واخلاقه مع دراسة الانظمة الاجتماعية التى تسيره

3) تمتين الصلة مع اعيان المغرب من علماء وشيوخ ورؤساء القبائل ، وبحكم معرفة الرجل العميقة لعدة لغات منها العربية التى يملك زمامها والبربرية التى يتقنها والفرنسية التى يجيدها والانجليزية التى درسها ، بحكم هذه المعرفة استطاع ان يضمن لمسعاه النجاح ·

4) توطيد العلاقة بينه وبين الاب دى فوكولد الذى كان منزويا فى اعماق صحراء الجزائر ، وفى ظل الرحمة الكنائسية والحماية الفرنسية استطاع الاثنان ان يستجليا مجاهل هذه الصحراوات العامرة المغمورة ·

وفى خلال مدة عشرين عاما (1880 – 1900) كون مونيلانسكى نواة أولى لمكتبة مغربية تجمع عينات من الوثائق والمخطوطات ، اعقبها بمذكرات عن مشاهدته وملاحظته حول سكان الصحراء عامة ·

هذه المجموعة كلها ارسلت الى مدينة لفوف (3) البولونية السوفياتية واصبحت تحمل اسم « مجموعة موتيلانسكى » (4) ·

وهذه الوثائق والدراسات التى تضمها مكتبة جامعة لفوف هى :

1) سيرة ابن الصغير المالكى (القرن الثامن الهجرى) فى سيرة أئمة بنى رستم بتاهرت، ترجم الى الفرنسية وقدم عام 1905 كبحث فى المؤتمر العالمى الرابع عشر للمستشرقين المنعقد فى الجزائر·

2) الحملة الاسبانية ضد جزيرة جربة (تونس) فى مطلع القرن السادس عشر ·

3) لهجات سكان أغدامس (دراسة فى علم الصوتيات واللسانيات) 1904 ·

4) جبل نفوسة وصف اجتماعى وديموغرافى للجبل وسكانه متبوع بهوامش وتعاليق عن النطق ومخارج الحروف واللغة والتراكيب · باريس 1898 ·

5) نصوص لغوية تتعلق بسكان جربة الحومة أجيم صدغيان والغ والمحبوبين ·

6) مؤلفات الاباضية ، درست وجمعت عام 85 – 1886 · (5)

7) العقيدة الاباضية مترجم الى الفرنسيـــة ، وقدم الى المؤتمر المذكور اعلاه ·
8) مدينة القرارة منـذ نشأتها مترجـم الى الفرنسية ، واهم ما في « مدينة القرارة » ·

التعليق الذى اضفاه موتيلانسكى على هـــذه الترجمة 1885 ·

9) أصول العادات الاجتماعية وقواعد السياسة لسكان مدينة غرداية،دراسة تدخل ضمن التعاليق السالفة الذكر ·

10) ابراهيم بن سليمان الشماخى تراجـم
11) اسم الجلالة فى اللغة البربرية (6) ·

هذا ما استطعنا حصره بالنسبة لهذه المجموعة الموتيلانسكية التى توجد خارج الجزائر · وكانـت مكتبة جامعة الجزائر تضم مجموعة أخرى منذ 1925 تحمـل اسـم موتيلانسكى · الا ان زيقمونت سموقورزفسكى البولونى ورفيق موتيلانسكى فند فى رده العنيف على مرسيل مرسييه (7) الزعـم القائل بان مجموعة أخرى قيمة ولا تقدر كان قد جمعها موتيلانسكى ثم اختفت وظهرت فجأة فـى احدى الجامعات بامريكا دون ذكر اسم هذه الجامعة ويقول سموقورزفسكى فى دراسته ورده المذكور (8) : ان مرسيل مرسييه يجهل وجود مجموعـة موتيلانسكية من المخطوطات فى حوزة الاستـاذ قتنير الالمانى الذى تنازل عنها لصالح جامعة لفوف فى الاتحاد السوفيتى (9) ·

وهذه المجموعة كمـا ذكرها سموقورزفسكى مترتبة على النحو التالى :

1) كتاب النيل وشفاء العليل للشيخ عبـد العزيز اليزجنى ·

2) شرح الجهالات (10) لابى عمار عبد الكافى التناواتى الوارجلانى (11) ·

3) الدليل والبرهان لابى يعقوب يوسف بـن ابراهيم الوارجلانى السدراتى ، من علماء الكـلام والمنطق والرياضيات (النصف الثانى من القرن السادس الهجرى) حياة حافلة بالاسفار والمؤلفات درس فى سدراتة (وارقلة) ثم رحل الى المشرق ومنه عاد الى المغرب فقصد قرطبـة حيث قـام بالتدريس فى جامعها فترة من الزمن وهناك تعرف عليه بعض الالمان الذين كانوا يدرسون العربيـة ولنا عودة فيدراسة قادمة على علاقـة الالمـان واهتمامهم البالغ بتاريخ المغرب فى عصر مبكـر جـدا ·

بماذا نفسر وجود مخطوطات وثائق مغربيـة ذات قيمة فى مكتبات المانيا ؟

هذه المخطوطات التى يرجع تاريخها الى القرن الخامس والسادس الهجريين ، سؤال وجهته الى كاتب الدولة الالمانى للثقافة فرد على اثناء زيارته لجامعة قسنطينة ـ نعم هناك مؤلفات مغربية فى فى المكتبات الالمانية شأنها شأن غيرها مـن الكتب العربية التى شقت طريقها الى اوروبا ·

4) كتاب اخبار المرجية (بفتح الميم) فى سيرة خير البرية لابى العباس احمد الحقانى · هـذه المجموعة توجد كاملة فى جامعة لفوف · واذا اردنا تصنيف هذه المجموعات التى جمعت ما بين 1880 الى 1926 نجد :

أولا : ان هناك مجموعة ارسلها موتيلانسكى مباشرة الى لفوف وهى التى كانـت للدارسـين

البولونيين نقطة انطلاق واستمرار البحث عن المخطوطات المغربية ٠

ثانيا : مجموعة أخرى كانت توجد فى حوزة قتنير الالمانى الذى تنازل عنها لفائدة جامعة لفوف ٠

ثالثا : مجموعة أخرى ثالثة مجهولة تسربت الى احدى الجامعات الاميركية والبحث عن هذه المجموعة لا زال مستمرا ٠

رابعا : مجموعة رابعة أوقفها موتيلانسكى نفسه على جامعة الجزائر قبل وفاته 1884 ـ 1883 كما يشير الاهداء الذى سطره البولونى على احدى صفحات المخطوط وهذه المجموعة الاخيرة غير المجموعات الثلاثة الموجودة فى الاتحاد السوفيتى واميركا اذ يؤكد زيقمونت سموقورزفسكى « انها غير معروفة فى اوروبا » ولقد أكد لى الدكتور محمد حميد الله فى باريس 1965 انه عثر هو الآخر على مجموعة من المخطوطات المغربية فى مكتبة جامعة استراسبورغ وارسل بقائمتها الى الاستاذ البولونى المعاصر طدوز لفسكى فى بولونيا ٠ ولم احصل على هذه القائمة التى ارسلها الدكتور حميد الله بعد عودتى من بولونيا ، الا ان هذه المجموعة تقبل احد الاحتماليين :

اما انها من جمع الالمان (قتنير ، شاخت ، وكارل سوتير) واما انها من عمل موتيلانسكى اهداها أو ارسلها الى استراسبورغ والذى يرجح هذا الاحتمال الاخير هو ان موتيلانسكى ذكر فى رسالة شخصية بعثها الى الاب دى فوكولد فى الهجار « إن وفدا المانيا عقد له زيارة ودية بمقر حكمه بمدينة غرداية واطلعهم على كنوز العلم والمخطوطات التى لا ينضب معينها » (12) ٠

اما الرائد البولونى الثانى الذى واصل رسالة موتيلانسكى هو الاستاذ زيقمونت سموقورزفسكى الذى زار المغرب وافريقيا الغربية الوسطى فى الربع الاول من القرن الحالى 1925 واستطاع هو الآخر بحكم سابق معرفته لاهمية تاريخ المغرب ومخطوطاته السهلة المنال ، بحكم هذه المعرفة سلك منهاجا جديدا فى جولته الاستطلاعية وهى تتمثل فى الحصول على انفس المخطوطات التى اشار اليها موتيلانسكى ولم يعثر عليها ، فكان زيقمونت يستهدف من هذه الرحلة تركيز عمله على استكمال ما نقص من مهمة سالفه ٠

وأول ما حصل عليه سموقورزفسكى هو كتاب السيرة واخبار الائمة (13) بجزئيه ٠

الجزء الاول ضمنه تاريخ المغرب الاسلامى الوسيط وعلى وجه الدقة تاريخ سياسة بنى رستم فى تاهرت وعلاقتهم بالاندلس والادارسة والاغالبة تدرجا فى العرض الغير المنظم الى عصره ، ويعتبر هذا القسم الاول تاريخى اما القسم الثانى فهو فى التراجم خاصة ٠

وهذا المخطوط لم يطبع بعد انما ترجمه الى الفرنسية ترجمة ركيكة الباحث الفرنسى اميل مسكراى وطبع فى الجزائر 1878 مع هوامش وتعاليق ضافية ٠

ولقد كانت توجد في مطلع هذا القرن عدة نسخ متوفرة من مخطوط كتاب السيرة الا ان شاخت الالماني في دراسته منذ سنوات قليلة أكد انه لم يعثر الا على نسخة واحدة ، غير ان ط • لفتسكى اخبرني شفويا انه توجد نسختان من المخطوط في لفوف باسم مجموعة زموقور زفسكى تحت رقم 157 ، 158 ونسخة خطية اخرى كاملة في كراكوفي تحت رقم 275 •

2) **مخطوط طبقات الدرجيني (14) في قسمين** والقسم الثاني مستقل عن القسم الاول ، ذكره سموقورزفسكى ضمن الكتب التي عثر عليها وارسل بها الى لفوف تحت رقم 275 •

3) دراسة حول شاعر مغربي (مجهول الاسم) ظهرت هذه الدراسة في المجلة البولونية الشرقية الجزء الثاني ص 260 ــ 268 •

4) جرد مفصل للمخطوطات والمؤلفات عند اباضية المغرب والمشرق ، وهو عبارة عن فهرست المؤلفين الذين تركوا آثارا مهملة ومشتتة هنا وهناك •

ولقد اعتمد سموقورزفسكى في عمله على كل المخطوطات بحيث كان استخدامه للمصادر مبنيا على دراستها العميقة ، وهو يذكر انه متمم لما لم يأت به موتيلانسكى •

والذي يهمنا في الدرجة الاولى قبل تقييم عمله هو حصره للمخطوطات وذكره لها بامانة معترفا بانه جمعها وارسلها الى جامعة كازيميرب • لفوف ثم يذكر في نفس الوقت المخطوطات التي لاتوجد في بولونيا انما في مكتبات معينة مثل مكتبة المتحف البريطاني وبرلين وليبزيغ واكسفوردولندن والمكتبة الخديوية بالقاهرة أو المكتبة الظاهرية بدمشق •

غير ان المخطوط الوحيد الذي لا زال في طي الغموض والكتمان هو « التاريخ الكبير لوارجلان وسدرته واريغ »(15) لابي يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني الذي يعده الدارسون اكبر عالم رياضي في المغرب (الجزائر) الا انه لا زال في طي النسيان •

هذا المخطوط ذكره المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب وقال (16) عنه انه رآه يباع في تركة المستشرق موتيلانسكى ولو ان له دراهم لاقتناه ولكنه اقتصر على شراء رسالة ابن الصغير المالكي •

ورغم ان البحث عن هذا المخطوط لم ينته بعد يمكننا ــ تاريخيا ــ ان نشير الى ان لهذا المخطوط الثمين قصة سوف نعود اليها في دراسة مستقلة •

وكل ما يمكن الحديث عنه الآن هو ان أبا يعقوب كان قد سافر الى السودان الغربي وقدم لنا وصفا قيما عنه (17) ثم قام بالتدريس في جامع قرطبه حيث تعرف عليه هناك جماعة من الالمان الطلبة وفي هذه الاثناء (القرن الثاني عشر ميلادي) كان قد انهى من اعداد كراريس ودفاتر « التاريخ الكبير » وفجاة يظهر المخطوط ــ في السودان ــ في افريقيا حيث استولى عليه البرتغاليون ، ثم ينتقل المخطوط من ايدي البرتغال الى الالمان حينما كانوا بافريقيا واخيرا بيع ــ على حسب رواية المؤرخ التونسي ــ في مطلع هذا القرن ضمن تركة موتيلانسكى •

والاسئلة التى تطرح هنا هى :

هل المخطوط الذىرآه حسنحسنى عبد الوهاب هو بعينه المخطوط الذى كان بين ايدى البرتغاليين والالمان ؟

كيف وأين عثر عليه موتيلانسكى ؟

من اشتراه ضمن التركة التى خلفها موتيلانسكى فى سماسرة المخطوطات ؟

اليهود الالمان ومن باريس وجد طريقه الىجامعة تل أبيب ؟

كل هذه الاسئلة تحتاج الى جواب والجواب هو متابعة هذا المخطوط الذى قيل انه عثر عليه فى المانيا من غير تأكيد ٠

وكذلك الامر بالنسبة لمخطوط يهودا بن قريش التاهرتى (من علماء تاهرت فى القرن الثانى الهجرى) الذى يحمل عنوان « النحو التنظيرى » دراسة لغوية مقارنة بين اللغة العبرية والعربية والبربرية ٠ هذا المخطوط نعرف انه موجود باكسفورد ولكن ينبغى الحصول على نسخة فتوغرافية على الاقل ٠

والى جانب هذين المخطوطين الهامين هناك مخطوطات اخرى لا تقل قيمة عنهما ذكرها البولونيون لما ما دون أن يمتلكوها أو يشيروا الى مكان وجودها ٠

اما الرائد البولونى الثالث الذى استأنف رسالة أستاذيه موتيلانسكى و سموقورزفسكى هو الاستاذ المعاصر طدوزلفتسكى (18) زار المغرب وافريقيا الغربية والوسطى عدة مرات كما أنه جاب صحراواتافريقيا بحثا عنمخطوط أو حصولا على تفسير كلمة طوبوغرافية عثر عليها فى نص تاريخى ، وهكذا تعتبر اعمال ط ٠ لفتسكى بمثابة ثمرة مجهود علمى كبير دام قرنا الا ربعا ٠

واذا كان الرائدان الاولان قد اعتمدا فى عملهما على اكتشاف مجاهل المكتبات المغربية المطمورة وابرازها فقد عمد ط ٠ لفتسكى الى النصوص المغربية المستخرجة من بطون المخطوطات التى تملكها بولونيا فدرسها وقارنها وعلق عليها فجاءت كل هذه الدراسات صورة جلية للمؤرخ الذى يدرس التاريخ من خلال النصوص التى ترجع الى عصر أو لآخر ٠

وهذه بعض الاعمال التى انجزها فى ميدان التاليف والتحقيق دون الحديث عن مساهمته فى اعادة طبع دائرة المعارف الاسلامية الحديثة . وعن محاضراته التى يلقيها فى المؤتمرات العالمية فى موسكو ، وفرنسا ، وايطاليا ، وتونس . ما عدا الجزائر (19) ٠

ونسرد الآن قائمة مؤلفاته دون مراعاة الترتيب الزمنى لها ٠

1) « أوائل تجار العرب الذين سافروا الى الصين لغرض التجارة » ٠

دراسة نشرت لاول مرة بمجلة لفوف البولونية 1936 وتعتبر من أهم المؤضوعات التى تجب العناية بها وتوجيه الباحثين اليها ذلك لوفرة المصادر والمراجع فيها ولان تجارة العرب مع الصين ترجع الى عهد قبل الاسلام ٠

ولقد اعتمد المؤلف فى هذه الدراسة على :

1) استخدام النصوص العربية المأخوذة من مظانها كالبلاذرى والدينورى وطبقات المشائخ (مخطوط فى لفوف) وابن خرداذبه ٠

2) ذكر اسماء التجار العرب الذين احترقوا التجارة مع الصين فى عصر مبكر جدا ٠

3) تصنيف أنواع البضائع التى كان العرب يجلبونها الى الجزيرة العربية ثم الى المغرب ٠

4) ذكر وسائل النقل التى كانوا يستعملونها فى اسفارهم الى الصين دون اهمال المحطات والموانىء التجارية التى كانوا يقصدونها لتبادل البضائع أو للاستراحة فيها ٠

5) ذكر جميع المصادر العربية والغربية التى اعتمد عليها فى هذا البحث ٠

2) « الكتاب العرب فى العصر الوسيط وحديثهم عن العنبر المستورد من بحر البلطيق الى بلاد العرب » (20) ٠

من المعروف بداهة ان مادة العنبر الاصفر أو ما يسمى بالكهربا (21) (يضم الراء) كانت ولا تزال من المواد التجارية الهامة فى الغرب والشرق على حد سواء الا ان الحكام العرب بالغوا فى طلبها ودفعوا النفيس من أجل اقتنائها وذلك لما لها من خاصيات على الحالات النفسية فى المرأة خاصة ولقد كانت المنافسة للحصول على هذه البضاعة النفسية شديدة لا من طرف أوروبا فحسب بل وحتى من طرف الحكام العرب فى الشام وبغداد ، لقد كان ولوع الافارقة بالعنبر أكثر ما يكون ولوعا بالتبر والآلى والمرجان كما ان أميرات القصور فى اقطار المملكة الاسلامية والامبراطورية الرومانية كن يغالين فى طلب العنبر وكن يدفعن الثمن اضعاف ثمنه المطلوب ٠

والعنبر الاصفر البلطيقى يستخرج من بحر البلطيق بعد ان تكون الامواج قد عقدته والقت به على شواطىء نهر GONIA (المانيا) ومن هنا يجمع ويتوجه به التجار نحو الغرب والمشرق الاسلامى والمغرب والاندلس ٠

اما بالنسبة للغرب فيمر عبر بروس وتروسو التى تقع فى مقاطعة البلاق ELBLAG أو البنق ELBING الحديثة شرق دانزق DANZIG الى خليج فنلاندا عن الطريق البحرى صامبى SAMBIE

اما دور التجار العرب فى هذه المادة فهم يلعبون دور الوسيط ، وتستنفد بغداد والشام والحجاز اكثره بحيث كلما قل عرضه كثر طلبه بالنسبة للتجار المغاربة ولذلك لا يصل العنبر الاصفر البلطيقى الى المغرب والاندلس الا بعد ارتفاع سعره بصورة فاحشة ٠ ولقد اعتمد ط ٠ لفتسكى فى دراسته للموضوع على النصوص العربية القديمة سيما التى لها شبه تخصص فى مضمار التجارة بأصنافها والعملة المتداولة بأنواعها والطرق المسلوكة برا وبحرا ٠

ونقتبس الآن نصا واحدا من هذا البحث لتوضيح الفكرة التى يسير عليها ط ٠ لفتسكى فى عمله ٠

أقدم نص تشير اليه المصادر هو ليعقوب بن اسحاق الكندى (22) (933 ـ 1048) الذى عاصر

المامون والمعتصم والمتوكل ، والنص الذى أورده الكندى نقلا عن ابى الريحان البيرونى (23) فى كتابه المسمى « كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر » (24) الذى الفه ما بين 1040 — 1048 ٠

والنص الذى اقتبسه ط ٠ لفتسكى هو : (25)

« الكاهربا صمغة كالسندروس من شجرة(25) تنبت ببلاد الصقالبة على شاطىء نهر (26(كل ما سقط منها فى الماء انعقد وجرى الى البحر والقته الامواج الى الساحل وما وقع على الارض لم ينعقد» وهكذا من خلال دراسة ط ٠ لفتسكى لتسعة نصوص فى نفس الحجم والمضمون استطاع ان يقدم لنا بحثا قيما مركزا فى 39 صفحة معتذرا فى آخر البحث بأن الموضوع يحتاج الى دراسة عميقة على ضوء المخطوطات العربية ، هذا ودون اهمال ذكر اهمية العنبر ودوره فى الطب العربى (27) والذى يهمنا من هذا المثال الذى تعرضنا له بشىء من التفصيل هو دور العنبر فى الحركة التجارية بين دول المغرب الوسيط وافريقيا الغربية والوسطى اذ تذكر النصوص المغربية هى الاخرى ان العنبر كان يشكل احدى البضائع الهامة التى يصدرها التجار المغاربة الى سكان السودان حيث انهم يستعملونه فى عدة امور منها التطيب (وذلك لكثرة البخارة) والتداوى بل وحتى للسحر والتعوذ من الجن وتحنيط الموتى ٠

والصلة الوثيقة بين الموضوعين السابقين «التجار العرب الاوائل الى الصين » « وحديث الكتاب العرب عن تجارة العنبر وخصائصه » تجرنا بطبيعتها الى بحثين آخرين مغربيين لطدوز لفتسكى الاول تحت عنوان :

(تاهرت وعلاقتها التجارية مع السودان الغربى فى نهاية القرن الثامن وبداية التاسع الميلاديين)

والثانى تحت عنوان : (حلقات التاريخ التجارى عبر الصحراء فى العصر الوسيط) نشر البحث الاول فى دفاتر الدراسات الافريقية رقم 8 وقدم كمحاضرة فى المؤتمر الخامس والعشرين للمستشرقين المنعقد فى موسكو ٠

والبحث يضم 23 صفحة مع 92 تعليقا كلها مركزة وغزيرة من حيث قيمتها العلمية وتحقيقاتها المستفيضة ٠

والذى نلفت الانتباه اليه عن هذه الدراسة أمور :

1) اعتمد ط ٠ لفتسكى — كعادته — على النصوص المغربية المستمدة من المخطوطات ٠

2) رد على الكتاب الغربيين الذين اعتقدوا — تعصبا — ان العلاقات التجارية بين المغرب والسودان لم تعرف طريقها اليه الا فى نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الميلادى ٠

وعلى العكس من هذه النظرية المتاخرة نسبيا ارجع لفتسكى العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الى القرن الثانى الهجرى الثامن الميلادى أى ان الفارق الزمنى بين ماركروبوفيل وبين لفتسكى هو قرن كامل ٠

3) عنى لفتسكى عناية خاصة بالاسواق والمدن التجارية فى كل من المغرب والسودان مع تحديد لمواقعها الجغرافية واهمية كل منها بالنسبة للدورة الزمنية حسب فيضانات النيجر وما يتبع ذلك من استخراج التبر بعد انحسار المياه ، وبالنسبة للبضائع التجارية تصديرا واستيرادا ٠

4) ذكر لفتسكى بكل دقة وامانة جميع المصادر العربية والمغربية التى تناولت العلاقات التجارية بين المغرب والسودان ٠

اما البحث الثانى حلقات التاريخ التجارى عبر الصحراء فى العصر الوسيط فقد نشر فى المجلة البولونية لدراسة أخلاق وعادات الشعوب ٠ ج 8 ETNOGRAPHIA POLSKA ٠ 1964

ويتميز هذا المبحث بما يلى :

1) استخدام النصوص المغربية المأخوذة من المخطوطات ثم النصوص العربية فى الدرجةالثانية

2) دراسة الطرقالصحراوية للقوافل التجارية ابتداء من جميع اسواق المغرب سلجماسة تافيلالت فاس ، تاهرت ، بسكرة ، توقورت ، مسيلة ، وارجلان ، بجاية ، القيروان ، توزر جادو بليبيا الى صحراء فزان ، تبستى ، كوار ، أهقار وانبيا ٠

ودائما فى اتجاه السودان، تكرور عبرموريتانيا، أودغشت(29) غانا، كومبى صالح جنوب شرقى تشيت، صنغاى قاو، تادمكت الى مصب نهر النيجر ثم اخيرا تشاد ٠

3) تسمية اغلب التجار والبعثات السياسية (الديبلوماسية) التى قصدت هذه البلدان لغرض التجارة أو السياسة أو حتى المصاهرة (30) مع ملوك السودان الغربى ٠

4) حصر جميع البضائع الواردة والصادرة من الشمال الى السودان او العكس منها (العنبر الذى سبقت الاشارة اليه) ٠

5) بلغ عدد التعاليق على هذا البحث 65 وحوالى 113 مصدرا ما بين غربية وعربية ومغربية ٠

6) وآخر كلمة انهى بها لفتسكى بحثه هذا هى « ولكى نشبع رغبة التعرف على موضوع العلاقات التجارية المغربية والسودانية فى العصر الوسيط فلا تكفى دراسة مختصرة مركزة مثل هذه » ٠

وبمثل هذه العبارة ننهى هذا التقديم الاولى عن البولونيين وتاريخ المغرب الوسيط ونكمل فى بحث قادم دراسة مؤلفات لفتسكى التى تربو على العشرين (31) ٠

هـــوامـــش

1) « المغرب العربى فى منظور المؤرخين الاستعماريين » محمد الميل مجلة الثقافة العدد 12 يناير 1973 حيث اشار الاستاذ اشارة ذكية بارعة الى هذا الموضوع

2) نحن بصدد دراسة شاملة عن « المخطوطات المغربية فى المكتبات الاوروبية » والتى ستظهر فى حينها

3) مدينة لفوف LWOW تقع على الحدود البولونية الروسية وكانت قبل الحرب العالمية الثانية تابعة لبولونيا الكبرى

4) توجد فى الحى الشعبى القسنطينى (سويقة حاليا) زنقة لعمامرة التى لا زالت تحمل منذ مطلع هذا القرن الى الآن اســـم (موتيلانسكى) سميت باسمه تخليدا لذكرى وفاته ، الم يحن الحين لاعادة اسم الزنقة الى اسمها الاول الاصيل ؟ علمنا والمقال مائل للطبع ، وفى ايام زيارة الاخ الرئيس بومدين لمدينة قسنطينة ، ان البلدية قررت الغاء يافطة موتيلانسكى وابدلتها فعلا باسم آخر غير زنقة لعمامرة قديما

5) فى BCA الجزء 3 ص 15 ـ 72 ـ الجزائر

6) خلاصة مركزة فى مجلة الدراسات الافريقية رقم 1905،257

7) كتاب الوقف الاباضى وتطبيقاته ط الجزائر 1927

8) رد على « دراسة مارسيل مرسييه للوقف الاباضى » ط لفوف 1929 ص 14 الفقرة 4

9) نفس المصدر ص 15 الفقرة الاولى السطر السادس

10) هو شرح لكتاب الجهالات الذى الفه ابو اسماعيل البشير المزاتى فى الكلام ـ وتوجد منه نسخة خطية فى مجموعة لفوق نقلت الآن من الاتحاد السوفيتى الى مكتبة ط . لفتسكى بولونيا

11) من مواليد وارجلان (وارقلة) فى القرن السادس الهجرى ، درس فى تونس ثم رحل الى المشرق وبعد عودته بدا التدريس والتاليف بمسقط راسه ، وعند زيارة سموقورزفسكى البولونى لهذه المدينة عام 1925 وجد ضريح ابى عمار كما هو وعلى بعد 5 كيلومترات من الشمال الغربى لورقلة

ونشير هنا الى ان لابى عمار مؤلفات وكتبا اخرى ذكرت فى عدة مصادر عربية واوروبية

12) مراسلات الاب دى فوكولد تاليف جورج قورى ط . باريس 1936 ـ 1946

13) تاليف ابى زكريا يحيى بن ابى بكر الوارجلانى (القرن الخامس الهجرى 11 م) ومن علماء الطبقــة العاشرة ، قضى عشر سنوات فى تامولاست قرية جبلية فى الجنوب الشرقى التونسى حيث درس عى ابى الربيع سليمان بن يخلف المزاتى ، وفى تماوات (بوارقلة) الف كتابه المذكور ثم توفى فيها حوالى (1110ـ1111م) 504 هـ

14) الفه ابو العباس احمد بن سعيد بن سليمان بن على بن يخلف الدرجينى من علماء ليبيا فى القرن (6 هـ ـ 12 م) رجل تشريع وتاريخ ، يرجع نسبه الى تاميجار القرية الواقعة فى جبل نفوسة بليبيا ، ونسبته الى درجينى السفلى الجديدة قرب نفطة بتونس انما بسبب استقرار والده العالم فى هذه القرية

15) وهناك تسميات اخرى لهذا المخطوط « فتوح المغرب » تاريخ المغرب او « التاريخ الكبير »

16) فى مراسلة له مع ابى اليقظان

17) ذكر المؤلف ابو يعقوب فى رسالته « الاقاليم السبعة وخط الاستواء » ما يلى : « وقد وصلت انا بنفسى الى قريب من خط الاستواء وليس بينى وبينه الا مسيرة شهر وكاد ان يستوى الليل والنهار فيه » الدليل ج 3 ص 216

18) رغم تقدم سن ط . لفتسكى فقد ساعدنا مساعدة كبيرة فى اعداد الدكتوراه كما انه احسن وفادتنا عند اقامتنا فى بولونيا 1965 ، ولقد كان لقاؤنا به مرة اخرى فى موريتانيا لغرض البحث ذا اثر كبير فى اعداد عمل علمى مشترك سيظهر فى حينه

19) وجهت اليه دعوة رسمية للحضور الى الجزائر ولكنها تاجلت عل ما يبدو

20) نشر هذا البحث فى المجلة البولونية رقم 4 ـ 1962 ـ ص ـ 1 ـ 140

21) استعمله الكندى الكاهربا والمؤرخون المتاخرون كتبوه : كاربا ، كاهروا ، وقهربا ، واصل الكلمة فارسية كاهربائى او كهربائى فى النصوص البهلوية (قرن 3 ميلادى) اى قبل غزو العرب لدولة الساسانين ، والكلمة مركبة ومعربة عن الفارسية من كاه روبا ومعناها التبن الاخاذ او « سالب التبن » كما شرحها بالنص الحرفى يوسف بن اسماعيل بن الكبير الخويى (1311) فى قاموس الادوية المسمى : شرح ما وقع من اسماء الادوية باليونانية والكتاب مخطوط فى مكتبة كامبرج ، ولم يطبع منه جورج الا الجزء المتعلق بالعنبر انظر ص 377 ـ 370

Neue Beiträge (Contribution moderne).

22) ترك الكندى حوالى مائتى نص فى شتى ميادين العلوم

23) انظر حول حياة البيرونى : كراتشكوفسكى فى 1 ،ج ، ع ، صفحة 244 ـ 266 للتسكى : عالم الصقالبة : صفحة 368 ـ 369 بروكلمان GAL ج 1 ص 475 ـ 476 والتكميل ج 1 ص 870 ـ 875

24) وهناك ترجمة اخرى لعنوان الكتاب « الجواهر والمياه المعدنية » ، « الجواهر والمعادن السائلة » الاحجار الكريمة المستخرجة من الارض » انظر محمد يحيى هاشمى الذى اختار التسمية الثالثة ط . حيدر آباد 1936 ـ 1937 ص 211 سطر 15 ـ 21 وفى النص الالمانى ط بون 1935 ص 11 ـ 13

Die Quellen des Steinbuches des Beruni (Edi. BONN 1935).

25) السندروس هو صمغ الصنوبر او القلفونية : انظر كتاب « شرح ما وقع من اسماء الادوية » للخوبى (1311) ، كتاب معجم اسماء النباتات الواردة فى تاج العروس ، جمع وتحقيق محمود مصطفى الدمياطى 1966 القاهرة

26) المقصود بالنهر هنا هو الخليج الواقع بالقرب من البلاق الالمانية والذى يؤدى الى بحر البلطيق

27) ذكر ابن بيطار نقلا عن الرازى الطبيب فى كتابه « الشفاء » ان العنبر يستعمل ضد النزيف والاسهال

28) انظر ج ماركار MARQUART فى مجموعة لا نعرف تاريخ نشرها ، وبوفيل E. W. BOWILL فى

The golden trad of the moors. Londres 1958.

29) فى خلال اقامتى بموريتانيا 67 ـ 68 اتصلت بالبعثة الآثارية المشتركة بين موريتانية والسينيغال التى اكتشفت مدينة اودغشت الواقعة بين حدود البلدين ، ومن بين ما عثر عليه فى هذه المدينة الاثرية بعض قبور التجار المغاربة التى يرجع تاريخها الى القرن الثانى الهجرى والتى تضم الاوانى وحتى بعض انواع العملة المغربية التى شاهدت بعضها فى قسم الآثار بجامعة داكار . ولقد جرت العادة فى السودان الوسيط ان يدفن الغريب المجهول الهوية بما معه فى حوزته . انظر : كتاب اودغشت لـ روبير هوجو ودفيز ط . باريس 1970

Robert HUGO et DEVISE ED ARTS et METIERS.

30) محمد بن عرفة سفير الامام افلح الرستمى الى ملك قاو (جوجو فى المخطوطات المغربية) انظر : رسالة بن الصغير المالكى والازهار الرياضية لسليمان البارونى فى (ط . حجرية القاهرة 1904 ص 184 ـ 185)

31) نحن بصدد ترجمة هذه الدراسات الى العربية التى نامل ان تخرج الى القارئ قريبا

« حقوق الترجمة والتعريب والطبع محفوظة للمؤلف والمترجم » (كراكوفى 11 ـ 65)

نماذج من تشويه بعض المؤرخين الأجانب لتاريخ الجزائر

محمد الميلي
مدير الاعلام
وزارة الاعلام والثقافة

مدخل

بعد مضى أحد عشر عاما على استقلال الجزائر، ما تزال تصدر كتابات ودراسات فرنسية مختلفة عن حرب الجزائر ، وهو أمر طبيعي : فقد زلزلت حرب التحرير الجزائرية الامبراطورية الفرنسية ، وأجبرت الاستعمار المباشر فى القارة الافريقية على أن يتحول الى استعمار حديث • واضطرت الاستعماريين الراديكاليين الى تقديم تنازلات كبيرة فى تونس والمغرب ، وتسببت فى سقوط الجمهورية الرابعة وتعريض فرنسا لخطر حكم عسكرى فاشى •

ثم ان ارسال المجندين الفرنسيين للمساهمة فى الحرب ، طيلة نحو من سبع سنوات ، واساليب التقتيل والتدمير وتعميم التعذيب والقمع الوحشى وتنظيمه ، يعنى أن الشعب الفرنسى قد ساهم ـ من خلال موجات المجندين المتلاحقة ـ فى الحرب وان هذه قد خلقت آثارا عديدة فى نفسيات أبنائه الذين باشروا الحرب ومارسوا التعذيب ·

من الطبيعى والحالة هذه أن تتوالى الكتابات الفرنسية عن الجزائر · لكن ما يدفع الى التساؤل هو التأويلات التى تعطى للاحداث : فنادرا ما نجد انفسنا أمام محاولة موضوعية علمية ، بل ان معظم الكتب التى غمرت السوق الفرنسية منذ بضع سنوات ، هى كتابات متحيزة ، متجنية ، تتجاهل الواقع ، وترفض ـ عمليا ـ التسليم بالمقدمات المنطقية التى تبرهن عليها نتيجة الاستقلال وواقع الثورة ·

فهناك غير واحد من السياسيين الفرنسيين ، ممن عاشوا حرب الجزائر ، من يؤكد ـ الان ـ بانه كان من الممكن أن تظل الجزائر فرنسية لو··

والواقع أن هذا العمى السياسى يصعب تفسيره بعامل واحد ، انه وليد عدة عوامل يمكن تلخيصها فيما يلى :

اولا : ان نظرة الفرنسيين الى الجزائر ، ما انفكت منذ الاحتلال فى القرن التاسع عشر ، تخضع لموقف معين من التاريخ ، هو عبارة عن جهل شنيع بتاريخ المنطقة ، ورفض عنيد للتعرف على حقيقة تاريخ المنطقة وحقيقة شعبها ·

فقد استطاع الفرنسيون أن يوهموا أنفسهم بأنهم احتلوا الجزائر كى يطردوا منها الاتراك ، «الذين أخلوا بالامن فى حوض المتوسط» واطلقوا العنان لقراصنتهم ضد دول أروبا وقد استراح الفرنسيون لهذا الوهم الكبير ، فعلى الرغم من الوان المقاومة الشعبية التى اصطدم بها الاستعمار وعلى رغم عديد الحروب التى نظمت ضدهم فى كامل انحاء الجزائر ، فقد فضلوا تجاهل الوجود التاريخى لشعب ، وقدموا تفاسير مختلفة لمقاومته مثل «التعصب الدينى» أو «الوحشية الفكرية» ، أو «عدم القابلية للحضارة» الخ ···

وهكذا استراح الاستعمار لنظرية «لا تاريخية الشعب الجزائرى» ، التى تعتبر أن تاريخ الجزائر (الارض) هو سلسلة من الحروب والاحتلالات الاجنبية تعاقب خلالها الرومان والوندال والبيزنطيون والعرب والاتراك ، ثم الفرنسيون· وقد خلقت هذه النظرية آثارا كتابية عديدة ، تركت ولا شك آثارها فى الذهنية الفرنسية ·

العامل الثانى : هو أن الاستعمار بطبعه ، يرفض الرؤية السليمة للتاريخ ، لان هذه تؤدى الى الاعتراف بوجود كيان المستعمر (بالفتح) وبالتالى تفتح المجال لمحاورته ، وهذا ما يتنافى مع طبيعة الاستعمار المباشر الذى يستمد وجوده من تجاهل الاخرين وانكار حق الحياة على غيره من الكيانات ·

ولا شك أن هذا الموقف الاساسى قد ترجم عن نفسه فى الواقع ، كتابات وسلوكا واتجاها طبعت اجيالا من فرنسيى الجزائر ، وفئات واسعة من فرنسيى «المتروبول» ·

العامل الثالث : ان الفرنسى بصفة عامة ، وفرنسى المستعمرات بصفة خاصة ، نرجسى النظرة لنفسه، معجب بذاته ، هائم بكيانه ، لا يتصور أنه يمكن أن يوجد شعب أعرق منه أو يمكن أن يساويه مؤهلات حضارية ·

وانطلاقا من هذه النرجسية ، يسعى الفرنسى الى فرض الفرنسة على الاخرين ، بل ويعتبر ذلك تفضلا منه وكرما . ولا يستطيع أن يهضم ، كيف تـرفض الفرنسة ، وكيف يسمح هـؤلاء «البيكو» لانفسهم برفض «الشرف الكبير» الذى اتاحته لهم «فرنسا السخية» .

ولسنا فى حاجة الى الكشف عـن النفـاق الكامن وراء هذا الموقف ، لان الذى يعنينا هنا هو تفسيـر العمى السياسى والعلمى الذى تميـزت وتتميز به كتابات فرنسية عديدة .

العامل الرابع : الصراع السياسى والاجتماعى بفرنسا اليوم ، يدفع مراكز القوى المتصارعة الى تقديم تبريرات أو تفسيرات ردا على هجوم هـذه الجهة او تلك . وغير خاف ان «خسارة الجزائر» أو «التفريط فيها» (الوصف يختلف باختلاف موقع المهاجم من الخريطة السياسية الفرنسية) يعتبر من المواضيع الحساسة التى لا تتردد هذه الجهة أو تلك فى استعمالها لتعزيز موقعهـا والنيـل مـن الموقع المضاد .

العامل الخامس : رفض الهزيمة . ذلك ان الاستعمـاريين الفـرنسيين يرفضون الاعتـراف بالهزيمة ، فاذا كانت الجزائر تتمتع باستقلال ، فالسبب يـرجع الى «ضعف النظام الديغولى» و «تفريطـه فى الجـزائر» . أو الى «وجود مؤامرة عالمية ساهمت فيها كـل من الولايات الامـريكية المتحدة والاتحاد السوفياتى» أو بفعل «الطابور الخـامس» الذى يعنى عندهـم رجـال اليسـار والمتعاطفين مع كفاح الشعب الجزائرى . وهـذا المظهر من مظاهر الرفض للهزيمة ، تجده عنـد طوائف اليمين المتطرف .

وهنـاك مظهر آخـر لرفض الهزيمة ، هـو عبارة عن نوع من «خيبة الامل» ، نجده عند عينات مختلفة من اليسار ، فمعظم ممثلى اليسار بفرنسا أعطوا لحرب التحرير الجزائرية تفسيرات مغرية لكنها فى الواقع غير صحيحة تماما ، لانها تتبـع من استقراء الاوضاع الاروبية ، اكثر مما تعتمد على التطور التاريخى لبلادنا .

يضاف الى ذلك أن عدة عناصر من ممثلى اليسار ، قد توهموا أنهم وجدوا ضالتهم المثلـى فى حرب الجزائـر ، أى أنهـم تصوروا أنهـم ، مقابل الدعـم الذى يولونه للثـورة الجزائرية ، سيكون فى امكانهم التاثير عليها ، وتحقيق الكثير مما كانوا يحلمون به عبـرها .

لكـن تطـور الثورة الجزائرية ، خـارج الوصاية اليسارية الفرنسية أوجـد عند معظـم اليساريين نوعا منخيبة الامل وخلفشيئا منالمرارة وهذا ما يفسر ذلك الاتجاه الى اصـدار كتابات ودراسات غير موضوعية عن الجزائر .

وهذا الوضع هو ما يفسر ، التلاقى أحيانا، بيـن طوائف اليميـن واليسـار ، ضـد الثـورة الجزائرية رغم اختلاف المواقع التى تنطلق منها .

سادسا : ان الفرنسيين ـ والغرب بصفـة عامة ـ كان قد تعود على «الشرعية» التى سنها ووضعها هو ، وهى «شرعية» تستند الى أجهزة سياسية وقانونية ودستورية من صنعه ، تتحكم فى توجيه العقليات والافكار .

فى حين أن الثورة الحقة ، سـواء كـانت بالجزائر أو بفيتنام أو بغيرهما من بلاد العـالم الثالث تعنى الخروج على الهياكـل التى تستنـد

اليها الشرعيــة الغــربية ، وتقتضى استبدالهــا بشرعية أخــرى ٠

لتوضيح هذه النقطة ، نسوق مثالا كان وما يزال موضوع نقاش ومثار مجادلات وصراعات لم تقتصر على ميدان الكلام ٠

موضوع التأميمات مثلا ٠ ان اقدام أى بلد من العالم الثالث على استرجاع ثرواته والتحكم فيها ، يكون مصحوبا عادة بــرد فعل عنيف مــن طرف استعمارى الامس ، مثلما شوهد عند تأميم البترول بالجزائر أو تأميم النحاس بالشيلى ٠

فى هذه الحالة ، تتحرك الاجهزة المختلفة ، التى تعتمد عليها «الشرعية الاستعمارية» لتطالب البلد صاحب الحق فى التأميم ، بتقديم الحساب ٠ ويجد البلــد الذى أمــم شركات استعمارية ظلت طيلة سنوات عديدة تنهب وتستفيد وتحقق تراكما ضخما فى الاربــاح ـ يجد هذا البلد نفســه فى موضع «المتهم» ويطالبونه بدفع ثمن التأميم٠ أى أن المضطهدين هم الذين يطالبون بتقديم الحساب للجـــلاد ٠

ذلك أن الغرب ، ينطلق فى هذه القضية من مبدأ «الشرعية الاستعمارية» أولا ، ويريد ثــانيا أن يخضع عملية التأميم فى البلد المستقل عنــه ، الى نفس القوانين والاساليب الاجرائية المعمــول بهــا فى بلــده ٠

انه يعتبر وجوده السابق «شرعيا» يخولــه استمرار امتلاك الثروات الاقتصادية والتجارية ، والاستقلال عنده ، انما يضع حدا لسيادة سياسية أما الوضع الاقتصادى فيجب أن يستمر على مــا كــان عليــه ٠

فى هذا الاطار ، يعامــل التأميم فى البلــد المستقل عنه ، نفس معاملته للتأميمات التى تتــم فوق أرضه ٠ فى حــين أن التأميم الذى يتــم فى البلاد الغربية يختلف منطلقا وغاية ٠ فالتأمــيم فى البلاد الغربية ، عملية تفرضها متطلبات فنيــة واقتصاديــة أولا ، وهى ثانيــا تنــال مؤسسات «وطنيــة» ساهمت مساهمة أساســية فى صنــع الازدهار وتحقيق التصنيع ٠ فالتعويض فى هــذا الاطار ، له ما يبرره ٠

أما البلاد التى عانت من الاستعمار ، فان التأميم يفرضه منطق يختلف كل الاختلاف عــن التأميم فى البلاد الغربية المصنعة : انه يصبــح وسيلــة ضرورية لتحقيق النهوض الاقتصادى ، وفى نفس الوقت الطريقــة الوحيدة لاسترجــاع الثروات الوطنية ووسائل الانتــاج التى تتحكــم فيها مؤسسات رأسمالية أجنبية٠ وهذه المؤسسات ليس فقط لــم تلعب أى دور ايجــابى فى تطويــر البلاد المستعمرة اقتصاديا ، ولكنها على العكس من ذلك كانت عامل نهب للثروات الوطنية ، لانها كانت تعتبر بلادنا مجرد امتداد جغرافى تعتمده فى تطوير نشاطاتها وتنميــة حجمهــا واسترداد أرباح ضخمة يتم تحويلها الى «الوطن الام» ٠

بــل أن المسؤوليــة الكبيرة التى تتحملهــا الرأسمالية الغربية فى هذا المجال ، لا تتوقف عند حدود النتائج التى تؤدى اليها هذه المقارنة بيــن طبيعة نشاطها فى بلدها الاصلى وطبيعة نشاطها فى المستعمرات ، لان هذيــن الوجهين المختلفيــن للرأسمالية ، بناء وتنمية وتصنيعا هناك ، وتفقيرا واستغلالا ونهبــا هنــا ، يفسران الى حــد كبــير ظاهــرة «التخلف» ، التى هــى ، نتيجــة لذلك ، ظاهرة حديثة لم يعرفها العالم من قبل فى تاريخه الطويل ٠

تلك أهم العوامل التى تفسر اتجاه الكتابات المعاصرة فى فرنسا الى تشويه الحقائق التاريخية المتصلة بتاريخ الجزائر وبتاريخ الثورة الجزائرية واذا كانت عملية التشويه ، تتم الان ، على مرأى ومسمع من الجيل الذى اضطلع بثورة نوفمبر ، والجزائر مستقلة ، وثورتها تزداد تجذيرا ، فاننا نستطيع أن نستنتج من ذلك مدى التشويه الذى تعرض له تاريخنا خلال الاستعمار ·

والواقع انه بالنسبة للكتابات الغربية ، والفرنسية بصفة خاصة ، التى تناولت تاريخنا خلال الاستعمار ، نجد أن هناك عوامل أخرى دفعت مؤرخين غربيين الى تشويه الحقائق التاريخية ، يمكن حوصلتها فى ثلاثة عوامل أساسية :

١ ـ معظم الكتابات التاريخية ، عن الجزائر بأقلام فرنسية ، صدرت بعد الاحتلال الفرنسى للجزائر فى ١٨٣٠ · وكثير من هذه الكتابات صدرت فى نطاق خدمة الاستعمار ·

يقول ستيفان غزيل فى مقدمة كتاب تاريخ الجزائر ومؤرخوها»

يسطر التاريخ لنا واجباتنا أيضا · (أى بالنسبة للجزائر)، وهى تتمثل فى ارادتنا المصممة على أن نكون أسيادا فى كل مكان والى الابد ، وفى ضرورة اقامة اعمار يستند الى اسكان أروبى قوى فى الريف ، كما يتمثل فى ضرورة تقريب السكان منا ، رغبة وأملا فى تحقيق انصهار على مدى قريب أو بعيد ، ان هذا التاريخ اذن «لا يعتبر فى افريقيا ، هو اقل العلوم جدوى» (١) فستيفان غزيل الذى كان من مؤسسى الدراسات التاريخية الفرنسية بالجزائر ، صريح فى أخضاع علم التاريخ لمتطلبات الاستعمار · ونتأكد من وجود هذا الاتجاه عنده ، من خلال تحليل الجملة الاخيرة من الفقرة التى أوردناها ، فهو قد أحجم عن مناقشة الرأى القائل بأن «التاريخ هو اقل العلوم جدوى» من حيث هو واقتصر على مناقشته فيما يتعلق بتطبيق هذا الرأى على تاريخ المغرب العربى ، انه واضح فى تحميل التاريخ مسؤولية محددة ذات علاقة مباشرة بخدمة الاستعمار والمنطق الذىيتحكم فى هذا الاتجاه ، هو منطق تبرير الاستعمار · لان ازاحة الستار عن حقيقة تاريخ الجزائر والمغرب العربى ، يعنى نسف احدى الدعائم المعنوية الاساسية التى كان يستند اليها الاستعمار الفرنسى ·

فقد كان هذا الاستعمار فى حاجة الى القول بعدم قابلية الجزائر لان تشكل شعبا أو أمة ، مثلما كان فى حاجة الى انكار أى وجود سابق للجزائر كدولة ·

لقد كان فى حاجة لذلك كى يقر هذه الفكرة، عند أروبى الجزائر حتى يكونوا أشد اطمئنانا الى وجودهم بالجزائر وأكثر ثقة فى مستقبلهم بها · وكان فى حاجة الى ذلك أيضا كى يخلق الشك عند الجزائريين ·

فانكار أى وجود تاريخى للجزائر ، دولة أو أمة ، يهدف الى تحقيق هذا الهدف المزدوج : ضمان تكوين فكرى وعقائدى معين لدى أوربى الجزائر ، وزعزعة المعلومات التاريخية عند الجزائريين وتشكيكهم فى تاريخهم ·

وقد اكتست عملية التشكيك ، تشكيك الجزائريين فى تاريخهم ، طابعا خطيرا ، فزيادة

(١) ستيفان غزيل وآخرون

عن تحريف معلومات الكتب المدرسية التى تتصل بتاريخ الجزائر بصفة خاصة وتاريخ العرب والاسلام بصفة عامة ، نجد أن المعلمين الفرنسيين كانوا يروجون خرافات واهية ، تهدف الى دفع الطفل الجزائرى الى القرف من تاريخه وتهيئته نفسيا لان يتقبل الذوبان فى الاستعمار الفرنسى ، ويقبل به قضاء وقدرا لا مندوحة عنه ٠

عديدون هم الجزائريون ، الذين سمعوا فى المدارس الفرنسية ، تلك الصورة التاريخية التى تقول ان سكان الجزائر باعوا مدينتهم مقابل «قصعة زلابية» اعطاها لهم الفرنسيون ٠ وقد كان الكتاب المدرسى الذى يشتمل على هذه الخرافة ، مصحوبا برسوم موضحة ، تبين عددا من الجزائريين تحلقوا حول قصعة زلابية ٠

ان امثال هذه الخرافات ، تصبح مع طول الزمن ، حقيقة مسلما بها فى أوساط الاوروبيين خصوصا اذا عرفنا المستوى الثقافى السطحى الذى كان يطبع اغلبية الفئات الاستعمارية ٠

١ ـ العسكريون والاداريون الفرنسيون هم الذين وضعوا المواد الاولية لكتابة تاريخ الجزائر فى الادب الفرنسى ٠ وفى ذلك ما لا يخفى من تحيز يتنافى مع كل موضوعية ٠ فالعسكرى أو الادارى الفرنسى ، يعتبر كتاباته امتدادا لعمله فى الميدان ، وعمله الاساسى هو الحرب ضد الجزائر وضد كيان شعبها ٠

يضاف الى ذلك أن الفرنسيين بصفة عامة عسكريين كانوا أو اداريين أو غير ذلك ، نظروا الى تاريخ الجزائر من زاوية فرنسية ، فكانت كتاباتهم فى الحقيقة تاريخا للاستعمار الفرنسى من وجهة نظر فرنسية ، ولم تكن تاريخا للجزائر٠

صحيح أن عددا كبيرا من المؤرخين الفرنسيين قد تناولوا بالبحث تاريخ الجزائر قبل الاحتلال الفرنسى ، لكن هذا التناول كان لا يخلو من احد المآخذ التالية :

أ ـ محاولة تشويه الماضى لا يجاد مبرر ـ قبل الابان ـ للاستعمار الفرنسى الذى جاء بعد ذلك٠

ب ـ التركيز على عهود ما قبل التاريخ وعلى العهد الرومانى ، واهمال العصر الاسلامى ٠

جـ ـ اهمال أو تجاهل المصادر المحلية ، والعربية لتاريخ الجزائر ٠ والنتيجة العملية لكل من المآخذ الثلاث المذكورة ، هى وجود تعريف ما ، متعمدا كان أن غير مقصود ، يقلل من اهمية فترات الاستقلال وعصور السيادة التى عرفتها بلادنا ، قديما وخلال العصور الوسطى ومع مطالع العصر الحديث ٠

٣ ـ يطبق المؤرخون الفرنسيون فى معالجة تاريخ الجزائر والمغرب العربى ، مناهج للبحث والتقييم ، ضبطت فى نطاق أروبى، لمعالجة التاريخ الاروبى ، ومن المعروف أن الاطوار التى مرت بها شعوب أروبا ، تختلف عن الاطوار التى مرت بها الشعوب العربية ، الاسلامية ٠

ومن هنا تاتى معظم الكتابات الفرنسية عن تاريخ الجزائر مطبوعة بهذا الطابع الذى يحكم عليها من الاساس : فالموازين والقواعد التى يقع الاحتكام اليها عادة ، وهى موازين وقواعد استنبطت من التاريخ الاروبى ، تجعل من يتناول تاريخ الجزائر من الفرنسيين يعمد الى الحكم على تاريخنا بالنسبة لشىء ما ، ولا شك أن تحكيم مثل هذه النسبية المفرطة ، ومثل هذه المقارنة غير الواردة ، لا يمكن الا أن يعطى نتائج غير صحيحة علميا ٠

بل ان هناك مؤرخين فرنسيين قد استغلوا وجود الاستعمار الرومانى فى الماضى ، فارادوا أن يربطوا بينه وبين الاستعمار الفرنسى ، وأن يقفزوا من فوق خمسة عشر قرنا من الزمان ، وصولا الى نتيجة معينة وهى أن الوضع الطبيعى للجزائر هو وجودها فى نطاق أروبى ، وفى حكم التابع .

فستيفان غزيل لا يتردد فى التأكيد على أن الجزائر هى :

«جزء اقتطع تعسفا من افريقيا الشمالية» (١)

ويردد وليام مارسى صدى هذه الفكرة ، عندما يكتب مشيرا الى الفتح العربى الاسلامى والى العهد التركى :

«.. فى كلتا الحالتين ، غزا المشرق هذا الجزء من الغرب» (٢)

تلك فى رأينا بعض العوامل الاساسية التى تحكمت فى توجيه كتابات فرنسية عديدة توجيها مغلوطا ، وتجعلها تسهم ، عن وعى أو بغير قصد ، فى تشويه تاريخ الجزائر القديم والحديث والمعاصر .

وسوف نتبين فى بحث قادم ، من خلال نماذج مختلفة ، حقيقة هذا التشويه ، الذى شمل كل العصور التاريخية فى بلادنا .

---

(١) المصدر السابق ص ٢

(٢) نفسه ص ١٣٩ .

المجلة التاريخية المغربية

انه لمن دواعى سرورنا أن نعلمكم بانشاء مجلة جديـدة تتناول تاريخ المغرب العربى الحديث والمعاصر وتحمل العنوان التالى : **المجلة التاريخية المغربية** .

والواقع أن مجلة بهذا الاختصاص عن تاريخ المغرب العربى سوف تسد فراغا كبيرا ؛ هاته المجلة التى نود أن تكـون موضع احتكاك حقيقى وفعال لكل المختصين بتاريخ المغرب ، نريد لنفسها أن تكون مجلة علمية بحتة، وسيقوم على تحريرها اساتذة من كلية الآداب والعلوم الانسانية بكل من جامعة تونس والجـزائر والمغـرب الاقصـى ، على أننـا تدعـو أصدقاءنـا غير المغاربة المختصين بتاريخ مغربنا ، الانضمام الينا لنتعاون جميعا ، يحدونا أخلاصنا للعلم وللحقيقة التاريخية المطلقة .

ان الهدف الذى نعمل من اجله ، ونحن الـذين نـؤمن بالحوار البناء المتفتح ، هو تعزيز البحث العلمى وفتح مجالات جديدة للخلق التاريخى والعمل على كتابة تاريخنا بصورة اكثر وعيا وموضوعية وشمولا ، لنساهم من جانبنا فى توعيــة الانسان المغربى الجديد وتغذية تطلعه الى ماضيه وايقاظ ضميره الانسانى حتى يواكب متطلبات العصر ، خصوصا وأن المغرب كان قد عرف طوال عصوره ، ترابطا وتلاحمـا ووحـــدة فى مصيريته التاريخية .

أن اللغات التى نريدها للمجلة هى العربية والفرنسية والانقليزية ؛ غير أننا لضمان نجاعة احتكاك المـؤرخين ذوى الاتجاهات المختلفة بعضهم مع بعض ، ندعو زملائنا الذين يحررون أبحاثهم باللغة العربية ، أن يقدموا لنا موجزا باللغــة الفرنسية اذا أمكنهم ذلك ، واذا تعذر عليهم القيام بذلك ، فاننا نرجو منهم أن يوجزوا لنا ابحاثهم فى صفحة واحدة باللغــة العربية وسنعمل من جهتنـا على ترجمتها الى الفرنسية ، والعكس بالعكس ، كل دراسة بالفرنسية أو الانقليزية سوف ترفق بموجز باللغة العربية .

كما أن هيئة التحرير رأت ضرورة وحتمية الاهتمام بنشر الوثائق التاريخية ، وعليه سوف تخصص المجلة قسما من صفحاتها لنشر الوثائق العربية او الفرنسية والانقليزية .

أما الوثائق بغير هاته اللغات ، فسنعمل على آثبات ترجمتها وهذا من شأنه أن يضفى على المجلة قيمة جديدة ويجعلها أداة عمل لا مناص للباحث والمؤرخ من الاستغناء عنها ، وسوف نركز بالخصوص على المصادر العربية والعثمانية والتى أهملت الى وقت قريب جدا ، ذلك أن واجبنا اليوم هو اثارة الاهتمام لأهمية الوثائق غير الفرنسية لتاريخ مغربنا .

نكتب اليكم لندعوكم الى الانظمام الينا ومشاركتنا عملنا وتعزيز تجربتنا بما توفدوه علينا من دراسـات أو وثائـق أو تحقيقات وغير ذلك . وسنحاول اصدار عدديـن أو ثلاثـة فى السنة وسنوافيكم بنشرياتنا بانتظام .

هذا هو عنواننا المؤقت : الدكتور عبد الجليل التميمى ، 21 شارع سوفيل ، الوردية ، حى الازدهار ـ تونس ؛ على أمل الاتصال بكم واستلام رد منكم ، تقبلوا صديقنا الاستاذ ، أطيب مشاعرنا الودية .

الهيئـة

نظـرة تقييميـة لدراسات تاريخيـة حـديثـة عن حركـات الخـوارج فى المغـرب العـربى فى العصر الاوسط

د٠ الحبيب الجنحانى
استاذ بكلية الآداب
جامعة تونس

تهدف هذه الدراسة المتواضعـة الى خدمـة غرضين اساسيين يؤمن بهما كثير من الباحثـين المغاربة المهتمين بالدراسات التاريخية والآثارية اليـوم :

أولا ـ العمـل على بعث مدرسـة تاريخيـة مغربية لها مميزاتها ، ورؤيتها الحضارية الخاصة كمـا هـو الشـان بالنسبـة لكثير مـن المدارس التاريخية المعروفة اليوم فى العالم ٠

هذا نص موجز للدراسة التى قدمت لندوة تاريخ المغرب العربى المنعقدة بالمركـز الثقافى الدولى فى الحمامات بالجمهورية التونسية من ٢٥ الى ٢٧ ماى ١٩٧٣ ٠ وسننشر الدراسة كاملة فى عدد قادم ٠

ثانيا ـ نعتقد أن الخطوة الاولى فى بناء هذه المدرسة تتمثل فى تقييم الدراسات التى ألفت عن عصر من العصور ، أو مسألة معينة فى تاريخ المغرب العربى .

وتعد حركات الخوارج ـ دون ريب ـ حلقة أساسية فى تاريخ المغرب الوسيط ، لما كان لها من نتائج خطيرة فى تطور أحداث المغرب خلال فترات طويلة .

وسوف تبقى كثير من الاسئلة بدون جواب مالم يتمكن الباحثون من الاجابة عن كثير من نقاط الاستفهام حول ثورات الخوارج ، وحياة مجتمعاتهم بالمغرب . ونلاحظ ، بادىء ذى بدء ، ان الجوانب التى تهمنا فى حركات الخوارج المغربية هى الجوانب التاريخية الحضارية بالدرجة الاولى ، أما الاصول المذهبية فنهتم بها بقدر ما تنير لنا المسائل التاريخية ، والاحداث السياسية فى حياة الحركة ، وتطورها .

ان المصادر والمراجع عن تاريخ الخوارج فى بلاد المغرب قسمان :

ـ قسم قديم معروف ، ونعنى هنا كتب التاريخ، والسير ، ومصادر المذهب الفقهية ، وغيرها .

ـ وقسم الدراسات الحديثة ، وهى موضوع هذه المحاولة التقييمية ، وقد بدأت تظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ونستطيع تقسيمها الى :

ـ دراسات ايتنوغرافية وبيوغرافية .

ـ دراسات جغرافية بشرية (١)

ـ دراسات معمارية ، وهى قليلة (٢)

ـ دراسات اقتصادية واجتماعية ، وهى نادرة .

وسنقف فى هذه النظرة التقييمية لدى الدراسات التاريخية ، وهى نفسها قليلة بالنسبة للبحوث ذات الطابع الاتنولوجى ، او العقائدى .

ونذكر هنا أهم الدارسين الاجانب قبل تقييم بعض أعمالهم :

— Pency Badguen ترجم كتاب كشف الغمة لمؤلف مجهول ، استخرج من كتابه تاريخ أيمة عمان

— Emile Masqueray

ترجم القسم الاهم من كتاب «السيرة وأخبار الايمة» لابى زكريا مع تعاليق مفيدة ، الجزائر ١٨٧٨ .

— Motylinski : Bibliographie du Mzab. Bulletin de correspondance Africaine.

الجزائر ، ١٨٨٥ ، ج ٣

— Motylinski : Le Djebel Nefousa.

ترجمة نص من البربرية الى الفرنسية مع التعليق عليه ، باريس ١٨٩٨ م .

وقد كان Motylinski مترجما عسكريا فى مزاب ، ويقول فى بداية مقاله Bibliographie du Mzab

انه منذ احتلال مزاب سمى فيها ، واخذ يهتم بالاباضية ويقول : ان دراسة مخطوطات الاباضيين هامة لمعرفة جنس البربر ، ومعرفة شمال افريقيا .

— René Basset : Les sanctuaires du Djebel Nefousa, Journal Asiatique.

ماى ــ جوان ، ١٨٩٩ ، جويلية ــ أوت من نفس السنة .

ودراسة بيليوغرافية كتبها المستشرق الالمانى شاخت بعنوان :

— Bibliothèques et manuscrits abâdites, R. A. 1956

الجزائر ، ١٩٥٦

ونلمح الى دراسات ثانوية قام بها المستشرقان الالمانيان Sachac و Strothman والى اعمال «La Rosa» فى ايطاليا .

ونذكر الدراسة الفقهية القيمة التالية :

— Marcel MERCIER : Etude sur le waqf abâdite et ses applications au Mzab, 1927. الجزائر

ولا ننسى اعمال المستشرق البولونى «زيقمونت سموقور سفسكى» (Zygmunt Smogorzewski) بالرغم من انه لم يتمكن من نشر كثير من البحوث، ولكنه جمع مجموعة ذات قيمة من المخطوطات الاباضية فى مكتبة جامعة «لفوف» وتخرج اشهر مختص فى شؤون الاباضية فى المغرب اليوم المستشرق البولونى الاستاذ «تادوش ليفسكى» T. Lewicki

ونشير هنا الى اهم ما نشره ، زيادة عن مقالاته فى دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الجديدة

— Les subdivisions de l'Ibâdyya, Studia Islamica, Fasc. 9/1958.

— Ilâditica, Rocgnik Orientalis lycgny.

ج ٢٥ ، العدد الثانى .

— La répartition géographique des groupements ibâdites dans l'Afrique du Nord au Moyen-Age. 1957 - 21. ج ٢١ ــ ١٩٥٧ نفس المجلة

— Notice sur la chronique ibâdite d'ad-dangini.

نفس المجلة .

— Un royaume ibâdite peu connu : l'Etat des Banu Marâla (IX[e] siècle).

نفس المجلة ج ١٢ العدد الثانى ١٩٦٨

— Un document ibâdite inédit sur l'émigration des Nafusa du Gabal dans le Sahel Tunisien au III[e] IX[e] siècle.

— Les historiens, biographiques et traditionnistes ibâdites - wahbites de l'Afrique du Nord du VIII[e] au XVI[e] siècle. Krakow, 1962.

— Les Ibâdites en Tunisie au Moyen-âge. روما ١٩٥٨

— Le pays de Guguaf, Bruxelles, 1970.

— Etudes ibâdites nord-africaines, 1955. فرصوفيا

— Quelques textes, revue des Etudes Islamiques, 1934.

عدد٣

— Une chronique ibâdite. «Kitab as-Siyar». Revue des études Islamiques, 1936, cahier III (3). للشماخى

* *

اما دراسات الباحثين العرب فى المشرق والمغرب فهى قليلة ، واهمها :

ــ أطروحة الاستاذ د. ابراهيم فخار ، عميد كلية الآداب بجامعة قسنطينة (٤)

ــ خصص الاستاذ د. سعد زغلول عبد الحميد فى كتابه «تاريخ المغرب العربى» (القاهرة ١٩٦٥) فصولا قيمة لحركات الخوارج فى المغرب .

ــ اطروحة د. محمود اسماعيل عبد الرزاق عن «الخوارج فى بلاد المغرب» (٥) .

ــ وتعرض كل من الاستاذين د. محمد الطالبى فى أطروحته عن امارة الاغالبة ، و د. فرحات

الدشراوى فى اطروحته عن الفاطميين بافريقية الى الخوارج فى المغرب بصفة هامشية(٦) ·

* *

ان جوانب التقييم متعددة ، ولكننى سأقتصر على ذكر نقطة واحدة تستجيب الى رأينا فى ضرورة اعادة التقييم والنظرة لبعث مدرسة تاريخية مغربية ذات رؤية جديدة ، وتتصل بتفسير أسباب هذه الحركات والعوامل التى جعلت الدعوة الخارجية تجد تربة خصبة بين القبائل البربرية بعد اعتناقها الاسلام (٧) ·

ان الدراسات التاريخية الاجنبية ، ولا سيما ما كتبه «قوتيى» Gautier ، و«جوليان» Julien و «ج· مارسى» G. Marçais تركز عن قصد على نقطة حساسة ، وهى أن ثورات الخوارج فى المغرب هى رد فعل من السكان الاصليين ، البربر ضد العرب الفاتحين الذين هم دخلاء على البلاد ، فهى عنصرية جنسية بربرية ضد العنصر العربى الدخيل ، وهى فكرة خاطئة هدفت الى محاولة اثبات رفض السكان الاصليين ، وقد أسلموا ، وحسن اسلامهم ، للعرب الاجانب عن البلاد ، ونلاحظ ان الحديث هنا عن ثورات الخوارج التى اندلعت لاول مرة سنة ١٢٢ هـ ، وليس عن مقاومة القبائل البربرية للجيوش العربية أثناء فترة الفتح ·

ولكننا نرى ان ثورات البربر ، واعتناقهم لمذهب الخوارج تكمن وراءها أسباب سياسية واجتماعية ، فهى أبعد عن أن تكون عنصرية بربرية ضد عنصرية عربية ، وان برز هذا الجانب فيما بعد ·

ولكنه برز بصفة عرضية ، وليس له اتصال بالاسباب التاريخية التى جعلت الدعوة تجد تربة خصبة بين البربر المسلمين فى المغرب بصفة خاصة ·

وهنا نترك النصوص القديمة نفسها توضح هذه الاسباب ·

يقول ابن الاثير فى كتابه «الكامل فى التاريخ» (ج ٣ ، ص ٩٢ ـ ٩٣) :

«ثم لم يزل أهل افريقية من أطوع أهل البلدان واسمعهم الى زمان هشام بن عبد الملك حتى دب اليهم أهل العراق واستثاروهم فشقوا العصا ، وفرقوا بينهم الى اليوم ، وكانوا يقولون : لا نخالف الائمة بما تجنى العمال ، فقالوا لهم : انما يعمل هؤلاء بأمر أولئك، فقالوا : حتى نخبرهم فخرج ميسرة فى بضعة وعشرين رجلا فقدموا على هشام فلم يؤذن لهم ، فدخلوا على الابرش فقالوا : ابلغ أمير المؤمنين ان اميرنا يغزو بنا فاذا غنمنا نفلهم ، ويقول : هذا أخلص لجهادنا ، واذا حاصرنا مدينة قدمنا وأخرهم ، ويقول : هذا ازدياد فى الاجر ، ومثلنا كفى اخوانه ، ثم انهم عمدوا الى ماشيتنا فجعلوا يبقرون بطونها عن سخالها ويطلبون الفراء البيض لامير المؤمنين فيقتلون ألف شاة فى جلد ، فاحتملنا ذلك ، ثم انهم ساموا ان يأخذوا كل جميلة من بناتنا ، فقلنا لن نجد هذا فى الكتاب ولا السنة ونحن المسلمون فاحببنا ان نعلم : أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا ؟ فطال عليهم المقام ونفدت نفقاتهم ، فكتبوا أسماءهم ودفعوها الى وزرائه وقالوا : ان سأل عنا أمير المؤمنين فأخبروه ، ثم رجعوا الى افريقية فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على افريقية ، وبلغ الخبر هشاما فسأل عن النفر فعرف أسماءهم فاذا هم الذين صنعو ذلك» ·

ويقول ابن عذارى فى «البيان المغرب» (ج ١ ص ٥٢) :

« ثم أن عمر بن عبد الله المرادى ، عامل طنجة وما والاها ، أساء السيرة وتعدى فى الصدقات والعشر ، وأراد تخميس البربر ، وزعم أنهم فىء المسلمين ، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله ، وانما كان الولاة يخمسون من لم يجب للاسلام ، فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية الى كثير القتل فى العباد نعوذ بالله من الظلم الذى هو وبال على أهله » .

* *

ان هذه النصوص التاريخية تبين فى جلاء أن ثورات الخوارج المعتمدة على العصبية القبلية البربرية كانت رد فعل ضد تصرف ممثلى الحكم المركزى فى دمشق اولا ، ثم فى بغداد ثانيا ، وضد معاملة أبعد ما تكون عن المبادىء الاسلامية التى اعتنقها البربر ، وآمنوا بها ايمانا عميقا ابتداء من بداية القرن الثانى للهجرة .

انه من الغريب – اذن – أن نفسر حركات الخوارج بعد هذه النصوص الواضحة بأنها حركات ضد العنصر العربى الدخيل كما حاول الايهام بذلك بعض المؤرخين الفرنسيين ذوى النزعة الاستعمارية .

هذا نموذج من نماذج كثيرة تجعل الباحثين المغاربة يفكرون فى اعادة التمحيص والنظر ، اعتمادا على المصادر الاصلية ، واستنادا الى المنهجية العلمية الحديثة فى الدراسات التاريخية فى كل ما كتب عن المغرب العربى منذ القرن التاسع عشر ، وهى اللبنة الضرورية الاولى لبعث المدرسة التاريخية المغربية .

التعليقات

١) نذكر على سبيل المثال : Despois

— Le Djebel Nefousa.

٢) أهمها

— Le Djebel Ousselat.

G. MARÇAIS et A. DASSUS — LAMAR : Recherches d'archéologie musulmane : T. HIRT, in R. A., 1946.

٣) ان الدراسات الاجنبية ذات الطابع التاريخى البحث ، فهى قليلة جدا لا تتجاوز فصولا كتبها كل من T. Lewiski, G. Marçais, Julien, Gautier : R. Idris.

٤) هذه الاطروحة لم تنشر لحد الآن – حسب علمنا – ، ولم نتمكن من الحصول على نسخة مرقونة منها .

٥) لم تنشر بعد .

٦) نلاحظ أن بحوث الدراسين العرب عن تاريخ حركات الخوارج المغربية ما تزال قليلة بالرغم من أهمية هذه الحركات ، ونتائجها التاريخية .

٧) نلاحظ للقارىء الكريم من جديد أن هذا النص هو اختصار للدراسة الكاملة ، ولهذا اقتصر فى التقييم على ذكر فكرة رئيسية واحدة .

المؤرخون الفرنسيّون والجزائر في العصر العثماني

مولاي بالحميسي

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

ما اكثر ما كتب الباحثون ان تاريخ الجزائر التركية مكتوب انطلاقا من مصادر أوربية وفى نظر بعضهم أن تاريخ الجزائر من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر ـ خلافا لتاريخ العصر الوسيط المغربى ـ يجب أن يدرس ـ بصفة رئيسية من خلال ما رواه مراقبون غربيون وبواسطة وثائق تاريخية (أرشيفات) وقد انتقل المغرب الاوسط ـ الذى يسمى بالجزائر فيما بعد ـ الى مرحلة جديدة من تاريخه ٠ وصارت الجزائر من ممتلكات العثمانيين طوال ثلاثة قرون٠ وذلك اثر غارات الاسبان ضد المدن الساحلية الرئيسية (المرسى الكبير ـ وهران وبجاية) ٠

واصبح التركى هو العدو الالد للاسبان · فان تدخله ضد المغاربة عن الخضوع للقوانين الكاثوليكية وصارت للجزائر ، منذ ذلك الحين ، حكومة مركزية فى مدينة الجزائر وادارة اقليمية وتخوم فى الشرق والغرب وأسطول حربى وأصبح للجزائر بصفة خاصة أهمية بالغة فى العلاقات الدولية وتزايدت المعارك بينها وبين أوربا ·

وحيرت هذه الحقبة التركية أوربا وأثارت ـ لا سيما عند الاسبان ـ اهتماما متزايدا · وكانت من بين الحقب التى أسالت كثيرا من الحبر فى اسبانيا وفرنسا وايطاليا وفى غيرها من البلدان ·

وفعلا قد أتاحت الحروب والتجارة والتجسس والدبلوماسية وافتداء الاسرى وحب المغامرات لسكان الضفة الاخرى من البحر المتوسط فرصا عديدة للتعرف على المغرب الاوسط أو التأليف فى تاريخه وتفصيل الكلام عن حادثة أو أخرى من الحوادث التى وقعت فيه ·

ولاجل ذلك كانت الآداب والعلوم الاجتماعية والسياسية جد كثيرة وجد متنوعة ·

سنقتصر فى هذه الدراسة الموجزة على المصادر الفرنسية

* * *

والى جانب تصانيف وصفية (١) وكتب جغرافية عامة واقليمية للبلاد ، وأدلة عامة وأدلة طرق ومسالك ورحلات برية وبحرية ووصف أقطار اجتازها الكتاب ومدن زاروها وأخلاق وعادات للسكان · يجب اضافة بحوث فى التاريخ العام (٢) تاريخ فترة من الفترات وذكريات **وكتب فى دراسات خاصة (٣) وتراجم (٤) ولنشر أيضا الى الدراسات** حول السياسة الجزائرية فى هذه الحقبة قد عرض فيها عدة مشاكل : مثل التنظيم الادارى (٥) **نظام الحكم التركى (٦) التعمير ، والدين (٧) الطرق الصوفية ، والقبائل** (٨) اليهود (٩) والنصارى فى الجزائر والعلاقات مع الدول الاجنبية (١٠) ·

وهذا الترتيب للكتب وقع وفقا لموضوعاتها الرئيسية ولكن الكتب التى ألفت عن الجزائر لم تنحصر فى أغلب الاحيان داخل نطاق الموضوع المحدد لها تحديدا دقيقا ·

القيمة الاخبارية لهذه المؤلفات :

وهذه العروض ـ على الرغم من النقص الكثير والاحكام المسبقة الخطيرة التى تشتمل عليها والتى نتعرض لذكرها فيما بعد ـ لاغنى لتاريخ بلدنا عنها لان المصادر الاسلامية فيما يخص هذه الحقبة نادرة وذات رديئة غالبا (١١) فالمصادر التركية التى كانت محط آمال كبار لا تتخطى القرن السابع عشر ·

والمصادر التى يرجى منها أن تهدى المؤرخ ترقى الى القرن الثامن عشر فحسب · وان جزءا من الوثائق التركية المحفوظة (أرشيف) نشر فى تونس واصطنبول والبندقية · وقد نشرت وثائق تركية خاصة بافريقية الشمالية فى كتاب عزيز سميح التر : «الترك فى افريقية الشمالية(١٢)»وفى المقالات النادرة التى نشرتها مجلة جمعية تاريخ الترك ـ نشرة ـ وتشتمل فى أساسها على سجلات محاسبية ترجع الى ما بعد سنة ١٦٥٠ · واستبطان محتوياتها لا يلقى ضوءا جديدا على حوادث وحياة المغرب الاوسط لان الجندى والضابط من الاوجاق لم يهتما اهتماما ذا خطر بسبب عدم مبالاتهما وأميتهما بتخليد ذكر الحوادث التى شاركا فيها ·

امـا المصادر العربية المعروفـة حتى الآن لا تصلح كأساس لدراسة الحقبة التى تهمنـا · فالنصوص نادرة وقليلة القيمة غالبا (١٣) والفنون القريبة من التاريخ نزحت الى تونس وفاس فور وصول الاتراك الى المغرب الاوسط ·

وفـ نتدوين حوادث التاريخ لم يكن موجودا فى الجزائر فى هذه الحقبة لانه يزدهر فعـلا فى حماية الدول فقد اتفق عرش بنى زيان أشرف على الانهيار فى مطلـع القرن بينمـا ـ بعكس ذلك ـ مزدهرا فى تونس وفـاس (١٤) ذلك مـا يزودنا أحيانا ـ ولا سيما بصفة غير مباشرة ـ بمعلومات عن طائفة من حوادث المغرب الاوسط ·

والدراسات التاريخيـة المتخصصة ينبغى أن تقـرأ بحذر لانهـا حررت فى أغلب الاحيـان لجاملة الامـــراء الحفصيين أو السعديين الذين كانوا طبعا معادين لاتراك الجزائر ·

والرحلات الثرية بتراجم الاولياء جد ضنينة بأى خبر عن حالة البلاد · ودونت على أى حـال بزمن طويل بعد النصف الاول من القرن السادس عشر (١٥) ولكن ادب التراجم يسمو على ركـام الاثار الادبية فى المغرب الاوسط على أن ازدهاره فى المغرب الاوسط يقل بكثير عن ازدهاره فـى المغرب (١٦) ونحن وان اطلعنا على حياة طائفة مـن المتصوفة المدرسين أو الشـراح فى القـرن السادس عشر نبقى ـ بعكس ذلك ـ جاهلين لحياة الرجال الذين أسهموا فى الحياة السياسية للبلاد وكان الحكام الاتراك أزهد الناس بالايعاز بتدوين مآثرهم · والتاريخ الصرف بمثله ـ هـو ايضـا من بين آثـار المـؤلفين المسلمين فى بلاد البـربر ابتداء من القرن السابع عشر ـ طـائفة التآليف لم تخل تماماً من كل قيمة ولكننا لم نعد نجد فيها سمو النظر الذى نجده عند المؤرخين الكبار فـى العهد الوسيط وبصفة خاصة عند أكبرهم جميعـا ابن خلدون · ومؤرخو العصور الحديثة والتاريخ المعاصر يحملون طابع البيئة التى عاشوا فيهـا · فقد قام لديهم كره غير المسلم الذى يشفعون ذكـر اسمه باللعن أو بوصف يشعر بالاحتقار مقـام التسامح النسبى لدى مؤرخى العهد الوسيط (١٧)

وهكذا يعكس هؤلاء الكتاب عقلية عصرهم ويقدمون لنا ما يؤيد هذا التحول الكبير (١٨) وقد احتلت الدراسات الدينية ـ منذ بداية العصـور الحديثة ـ منزلة مرموقة فى قلوب سكان المغرب ـ « فباستثنـاء الفنون التى يستعان بهـا على فهم الدروس الدينية مثل النحو واللغة العربية اللذين لا يتعلم منها فقط الا لقدر الكافى لفهم النصوص الفقهية والدينية ·

وباستثناء علمى البـلاغة والمنطق اللذين ينتفع بهمـا فى خطب الوعـظ والارشـاد وعلـم التوحيد وباستثناء مبادىء الحساب اللازمة لقسم المواريث وعلـم الفلك الذى يهدى لمعرفة أوقـات العبادة وأدائها جميع النشاطات التى لا صلة لها بالدين والشؤون الالهية تهمل على انها لافائدة فيها أو هى صالحة فقط ـ مثل الفلسفة ـ لتشويش الافكـار » (١٩) ·

والمجهود الذى بذله المؤرخون الفرنسيون هو ضخم فى الجملة : البحث يحمل طابع الصبر والاناة · وعلى العمـل ميسم الضبط والاتقـان والتقسيم دقـيق ، وهذه الملاحظات هى المـزايا الجسميـة التى تكتسى بهـا آثـار باحثين مثـل مرسيى Mercier وغرامونت Grammont أو ماسون Masson والتى كـانت ركائـز كتب جديدة فى التاريخ مؤلفة باللغة العربية ·

وكثير من الباحثين اقاموا فى مدينة الجزائر او طافوا خلال البلاد الجزائرية او حدموا فى حاشية البايات والدايات (٢٠) وملاحظاتهم مباشرة ومعلوماتهم التى يجودون بها هى جد نفيسة وكان لطائفة من البحاث بعد سنة ١٨٣٠ الفضل فى تعريب تقارير رسمية واست ثمار كثير من الوثائق الاصيلة المتينة المهمة (٢١) وعنيت طائفة منهم بموضوعات جد تقنية وجد مفيدة (٢٢) ٠

ولكن هذه المزايا لا يمكن ان تنسينا الجانب السلبى فى اغلب هذه الآثار واهمية هذه المصادر وهذه الكتب ـ فيما يخص الحقبة العثمانية ـ هى بعيدة كل البعد عن اجماع الباحثين ٠

فقد كتب رن RINN : « ان الوثائق الجيدة التى تخص العهد التركى قليلة ٠ واذا كان ما ملكه منها هو صادق ومثير للفضول ومفيد فلا يكاد يشتمل على شيء من تاريخ العرب والبربر الذين عاشوا خارج الاوليغارشية حكم المستغلين المسيطرين على البلاد » (٢٣) ٠

عندما نبحث الوثائق المكتوبة فى القرنين الثامن والتاسع عشر لا سيما الفرنسية منها نلاحظ أن أوسع اهتمام فيها قصر فعلا فى عهد «البربرسك» على القرصنة وعلى عمليات التلصص فى عرض البحر وعلى استعباد النصارى وعلى اقامة الاسرى الاوربيين فى مدينة الجزائر ٠ وعلى بؤسهم وشقائهم وعلى أوجاعهم والامهم وعلى افتداء الاسرى وعلى جمعيات الافتداء (٢٤) وعلى حياة التجارة (٢٥) وعلى الرهبان المبشرين بالنصرانية وعلى عدم ثبات اصلهم وعلى دور آباء جمعية الثالوث الاقدس وآباء جمعية القديس لازار رواد الكادرينال لا فيجرى » ٠

والعنوان الذى اختاره الاب « دان لكتابه هوذو مغزى : «**تاريخ بلاد البربر وقراصنتها** » ومملكة ومدن الجزائر وتونس وسلا وطرابلس ، حيث يبحث عن حكومتهم وعن أخلاقهم وقساوتهم وعن لصوصياتهم وأسحارهم وعن كثير من خصائصهم الاخرى اللافتة للنظر » ٠

هذا هو تاليف الاب «دان» حامل البكالوريا فى علم اللاهوت ورئيس « دير الثالوث الاقدس لافتداء الاسرى » (٢٦) ٠ والمؤلف الذى أقام فى مدينة الجزائر بين سنتى ١٦٣٤ م ١٦٣٥ قصر أكبر جزء من كتابه على طريقة تسليح القرصنة وعلى خصائص المرتدين والاعلاج و«على العقوبات والمصائب التى يذيقها الترك والمتوحشون للنصارى الذين يستعبدونهم ويقصر ما بقى من كتابه على الحديث عن جمعية الثالوث الاقدس »٠

والموضوعية ليست هى المزية الكبرى فى هذه التآليف والتفاسير فيها هى غالبا مغرضة والحذف من النص مقصود والمعلومات خاطئة ٠

وهؤلاء الباحثون المنتمون الى مختلف الجمعيات الدينية (٢٧) صنفوا كتبا دعائية وكانوا يهدفون بها الى ترغيب اتباعهم فى العطف على الاسرى لجمع موارد مالية ٠

فالمبالغة والقسوة والرعب هى الاشياء الوحيدة التى تستطيع ان تلين القلوب ٠ وكان نشر هذه التصانيف يسمح باكبر اذاعة لهذه المعلومات الرامية الى تغذية الحقد على المسلمين

لا لارضاء فضول الافكار المتعطشة لمعارف اوسع. ويقع التأثر من المصائب التى يصبها الجزائريون على النصارى لشن حرب صليبية على المسلمين.

والقناصلة الاوربيون (٢٨) الذين كانوا يشغلون مناصبهم فى مدينة الجزائر دونوا ذكرياتهم وقيدوا حوادث ورووا اشياء لها صلة بالمغرب الاوسط .

حتى كانت طائفة منهم شهدوا معاصرين . وكانوا اذن بصفة عامة على خبرة جيدة بمشاكل عدة ومراسلاتهم وتقاريرهم كانت ذخيرة لا تنفد من المعلومات .

ولكن كان تأييدهم فى الجملة للحكام الجدد فى دولة الجزائر ضعيفا فاترا ــ ومن جهة أخرى قد قصرت اقامة عدة من القناصلة على مدن سكانهم . وكانوا لا يسافرون أن بالاحرى كما أقل ما كانوا يسافرون . وكانوا لا يعيرون انتباها خاصا للحياة العميقة فى البلاد .

وفى العاصمة نفسها كان المجتمع الاسلامى سرا مكتوما عنهم . وكانوا يجهلون حياة السكان فى الارياف والحواضر «يشاطرون مواطنيهم فى الاقتناع بالآراء المسبقة وفى نظرهم كان سكان المغرب منبعا للمصائب كلها مخادعين كسالى جشعين منكرين للجميل . وباختصار اجتمعت فيهم كل الرذائل .

والكتب التى ظهرت بعد ١٨٣٠ تكتسى بنزعة أخرى . ولها قيم متفاوتة . اذا كان الباحثون يعتمدون ــ فيما يخص الحقبة الرومانية على المصادر المأذونة فقد راجعوا عن تاريخ العصور العتيقة ذات النصوص لمؤلفين يونان ورومان وان استثمروا فيها يتعلق بالحقبة الاستعمارية عروض وتقارير رسمية ووثائق أخرى فهم حيث اقبلوا على دراسة الحقبة الاسلامية قد واجهوا صعوبات فى تفهم النصوص العربية فى التاريخ أو الجغرافية وحكموا عليها بأنها تكاد تكون كلها دائما «غير دقيقة وتترك حيزا فسيحا للافتراض» وقد ظهرت لهم أسماء الاسر منفرة والحوادث «تحولات مستمرة لتاريخ يتالف ويتفكك باستمرار» (ج . مارسى) .

وما أقل عدد المؤرخين الذين كانوا يقرأون العربية بسهولة ويفهمون دقائقها وصيغ تراكيبها أو صورها . والى جانب اعمال متينة نجد كتبا تهدف الى التعميم الشعبى ولاصلة لها البتة بالتاريخ العلمى (٢٩) بل كانت الغاية منها الحصول على الاعجاب أو كانت كتبا موجزة تحشر كل الحوادث فى تاريخ بلد فى أقل من مائتى صفحة (٣٠) أو كانت أنواعا من القوائم الفهارس تسرد حوادث بدون أى بيان أو تفسير (٣١) .

ويصير هكذا تاريخ الحقبة التركية عبارة عن نظرة موجزة ينتقل منها الباحث بسرعة الى اعتداء ١٨٣٠ (٣٢) .
لنطالع كتاب ل. قاليبرت :

« البلاد الجزائرية القديمة والحديثة » (باريس ١٨٤٤ ، اكثر من ٦٣٩ صفحة) وصف البلاد وتاريخها منذ العصور العتيقة حتى سنة ١٨٣٠ يقفان فى صفحة ٢٤٩ وكل ما بقى من الكتاب مقصور على السيطرة الفرنسية . النزعة الخيالية ونزعت الكلف بالاخبار العجيبة تختلطان بالتاريخ الصرف (٣٣) .

والبحث ــ بعكس ذلك ــ منفر احيانا لان القارىء لا يجد أمامه الاقساوات وانقلابات

وحروبا ممتدة على قرون وسيطرة الكبير على الصغير · لا تقدم ولا حضارة والا اكمال بشرية بناءة · هذه هى الانطباعات عند قراءة كتاب الجنرال فور بيقيت (٣٤) ·

وقد تعرض بايجاز عدة جوانب من الحياة الجزائرية قبل ١٨٣٠ ـ يحاول دويوا فونتانيل (جوزيف قاسبار) أن يعرضها (٣٥) فى ٦٠ صفحة من الجزء الرابع من كتابه ·

وذلك نوع من تاريخ الجزائر فى شكل سرد أحداث يحكم عليها بانها رئيسية منذ القرن السادس عشر ورواية طائفة من النوادر · تعدى الدايات على سلطة الباشاوات الممثلين للسلطان ونقص مواز لسلطة الباب فى مدينة الجزائر واثراء عجيب يحظى به أسير مسكين كان من قبل تعيسا قلما يرتد ويصير قرصانا ثم باشا طرابلس ثم باشا مدينة الجزائر والغارات الرئيسية من قبل الدول الغربية على مدينة الجزائر ·

هذه الثروة وهذا التنوع فى الموضوعات المعالجة يفسرها أن أروبا تكتشف المغرب منذ القرن السادس عشر بسبب حقبة مضطربة ساعدت على وضع المشاريع الضخمة فهناك روح غزو عالمى وعسكرى وتجارى وفكرى يحرك نفوس الاوربيين · فالاسفار البعيدة والاكتشاف لاراض جديدة ولشعوب مجهولة كان لزاما أن يؤدى كل ذلك الى توسيع هائل للبحث التاريخى ، وباستثناء تذوق الاخبار العجيبة والخارقة ، نجد أن الموضوعات الكبيرة فى تاريخ الجزائر قبل ١٨٣٠ هى مآسى الاسر والحملات ضد الاتراك ·

أما أسرى المسلمين الذين أخذوا فى البحر وبيعوا فى « ليفورن » بصفة خاصة فلا يوجد له صدى وأيضا · وكثير من المؤرخين يستولى عليهم التفكير فى قوة الجزائر والرغبة فى ذكر «كهف اللصوص» ويحلمون بشن غارة حاسمة ضد الجزائر ·

وكان التعصب فى نظرهم قوة من قوى الايمان · فهم يحكمون على الاسلام وفق افكار مسلمة لديهم هذا دين عندهم خاطىء ·· فمن جاءوا من أوربا واعتنقوا الاسلام خائنون ··· والردة لا تغتفر حتى اغراء المنفعة لا يمكن أن يعد عذرا لها «لان أكبر خطيئة يرتكبها مسيحى هى العدول عن دينه »

وقد تحددت فى أوربا فى القرن التاسع عشر فقط النقد للمنهجية التاريخية · وان طائفة من الاخصائيين فى تاريخ المغرب بدأوا يجمعون المصادر ويقارنون بعضها ببعض ، ويعرضون أبحاث تركيب ناجحة الى حد ما وهى ـ على ما فيها من نقص وتوجيهات معينة تحدثنا عنها من قبل ـ تعد مشاركة ضرورية لمعرفة ماضينا · ونحن لسنا ملزمين برفض أو قبول كل شيء كتبوه بل ينبغى أن ننتفع بجد من هذه الاعمال التى تستحق طائفة منها ، قليلة مع الاسف أن تعرف لصالح الباحثين ·

تقـاييد ومـراجع

ـ راجع كتاب :

(1) *Ch. Taillard* ; L'Algérie dans la littérature française,essai de bibliographie méthodique et raisonnée jusqu'en 1924, Paris 1925 pp. 79-160.

ـ نذكر من بين الكتب العــامة :

(2) *Bardon* (*X*) ; "Histoire nationale de l'Algérie" (Paris 1886 428 p.)

ـ الباب الاول : تايخ الجزائر العام ، المناخ ، الحيوانات ، السكان، النواحى الادارية ، الدين، الضرائب العوائد ٠

ـ الباب الثانى : الفرنسيون فى الجزائر ٠

ـ !لباب الثالث : مستقبل الجزائر ٠

Berbrugger ; "Les époques militaires de la Grande Kabylie" (Alger 1857).

Cat (*E*) ; "Petite histoire de l'Algérie, Tunisie, Maroc". (Alger 2 V. 1888-1891).

Clausolles (*P*) ; "L'Algérie pittoresque ou histoire de la Régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours..." (Paris 1843 2 V.).

Galibert (*L*) ; L'Algérie ancienne et moderne (Paris 1844) :

من صفحة ١ الى ٢٤٩ : الجزائر من أقدم العصور الى ١٨٣٠ ٠ وخصص ثلثا الكتــاب الى الاحتــلال الفرنسى وتقدم الاستيطان الفرنسى ٠

Garrot (*H*) ; "Histoire générale de l'Algérie" (Alger 1910). (Sorte de répertoire, une compilation...)

Mercier (*E*) ; "Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus rec ulés à la conquête française (1830). (Paris 1888-1890 3V.)

Faure Biguet ; (le général) "Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane" (Paris 1905- 458 p.).

(3) *Peste Maldjoglon* ; Mers Al Kébir, historique et description... (R.A. 1942).

Troussel ; Kalaa des Beni Rached (B.S.G.O. 1927).

Mac Carty ; Constantine.

Leclerc ; Koukou, ancienne capitale de la Kabylie (R.A. 1857).

Féraud ; Documents pour servir à l'histoire de Bône (R.A. T. XVII).

Galland (*Ch. A*) ; Bougie 1895.

Féraud (*Ch.*) ; Histoire des villes de la province de Constantine, Bougie, Djijelli, Philippeville, Bône, Touggourt (Constantine 1864-1888).

Bel (*A*) ; Histoire de Tlemcen.

(4) *Devoulx* (*A*) ; Le Raïs Hamidou. Notice biographique sur le plus célèbre corsaire algérien du XVIIIème siècle (Alger 1852).

Ibid ; Le Raïs Hadj M'barek (R.A. 1876).

(5) *Devoulx (A)* ; Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger (Alger 1852 99 p.).

(6) *Rocqueville (le sieur de)* ; "Relation des mœurs et du gouvernement des Turcs d'Alger" (Paris 1675 - 112 p.).

هو وصف لمدينة الجزائر ولحفلات الزواج بالمدينة واستعراض للمصالح الحكومية والادارية وذكر لمختلف انواع العذاب الذى يتعرض له الاسرى النصارى ووصف للصلوات ولرمضان ...

(7) *Bel (A)* ; La Religion Musulmane en Berbérie T.I. (Paris 1938).

Boyer (P) ; La politique religieuse des Turcs (Revue l'Occident Musulman et de la Méditerranée N° I, 1966)

(8) *Gourgeot* ; Les Beni Amer (R.A. 1857).

Féraud ; Notices sur les tribus de la Province de Constantine.

Noël ; Documents pour servir à l'histoire des Hmiyan B.S.G.A.O. 1915 - 1916 - 1917.

(9) *Eisenbeth (M)* ; Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque turque 1516-1830.'(R.A. 1952).

Cahen (Ab) ; L'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la Régence d'Alger (1509-1830) Paris 1904.

Dupuy (E) ; Américains et Barbaresques 1776-1824 (Paris 1910).

Watbled (E) ; La France et les Barbaresques au XVIIè siècle. (Nouvelle revue 1893 T. 84) - p. 368-388.

Grammont (H. de) ; Relation entre la France et la Régence d'Alger au XVIIè siècle (R.A. 1879).

Playfair (R.L.) ; Episode de l'histoire des relations de la Grande Bretagne avec les Etats Barbaresques avant la conquête française (R.A. 1878 - 1879 - 1880).

(11) *Montran (R)* ; Les données de l'Histoire Moderne et contemporaines de l'Algérie et de la Tunisie. (Annales de l'Afrique du Nord 1962 - p. 243-248).

(12) 2 V. Istambul 1936-1937.

(13) *R. Mantran* ; Les données de l'histoire moderne et contemporaine de l'Algérie et de la Tunisie (Annales de l'Afrique du Nord, 1962 pages 243-248).

(14) *L. Provençal* ; Les historiens des Chorfas, Paris, 1922. — راجـــع

(15) اشهرها رحلة التمقروتى (القرن١٦) والعياشى (القرن ١٧) والورثلانى (القرن ١٨) .

(16) ـ ولا يستحق الذكر الا كتاب البستان ... لابن مريم مع ما فيه من نقص وقلة المعلومات التاريخية

(17) اتهم الغربيون المصادر الاسلامية بالتحيز وكأن التحيز خاص بالمسلمين دون سواهم . ولم يكتب التاريخ فى أوروبا على اسس علمية وبشبه موضوعية الا فى اواخر القرن التاسع عشر .

(18) *A. Bel* ; La religion musulmane en Berbérie. Paris, 1938, Page 376.

(19) *A. Bel* ; La religion musulmane en Berbérie. Paris, 1938, Page 374.

(20) *Shaw* ; "Voyage dans la Régence d'Alger" édité en 1775.

Thédénat ; "Les aventures de Thédénat esclave et ministre du Bey de Mascara".

وهى مذكرات قيدها الفرنسى الذى وقع فى قبضة المسلمين واصبح فى خدمة الباى محمد الكبير راجع المجلة الافريقية سنة ١٩٤٨ .

Venture de Paradis ; Alger au XVIIIè siècle (R.A. 1895 - 1896 - 1897).

(21) *Berbrugger* ; La prise de Mers-El-Kébir par les Espagnols en 1505.

Elie de la Primaudaie ; Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique, 1506-1574. (R.A. 1875-1877).

Ricard (*R*) ; Textes espagnols sur la Berbérie (XVè - XVIè - XVIIè siècles) (R.A. 1945).

(22) *Devoulx* (*A*) ; Un exploit des Algériens en 1802 (R.A. 1865).

Ibid ; La Marine de la Régence d'Alger (R.A. 1869).

Lacour (*A*) ; La Marine de la Régence d'Alger avant la conquête (Alger 1835).

Lacoste (*L*) ; La Marine Algérienne sous les Turcs (l'Amirauté d'Alger à travers l'histoire) (R. Maritime 1931).

(23) *Rinn* ; Bulletin de la société de géographie d'Alger 1903.

(24) *Aranda* (*Emmanuel d'*) ; Relation de la captivité (Paris 1657, 2 parties).

Berbrugger ; Voies et moyens du rachat des captifs chrétiens dans les Etats barbaresques (R.A. 1867).

Busnot (*le père Dominique*) ; La Tradition de l'Eglise dans le soulagement et le rachat des esclaves (Rouen 1714 - 278 p.)

Pavy ; La piraterie barbaresque, (R.A. 1857).

(25) *Blavin* ; "La condition de la vie des Français dans la régence d'Alger". (Alger 1899, 104 p.).

(26) Paris 1637.

(27) *Godard* (*l'Abbé*) ; (Ancien curé de Laghouat)."Les soirées algériennes, corsaires esclaves et martyrs de Barbarie" (Tours 1857, 236 p.)

هي سلسلة من الاخبار ترجع الى العهد العثماني بالجزائر : المسلمون الذين طردوا مـن الاندلس — الاتراك — القراصنة — الاعلاج — هروب الاسرى ، المفاداة — الاباء العازرين .

Godefron, Cornelin et la Motte (*les pères*) ;

"Etat des royaumes de Barbarie, Tripoli , Tunis et Alger, contenant l'histoire naturelle et politique de ces pays, la manière ou les Turcs y traitent les esclaves comme on les rachète et diverses aventures curieuses" (Rouen 1731 263 p.).

("L'état chrétien politique du royaume d'Alger, description de Bône séjour à Alger (1700) avec la narration des pourparlers").

(28) *Grammont* (*H. de*) ; Correspondance des consuls d'Alger (1600-1742) (Paris 1890 - 293 p.)

Plantet (*E*) ; Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France (1577-1830) (Paris 1893-1894 - 2 V. 654-784).

Arvieux (*Chevalier d'*) ; Mémoires... (Paris 6 V.) La narration de son voyage à Alger se trouve dans le T. V. il y séjourna en 1674).

Berbrugger ; Un consul à Alger au XVIII (R.A. 1862) il s'agit de Bruce, consul d'Angleterre).

Devoulx (*A*) ; Les archives du consulat général de France à Alger (S.D. 152 p.).

(29) *Clausolles* (*P*) ; "L'Algérie pittoresque ou histoire de la Régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours... (Paris 1843 - 2 V.).

(30) *Filias* (*Ach*) ; L'Algérie ancienne et nouvelle. (Paris 1875 - 192 p.) "Une sorte de vade-mécum pour gens cultivés".

(31) *Garrot* (*H*) ; "Histoire générale de l'Algérie" (Alger 1910 - 1189 p.).

(32) *Vinchon* (*Le Baron de*) ; "Histoire de l'Algérie et des autres Etats barbaresques jusqu'à nos jours" (Paris 1839 - 316 p.).

(33) *Farine* (*Ch*) ; Deux pirates au XVIè siècle, histoire de Barberousse. (Paris 1869 - 377 p.).

(34) Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane (Paris 1905 - 458 p.).

(35) "Anecdotes africaines depuis l'origine ou la découverte des différents royaumes qui composent l'Afrique jusqu'à nos jours" (Paris 1775 - 8 T. en 1 V.).

كلمة مقتضبة

لتطهير تاريخ الجزائر

من الشوائب الإستعمارية

شارل روبير آجرون

مؤرخ فرنسي

للجزائريين الحق كل الحق فى التشكى من بعض المؤرخين الاجانب الذين لم يكونوا منصفين فى دراستهم لتاريخ الجزائر ، اما لغرض فى أنفسهم ، أو بسبب جهلهم لحقائق الامور · ونذهب الى ابعد من هذا فنقول بأن النظرة الاستعمارية كثيرا ما أوقعت فى ضلال مبين بعض المؤرخين سواء النزهاء منهم او المغرضين · ولهذا ، فان تطهير التاريخ الجزائرى من الشوائب الاستعمارية أصبح من أوكد الواجبات بالنسبة الى كل من يبحث عن الحقيقة التاريخية الناصعة ، سواء كان أوروبيا أو من أبناء المغرب العربى ·

وبما اننى قمت ببحث جامعى لم ينشر الى حد اليوم ـ وكان الغرض منه نفى الطابع الاستعمارى عن سياسة الجنرال برتوزين بالجزائر عام 1831 ـ فاننى أسمح لنفسى بأن أسوق مثالا عن أحد المؤرخين المزيفين الذين كتبوا عن تلك الفترة ، ومن الجدير بالذكر ان نظرات هذا المؤرخ ظلت مدة طويلة من الزمان تعتبر مرجعا أساسيا ، وأعنى به « فيكتور ديمونتيس Victor Demontès الذى سوف اقتصر هنا على دراسة كتاب له يدعى أنه « كتاب علمى » ، وهذا الكتاب هو أطروحته التكميلية فى الآداب التى عنوانها : « ادعاءات الجنرال برتوزين ضد سياسة الاستعمار فى بلاد الجزائر » ، وهو منشور فى الجزائر عام 1918 ، ويقع فى 311 صفحة ٠

ففى هذا الكتاب نلاحظ ان فيكتور ديمونتيس يتحامل بصريح العبارة ضد الجنرال برتوزين ، حاكم الجزائر بالوكالة ، والقائد العام لجيش الاحتلال الفرنسى فى مدينة الجزائر٠ ولم يقتصر على هذا ، بل أخذ فى كتابه يتهجم تهجما شديدا على هذا الرجل حتى ينال منه ويحطمه ، فوصفه بأنه « يناهض الاستعمار ، ويقف موقفا معاديا لمشروع الاحتلال » ، ولذلك ، فقد استنكر بشدة سياسته « المتسمة بالمجاملة تجاه الاهالى ، وبعدم الثقة تجاه الاوروبيين » ٠ ويرى ان الجنرال برتوزين «هو المسؤول عن ضياع عشر سنوات فى عملية اخضاع الجزائر للاستعمار » . وعقد مقارنة غريبة بين هذا الانسان المناهض للاستعمار ، وبين بطله المفضل . الجنرال كلوزيل « المخلص لسياسة الاستعمار » ٠ وقد كتب يقول بان المسالة ليست مجرد اختلاف بين رجلين ، « بل هى اختلاف بين نظامين » ٠

ان هذه الاحكام المفرضة ، وهذه الطريقة التعسفية فى كتابة التاريخ ، تبعث فى حد ذاتها على الاسف الشديد ، فما من مؤرخ الا ويعرف ان الحقائق التى يتوصل اليها تقريبية لا يقينية ، وان اسلوب الحكم فى مجال التاريخ هو الاحتمال ٠ وانه يجدر بالمؤرخ النزيه أن لا يطلق أحكاما حاسمة ٠ على أن هناك ما هو ادهى وأمر ، اذا نظرنا الى المعيار الذى استند اليه هذا المؤرخ المزيف ٠

كان الوهرانى ديمونتيس يرى ان الوطنيين الفرنسيين الحقيقيين هم المعمرون Colonistes (وهى التسمية التى كانت تطلق عليهم عام 1831) ، والمؤيدون لسياسة اسكان الجزائر ٠ اما من يعارض هذه السياسة فهو فى نظره خائن ، حتى ولو كانت له أسباب سياسية تبرر موقفه ٠

ولا شك ان الكثير من الفرنسيين ، وخاصة الاوروبيين المقيمين فى الجزائر ، كانوا يشاطرون ديمونتيس مبدأه السقيم هذا ٠ ومن الجدير بالذكر ان كل من يقصر فى كيل الثناء ودفع الاموال للمعمرين ، كان يعتبر فى بداية هذا القرن خائنا ٠ وكان من تسول له نفسه ان يكتب كلمة للدفاع عن حقوق الاهالى المسلمين الجزائريين كان يعتبر « متأثرا بالبرنوس » ٠ ونشير هنا الى ان ايدوار كاط ، كان قد ألف بين 1889 و 1891

كتابا عنوانه : « مختصر تاريخ الجزائر
une petite histoire de l'Algérie
فى جزءين . وقد استفاد منه ديمونتيس نفســه وكذلك اوغسطان بيرنار · ان حكـم هذا المؤلف على برتوزين شبيه بالحكم السابق ، لانه اعتمد فيه على نفس المبدأ . فقد كتب يقول : « ان حماقتـه هى السبب فى الصعوبات التى واجهتـها عملية الاحتلال فيما بعد » · وقد أنكر عليه تســامحه (لانه لم يتصرف تصرفا حازما مع الاهالى العرب) كما انكر عليه سرعة تصديقه (لانه القى آذانـا صاغية « للنصائح المغرضـــة » التى قدمها اليه الاهالى فى الجزائر . وخاصة ابو ضربة وحمدان ابن عثمان خوجة) ·

وقد عاد ديمونتيس الى نفس هـذه الانتقادات ليدين بها برتوزين وليدعم بها نظريته السقيمة ، ولذلك يقول : لئن تخلى برتوزين عن فكرة احتلال المنطقة التى كانت تسمى « سهل المتيجة الموبوء » لما فيها من مستنقعات ،فلانه أراد بذلك ان يعاكس الحاكم السابق كلوزيل بايعاز من الاهالى العرب الذين كانوا يملكون اراضى شاسعة فى المتيجة »· ومما كتبه فى هذا الموضـــوع : «بذل الجنــــرال برتوزين كل ما استطاع من جهد لتحويل تيـــار الهجرة عن هذه المنطقة ، عملا بنصائح الاهـــالى المغرضة » ، الا انه لم يقدم أية حجة لتدعيم هذا الحكم التعسفى · أما بالنسبة الى اتهام برتوزين بمعاكسة الجنرال كلوزيل . فلا يمكن تصور ذلك الا اذا كانت معاكسته مسبقة ، لان الجنـــــرال كلوزيل لم يكشف عن خطته لاحتلال المتيجـة الا عام 1833 . على ان الجناية العظمى التى ارتكبـــها برتوزين فى نظر ديمونتيس وايدوار كاط ، هى انه اتخذ قراره « بناء على ما سمعه من الاهالى من آراء حول الاوبئة المتفشية فى سهل المتيجة ، فما كان منه الا ان صدق أقوالهم » ·

وهنا يكشف لنا ديمونتيس عن معيار آخر فى الحكم لا يليق بعالم يدعى بأنه يلتزم الموضوعية فى البحث : فقد أدان برتوزين لا لشىء سوى لانــه لم يتردد فى استشارة الاعيان الجزائريين ، ولانه عاملهم بكل احترام . ولانه « سارع الى تصديـق ما سمعه من الاهالى العرب » · وباختصار فان هذا « المثقف » كان يتميز حقدا وغيظا ، كما هو شأن كل معمر · وقد ادعى ان قصده من تأليف كتابه هو النقد النزيه · والحقيقة انه لم يكن يرمى الى الكشف عن شخصية برتوزين وحكومته . بقدر ما كان يرمى الى اقامة الدليل مرة أخرى ــ وخاصــة فى سنتى 1917 ــ 1918 ، حيث كانت السـلطات الفرنسية تستعد لمنح الجزائريين بعض الحقوقالتى وعدتهم بها عام 1914 ــ على انه لابد من استعمال سياسة الحزم تجاه حركة الشبــان الجزائريين ·

وقد كان هذا الاستاذ يعتقد دائما فى قــــرارة نفسه بانه مجند للدفاع عن « الجزائر الفرنسية » فظل طوال حياته يطبق ، كمؤرخ ، مفهومهالغريب عن التاريخ ، ذلك المفهوم الذى وصفه فوســتال دى كولانج Fustel de Coulanges بأنه « سطحى » ، وهو مفهـــوم يحط من قـــدر التاريخ ، وينزل به الى مستوى الدعاية المغرضة· ومن المعروف انديمونتيس كان ــ بصفته صحافيا وكاتبا ــ يدافع بمنتهى الحماس عن وجهة نظـــر

المعمرين الفرنسيين فى النشرية التى كانت لجنة افريقيا الفرنسية تصدرها • على انه لم يكن احد يتصور بأن تحيزه سوف يؤدى به الى تسخير البحث العلمى للدعاية الاستعمارية • وهذا الموقف من شأنه ان يخرجه نهائيا من زمرة المؤرخين •

فلا نستغرب بعد هذا ان تعمد الحكومة العامة للجزائر الى مكافأة هذا الداعية النشيط على خدماته الجليلة • وقد بذلت هذه الجهة الرسمية كل ما وسعها من جهد لتعيينه استاذا فى الكوليج دى فرانس . فلما اخفقت مساعيها ، « عينته مدرسا chargé de cours يلقى محاضرات عن شمال افريقيا ، علما بان النفقة المترتبة على هذا المنصب معتمدة فى ميزانية الجزائر • فهل نستغرب بعد هذا ان يتفانى فى الدفاع عن المعمرين ؟

رأيت لزاما على نفسى . بعد ما اطلعت على ادانة الجنرال برتوزين ، بهذه الطريقة التعسفية المتسرعة ، من طرف شخص يدعى العلم ، رأيت لزاما على نفسى ان أعود الى الموضوع من اساسه وان أنظر فى الوثائق التى نشرها ديمونتيس ، وعددها 121 وثيقة • ولا يتسع المقام هنا لشرح النتائج المفصلة التى توصلت اليها فى التحقيق ، أما بالنسبة الى النتائج المتعلقة بشخصية الجنرال برتوزين الذى اعتقد جازما بانه حاكم ميال للاهالى العرب ، فانها تشرف هذا الانسان النزيه الذى لم يعرفه الناس على حقيقته • كان مفوض الشرطة دوبيكنوسك d'Aubignosc يصف الجنرال برتوزين بالجنرال النزيه • فالاستقامة المتناهية التى كان يتحلى بها هى التى جعلته يتولى الدفاع عن الجزائريين • ولا شك انه ـ وهو القائد المنتصر فى معركة الاسطى وعلى STAOUELI كان معجبا غاية الاعجاب بالجزائر « التى هى اجمل بلد رأيته . بل هى أجمل بكثير من ايطاليا » • وكان همه الوحيد هو المحافظة على سمعة فرنسا لدى الجزائريين ، بممارسة حكم يتسم بالعدل والانصاف • ان هذا القائد العسكرى الذى كان على رأس الحرس الامبراطورى فى حملة نابليون على روسيا ، لم يتردد فى التفاوض مع مرابط القليعة (شيخها) سيدى على مبارك • ان هذا التصرف الذى استاءله ديمونتيس يعد فى الحقيقة تصرفا طبيعيا جدا • فقد كان الجنرال برتوزين يرى بأنه لا يمكن « ان تسند ادارة شؤون بلدة أهاليها مسلمون ، الى شخص أوروبى يجهل تمام الجهل قوانينهم وتقاليدهم ولغتهم ومصالحهم وحاجياتهم » • وكان يرى انه لابد لمن شاء ان يبسط سلطانه على قبائل لا يعرف طبائع أهلها ، أن يستعين بوسطاء يتم اختيارهم من بين السكان. والحقيقة ان مرابط القليعة لم يكن ينوى أن يقدم خدماته الى فرنسا ، بقدر ما كان يريد ان يستتب السلام فى المنطقة ، ولذلك لم يقبل منصب الآغا الا بعد ما أكد له الجنرال بيرتوزين بأن القبائل لن تتعرض بعد اليوم للهجوم • وهكذا تقيد الطرفان بالتعهدات ، وعاد السلام الى المنطقة •

وكان هذا الجنرال الفرنسى ينوى من وراء انتهاج « سياسة الاحترام » أن يجعل الاهالى

ينسون اعمال العنف التى قام بها الحاكم السابق • وقد أوعزت اليه الدوائر الاستعمارية ان يعمل على اخلاء المنطقة من السكان ، فاعتبر هذه المبادرة عملا يتسم بالدناءة والجور • وقد حاول على العكس من هذا ان يطمئن الاعيان العرب المقيمين فى الجزائر العاصمة • ومن ذلك انه آمر برفع الحجر عن املاك الاتراك والمؤسسات الخيرية ، ومن جهة اخرى ، فقد ابلغ كل «من يريد ان يحكم بالباطل وان يستخدم وسائل تتنافى مع الحضارة ، وكل من يؤمن بالمثل الذى يقول : الويل للمغلوب» ابلغ جميع هؤلاء بان سياسته تخالف هذه المبادىء • ونحن لا ننكر انه امتثل لاوامر المارشال سولت SOULT عند ما امره بالرجوع الى سياسة الاستيلاء على البلاد ، لان فرنسا قررت أنلا تتخلى عن الجزائر • الا انه امتثل للاوامر ، لا عن يقين وايمان . وقد كتب يقول فى وثائقه الخاصة : ان المستعمرات لا ترفع من شان الدول ، ولا تزيدها غنى وثراء ، بل كلفت فرنسا دائما نفقات باهظة» • وكان يرى بان المنطقة الاولى التى ينبغى الاستيلاء عليها هى منطقة الساحل القريب من العاصمة الجزائرية ، وذلك لاسباب تتعلق بالامن وبالصحة • ومهما اختلفت الآراء . فان انتشار الاوبئة فى سهل المتيجة ليس خرافة ، بل هو حقيقة لا مراء فيها ، بدليل ان 968 من الجنود لاقوا حتفهم فيها عام 1831 ، و 1415 عام 1832 ، نتيجة للحمى الخبيثة المتسببة عن فوحان المستنقعات •

وقد لاحظ بليميز دى رينو ان الاعتقاد السائد آنذاك هو : «ان اظهار اى نوع من انواع العطف نحو العرب يكاد يكون خيانة» علما بانه قد استنكر هذا الموقف • وبهذا ندرك السبب الحقيقى الذى جعل بعض اشباه المؤرخين المتعصبين لفكرة «الجزائر فرنسية» ، يتحاملون بشدة على هذا الجنرال الذى بنى نظام حكمه على معاملة الاهالى العرب بالعدل والانصاف • الا ان العشرة اشهر التى قضاها فى الحكم لم تكن كافية لتطبيق سياسته ، بل ان الحزب «المعمر parti colonisle هو الذى بذل المساعى لكى يستدعى من الجزائر حتى لا يسمح له بتحقيق ما اراد ، وكان برتوزين يقول بانه قد استمد سياسته من سياسة الجنرال دوسيكس Desaix الذى استحق لقب «السلطان العادل» فى حملة نابليون على مصر • وكتب فى سنة 1834 يشرح اسباب استدعائه من الجزائر : بان هذا «النظام الذى طبقه هو النظام الوحيد المشرف لفرنسا وهو اقرب الانظمة الى السياسة الحكيمة ، واكثرها نفعا ، الا انه من جهة اخرى قد اضر بكثير من المصالح ، واثار العديد من المخاوف ، وحطم الكثير من المشاريع وتسبب فى معارضة شديدة» • ونضيف الى ما قاله بيرتوزين بانه تسبب فى كراهية مستديمة •

وهكذا ، فلم يفكر احد فى الاشادة بهذا الانسان الذى لجت به الظروف ، رغم مشيئته ، فى مشروع استعمارى ، ولم يخطر ببال احد ان ينوه بذكر هذا الجنرال الشجاع ، الا بعد ان تمت تصفية الاستعمار •

وكان يندد : «باعمال العنف الوحشية» التى يقوم بها الجنود الفرنسيون ويستنكر «اعمـــال العنف المادية والمعنوية,والغدر والخداع والاهانة» وما الى ذلك من الوسائل التى استعملها المعمرون الاولون : «تلك الحثالة التى تعد احقر واحـط ما تمخضت عنه ضفاف البحر الابيض المتوسط»·

وربما راى البعض بان حياة هذا الجنــرال لا تستحق كل هذا الاهتمام · الا اننا نعتقـد بانه مثال يقتدى · ولقد استشهدنا به لنــاتى بمثال يبين الاثر السىء الذى خلفه اشباه المؤرخين المتعصبين لفكرة الجزائر فرنسية» · وختـــاما

لهذه الكلمة نقول بان تطهير تاريخ الجزائر مـن الشوائب الاستعمارية يهم الفرنسيين والجزائريين على حد سواء ·

حول جنسية التاريخ

د. ايفون توران
استاذ التاريخ
بجامعة الجزائر

عندما اخذت علما بالموضـــــوع الذى طرحته مجلة الاصالة على بساط البحث فى عددها الممتاز ، وهو : « الجزائر عبر العصور ، ومواقف المؤرخين الاجانب » ، راودتنى أسئلة كثيرة ، ولعل ابرزها هو السؤال الآتي : بما اننى أنا بالذات مؤرخة أجنبية ، فقد أصبح من واجبى ان أحكم على نفسى بنفسى ، أى أن أكون الخصم والحكم فى نفس الوقت ولا يخفى على أحد أن هذا عمل شاق ... ولذلك ترددت بعض الوقت ، ثم اقتنعت بضرورة المساهمة

نظرا للبادرة الحسنة التى اتخذتها المجلة . ونظرا كذلك للثقة التى أظهرتها تجاه أولئك الاجانب • ولهذا وجدتنى مضطرة للاجابة لكى أعبر لها عن شكرى الجزيل ، وان يكن الدخول فى هذا الموضوع فيه مخاطرة •

ان المشكلة التى طرحتها مجلة الاصالة من نوع المشاكل التى يختص بدراستها « علم وصف التاريخ Historiographie » أو علم تاريخ التاريخ • وذلك ان تاريخ جميع المشكلات، وخاصة منها المشكلات العويصة ، مرتبط بعلم يصفه من الناحية التاريخية • ان تاريخ الديانات، وتاريخ العلاقات الدولية ، من العلوم التى لم يصفها العلماء على منوال واحد ، بل تغير وصفها كثيرا على مر العصور ، فبالنسبة الى تاريخ الديانات ، نلاحظ ان العلاقات بين الدين والمجتمع، وبين الملل والنحل فى حد ذاتها ، قد تطورت الى حد بعيد فى الغرب على وجه الخصوص • وأما بالنسبة الى تاريخ العلاقات الدولية ، فقد لوحظ ان الحياة الدولية تتفاعل فيها اطراف متعددة كثيرا ما تكون متصارعة فيما بينها ، ولكل طرف منها سياسة تناوىء سياسة الطرف الآخر • ويمكن ان نستشهد بالحرب العالمية الاولى كمثال نموذجى عن هذه الاختلافات التى لم يستطع المؤرخون الفرنسيون والالمان تذليلها فى لقاءاتهم الكثيرة • وربما كان من الاحسن ان لا يحاول المؤرخون تذليلها ، بل عليهم فقط ان يحددوها تحديدا دقيقا وان يشرحوها شرحا واضحا ، لأن هدف التاريخ كعلم ، ليس هو الكشف عن وجه الحقيقة الثابتة ، بل هو الاطلاع على مختلف الآراء والمناظرة بينها •

ومهما يكن من أمر ، فلهذه الاختلافات دلالة عميقة ، بل استطيع ان أذهب الى أبعد من هذا لأقول بأن هذه الاختلافات تبعث الاطمئنان فى النفس ، وهى ضرورية لانها عماد التاريخ ، ولكل مؤرخ ان يفتخر بها اذا شاء • ولعل القارىء يستغرب هذا الكلام • ولكن الاستغراب لا شك سيزول اذا عرف بأن هذه الاختلافات تبرهن على أن المسائل التاريخية لا تشبه فى شىء المسائل الحسابية ، والا لاستحال ان تتعدد الحلول المقترحة لتلك المسائل التاريخية ، كما انها تبرهن وتؤكد بأن ابناء البشر الذين يحاول الباحث ان يطلع على أحوالهم ليسوا مجرد وحدات تصلح للعد والحساب، بل هم قادرون ، لحسن الحظ ، على أن يفلتوا من رقابة الجهاز الالكترونى الذى يحاول ان يحصى حركاتهم وسكناتهم • ان المشاكل التى يتخبط فيها أبناء البشر تخلف دائما وراءها بقايا لا يمكن تفسيرها تفسيرا مطلقا • وتلك البقايا هى موضوع الجدال والخلاف بين المؤرخين ، وهى التى تسمح للمؤرخ بأن يستخدم طريقة التأويل فى تعليله للمشاكل التاريخية المستعصية • وهكذا فان الانتقال من الشك الى اليقين معناه التوصل الى حقيقة يستطيع أى مؤرخ آخر ان يتوصل اليها باتباع طريق آخر غير الطريق الاول ، شريطة ان لا يؤدى هذا التعدد فى الطرائق الى حد التهور المتعمد أو الى حد تزوير الحقائق •

ومما لا شك فيه ان تاريخ الاستعمار ، وتاريخ الاقطار التى كانت خاضعة للاستعمار ، يندرج كل منها فى نطاق هذه المسائل التى يحتـــدم حولها الجدال ، وبذلك نلتقى مع الموضوع الذى اقترحته مجلة الاصالة ٠

على ان هذا الموضوع يتجاوز نطاق الصعوبات التى تعترض المؤرخ المتقيد بالمنـــهج الوصفى المتـــعارف لدى العلماء ٠٠٠ بطبيعة الحال ، قد يكون من المفيد ان نعرف كيف ان مشاكل الساعة أفضت ببعض المؤرخين الاجانبالمعروفين بالتدقيق والتحقيق ، الى التسرع فى الاحكام ، وكيف ان الغرور الصريح أدى بالبعض منهم الى الضلال ، وكيف ان الالتزام السياسى انعكس على أوضـــح صورة فى « التاريخ الملتزم » الذى هو أقرب فى منحاه واتجاهه الى الجدال ، بل الى الاخبار الملفقة تلفيقا ٠ على أن هذه الاحتمالات كلها ان هى الا جوانب من المشكلة الجوهرية التى سوف نتحدث عنها ، بعد ما أثارتها مجلة الاصالة وخصـــتها بالذكر ٠ ويمكن تلخيص ذلك فى السؤال الآتى : هل هناك فعلا مشكلة تتعلق بجنسية المؤرخ تجاه التاريخ الذى يسجل احداثه ؟ وفيما يتصـــل بالجزائر على وجه الخصوص ، هل يواجـه المؤرخ الاجنبى صعوبة بالنسبة الى الوفاء لرســـالته كمؤرخ ؟

ولنحاول الآن ان نلقى بعض الاضـــواء على السؤال الاول الذى يكتسى طابعا عاما ، ولننتقل بعد ذلك الى السؤال الثانى الذى يهمنا على وجه الخصوص ٠

ولابد هنا من ابداء ملاحظة ، وهى انه لا يوجد مؤرخ بدون جنسية ٠ وقد كان مفهوم الجنســـية فى القديم يتصف بالمرونة ، خلافا لما يتســـم به اليوم من تشدد ، بحيث ان جنسية المرء صارت تعتبر صفة راسخة فى نفسه ، كأنه مطبوع عليها طبعا ٠ ولا اخال أن أحدا يوافق اليوم مونتسكيو فى رأيه اذ يقول : « خلقت قبل كل شىء انسانا ، وأصبحت فرنسيا بالمصادفة » ٠ ومع ذلك فـان المؤرخين عندما كانوا فى القديم يتحـــدثون عن مناقب الملوك ، كانوا بعملهم ذاك يعبـــرون عن انتمائهم الى شعب من الشعوب ، وهذا الانتماء ، وان لم يكن واضـــحا ، الا انه يفرض على المؤرخ التزامات معينة ، وبناء على هذا ، فليس هنـــاك مؤرخ يشذ عن هذه القاعدة ، سواء تصدى لكتابة تاريخ بلاده ، أو تاريخ البلدان الاجنبية ٠ ويمكن حينئذ ان يصاغ السؤال على الشكل الآتى : هل يستحسن ان يتولى المؤرخ كتابة تاريخ بلاده ، أو على العكس ، يجدر به ان « يكون أجنبيا »بالنسبة الى الحقائق التى يريد ان يكشفها لنفســه ولغيره من الناس ؟

ونقول بادىء ذى بدء بأن المؤرخين الانجليز او الايطاليين الذين كتبوا تاريخ انجلترا وايطاليا ، أكثر عددا من المؤرخين الفرنسيين الذين أرخوا لالمانيا أو أمريكا ٠ على أن ارتباط المؤرخ بتـاريخ بلاده ، مرجعه فى الواقع الى ظروف العمل ، والى توفر الامكانيات والتسهيلات داخل البلاد التى ينتمى اليها الباحث ٠ فالصينى أقرب الناس الى فهم حقائق بلاده ، بسبب معرفته للغة ، ووجود

الوثائق والمصادر فى مكان قريب • أما اذا تصدى احد الاجانب لكتابة تاريخ الصين ، فانه سوف يصادف صعوبات لا من حيث جهله للغة وعدم توفر الوثائق والمصادر فى عين المكان فحسب ، بل كذلك لانه سوف يضطر لاستكمال الوثائق المكتوبة بالآثار والشهادات غير المكتوبة • وهذا لا يمنع من القول بأن بعض المؤلفات الانجليزية او الامريكية تعد فى فرنسا من المراجع الاساسية حول تاريخ الامبراطورية الثانية (نابليون الثالث) (1) • وبالمقابل ، فأن بعض المؤرخين الفرنسيين هم الذين كشفوا للانجليز المراحل الاولى المتعلقة بالثورة الصناعية فى انجلترا (2)• ومن الامثلة على ذلك أيضا ان تاريخ الحركة التحررية فى منطقة ريناني (ألمانيا) كتبه أحد المؤرخين الفرنسيين (ج• دروز) الذى يعد الى حد اليوم أحد الاختصاصيين الكبار فى تاريخ ألمانيا (3) • وأنا شخصيا كمؤرخة فرنسية لم أقم بأى بحث حول تاريخ فرنسا ، بل انصرف اهتمامى الى ما يسمى اليوم بتاريخ الافكار فى اسبانيا والجزائر (4) • وكثير من الامريكيين يهتمون اليوم بتاريخ العصور الوسطى فى فرنسا وأوروبا • وهكذا ، فالامثلة التى يمكن الاستشهاد بها فى هذا المجال لا تعد ولا تحصى • ويمكن هنا ان نتساءل : هل نعتبر هذا التنوع فى البحث التاريخى من الحسنات او من السيئات ؟ وهل يشترط فى من يريد ان يفهم آراء غيره ان يكون مشابها له ؟ أم يجب على العكس ان يختلف عنه حتى يتمكن من الاهتداء الى ما لا يستطيع الغير ان يفطن له بنفسه ؟ اننا نعتقد بانه لا يوجد أى تعارض بين الموقفين ، بل هما متكاملان ، شريطة أن يصدر كل منهما عن روح تتميز بالتجاوب ، كما قال هـ• مارو ، فى كتابه « معرفة التاريخ

«H. Marrou : Connaissance de l'Histoire»

وهذه الروح المتجردة من التحيز ، ومن التعصب للآراء والمذاهب – وهما موقفان مناقضان للعلم والاخلاق – هذه الروح هى التى تجعل المؤرخ يبحث فى هدوء وصمت ، ويتناسى أغراضه الشخصية •

وقد لا يخلو الامر من فائدة فى أن نبحث عن الصورة التى يقدمها الغير عنا • وعلى سبيل المثال ، فقد وفق تمام التوفيق ذلك الامريكى الذى الف كتابا عن قرية من قرى فرنسا ، وعنوانه : « قرية من قرى الفوكلوز » (5) • ان تلك الدراسة ، وان كانت انتقادية ، الا انها مع ذلك ذات صبغة ودية فيما تضمنته من ملاحظات طريفة ودقيقة حول الحياة اليومية التى يعيشها مجتمع ريفى

(1) V. Wright : Le Conseil d'Etat sous le Second Empire, Colin, travaux et recherches des Sciences politiques 1972
A fterSedan, cornell univ., Press
J. Rothney : Bon apartism Ithaca, N.Y. 1969
(2) F. Crouzet : L'économie Britanique et le Blocus Continental 1806-1813, Paris P.U.F. 1958.
(3) J. Droz : Le Libéralisme Rhénan, 1815 - 1848. Contribution à l'étude du libéralisme allemand, Paris, Sorlot, 1940.
(4) L'Education et l'Ecole en Espagne de 1874 à 1902. Libéralisme et tradition P.U.F. 1959.
Miguel de Unamuno, Universitaire, Biblioth. Gle de l'Ecole Pratique des Hautes Etudes. Paris, SVEPEN, 1964.
(5) Laurence Wylie : «Un Village du Vaucluse , Paris, Gallemard, 1968.

ان هذا الكتاب الذى قدمه صاحبه عام 1960 كاطروحة فى علم الاجتماع ، كان مكتوبا بالانجليزية ، الا انه لم يترجم الا جزء يسير منه الى الفرنسية ، مخافة ان يستاء سكان الفوكلوز مما جاء فيه ، على ان شيخ هذه البلدة الصغيرة هو الذى طلب فيما بعد ان يترجم الكتاب بتمامه ، قائلا بان النقد البناء اكثر فائدة على حال من التملق والرياء

صغير · وهذا الكلام يصدق أيضـــا على كتاب : « صمت العقيد برامبل Les silences du Colonel Bramble » ، فهو كتاب لا يستطيع أن يؤلفه شخص غير انجليزي ، لقد تناول فيه صاحبه وصف الرجل الانجليزي ، في شكل قصة طريفة رفعت أندري موروا الى ذروة المجد ، وجعلت ذلك العقيد يشتهر في مشارق الارض ومغاربها · واذا رجعنا الى القارة الافريقية ، فربما كان من المفيد أيضا لو تصدى أحد الافارقة البارعين في الوصف، ليقدم للاوروبي صورة تهكمية صادقة عن نفسه ، فيدرك ما آل اليه من تكالب على الحياة ، ورغبــة في استغلال كل شيء لصالحه ، واشباع شهواته(6) وهكذا يتبين لنا ان وجهات النظر اذا تعــددت ، فانها تقدم للانسان صورة عن نفسه اصدق من الصورة التي يراها هو منعكسة في المرآة ·

هذا ما كنت أريد ان أقوله من الناحية العامة·

* * *

أما اذا أردنا ان نتطرق للحـــديث عن تاريخ الاستعمار ، فان هذا التاريخ ينبغي ولا شك ان يكون جزءا لا يتجزأ من تاريخ البشرية · الا انه مع ذلك قد احتفظ بمميزات خاصـــة به · ان الموضوع الذي اقترحته علينا مجلة الاصالة هو : « مواقف المؤرخين الاجانب » · ولا شك ان هذه طريقة لبقة للاشارة الى المؤرخين الفرنســيين على وجه الخصوص ، لانهم اكثر من تنـــاول بالدرس تاريخ الجـــزائر ، وان كان المؤرخون الانجليز والايطاليون والاسبان قد ساهموا في هذا الميدان بنصـــيب · نحن نعرف ان المعنيـــين بالامر هم المؤرخون الاجانب · ولكننا نتساءل : مـــن هـم هؤلاء الاجانب ؟ ان الوضعية الاستعمارية تتميز بكونها قد ربطت بين شعبين في تاريخ واحـد ، بحيث ان المؤرخ الفرنسي هو فعلا اجنبي ، الا انه لا يريد ان يكون اجنبيا ، خاصة انه لم يكن بالامس القريب أجنبيا عن تاريخ الجزائر واحـــداثها · وهكذا فالمؤرخ الفرنسي يجد انه هو بالذات من المعنيين بالامر بالنسبة الى التاريخ الذي يسجل أحداثه ، فبات لزاما عليه ان يضع نفسه موضع التساؤل وان يحدد الدور الذي لعبـــه في تلك الاحداث وبذلك اصبح تاريخ الاستعمار من حيث كيفية كتابته ، أصبح جزء لا يتجزأ من القضايا الخاصة بتاريخ العلاقات الدوليـــة ، وان كانت القضية هنا اكثر تعقيدا ، لان الطرفين (فرنســا والجزائر) غير متكافئين ، ولانه لا تتوفر في الوقت الحاضر آراء عديدة قد تكشف عن وجهات النظـر المختلفة ·

وفي الواقع ، يمكن ان نميز في تاريخ العهـد الاستعماري الذي مرت به الجـــزائر ، أو أي بلد آخر ، فترتين : فتــــرة المؤلفات المكتوبة قبل الاستقلال ، عندما كان تاريخ البلاد الخاضـــعة للاستعمار لم يتوصل بعد الى الحل النهائي ،وكانت الحوادث التي يسجلها التاريخ مرتبطة بالكفاح – واكبر شاهد على ذلك ما كتب بمناسبة الاحتفال بمرور قرن على الاستعمار – ، وفترة التاريخ الذي بدأ بعد الاستقلال · ولكن ، هل نستنتج من هذا التقسيم ان ما كتب في الاولى كله تاريخ أسود ، وان ما كتب في الفترة الثانية كله تاريخ ناصـع

(6) Y. Turin : «Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale». Maspéro, 1971, p. 367.

البياض ؟ لا شك ان مثل هذا التمييز ينافي العقل تماما • فقد كان هناك مؤرخون كبار قبل الاستقلال ، وبعده ، كما كان هناك مؤرخون منافقون بعد الاستقلال وقبله • ولا يكفي ان يكون النص مناهضا للاستعمار حتى يعد من النصوص العلمية • والجزائريون يعرفون هذا جيدا • وهنا يتدخل علم وصف التاريخ لكي ينظر في ما كتبه الباحثون من دراسات تاريخية في المجلات المتخصصة • أما فيما يتعلق بي شخصيا ، فقد كان قصدي ان ابين الى أي مدى يمكن ان تؤثر الروابط التاريخية المعاصرة في العلاقة بين المؤرخ وجنسيته ، وأن أوضح كيف ان الميزة الرئيسية للاستقلال تتجلى قبل كل شيء في تطهير التاريخ من الشوائب الاستعمارية ، أي تخليصه من الحلقة الاستعمارية التي سوف تظل دائما استعمارية النزعة ، رغم التظاهر احيانا بمناهضة الاستعمار .

ان الجزائر لا تزال حديثة العهد بالاستقلال ، ولذلك فمن السابق لاوانه أن نحاول تحديد خصائص ذلك الاستقلال • أما تحديد مفهوم التاريخ الاستعماري ، فانه أمر ممكن ، وسوف يساعدنا في فهم التيارات التي لا تزال اليوم تسود في ميدان التاريخ ، بل في ميدان علم الاجتماع أيضا ، لان النتائج التي ينتهي اليها المؤرخ وعالم الاجتماع واحدة ، ولان علم الاجتماع الاوروبي الحالي ، وان كان محصورا في نطاق محلي ، الا انه كثيرا ما يتخذ صبغة تاريخية ، فتختلط بذلك المسائل ويسود الاضطراب في الآراء ، خاصة ان بعض علماء الاجتماع وبعض أشباه المؤرخين لا يفرقون أحيانا بين الدراسة التاريخية الرصينة والآراء الصحافية المغرضة ، حتى ان بعض الدراسات التي قدمت في هذا المجال ، على أساس أطروحات جامعية ، لا تشذ عن هذه القاعدة •

ان تاريخ الاستعمار ، سواء كان قبل الاستقلال أو بعده ، كان له ، ويمكن ان يكون له اليوم جانبان : فالجانب الاول استعماري النزعة ، أو قل بعبارة أخرى انه تاريخ متحيز ، أو « ملتزم » ، وهي العبارة الشائعة اليوم • أما الجانب الثاني فهو مناهض للاستعمار ، الا انه مع ذلك لا يقل تحيزا والتزاما عن النوع الاول ، بل يظل هو الآخر مرتبطا من ناحية معينة ، بالاستعمار • وذلك ان الدراسات المتعلقة بتاريخ الاستعمار تتضمن ناحيتين احداهما استعمارية والاخرى مناهضة للاستعمار ، ولكنهما معا مرتبطتان أشد الارتباط بالنظرة الاستعمارية • ان كل واحدة منهما تتناول من زاوية معينة تاريخ الاستعمار والمستعمرين ، وقلما تتحدث عن الشعب الخاضع للاستعمار الذي لم يحظ الى حد الآن بالدراسة • ولذلك فمن المهم جدا ان نميز تمييزا واضحا بين التاريخ المناهض للاستعمار في الجزائر ، وبين تاريخ الجزائر الصرف • ولا شك ان الطريقة الثانية في البحث هي وحدها القادرة على التخلص من النظرة القديمة • ان التاريخ المناهض للاستعمار يشترك مع صنوه الملازم له (تاريخ الاستعمار) في اتباع طريقة يحاسب بها الشعب المسيطر نفسه ، بنظرة قد تكشف للمواطنين عن

عيوب النظام البائد ٠ ولذلك فالتاريخ المناهض للاستعمار شبيه تماما بصنوه ، حتى ولو كان المذهب العقائدى الذى يصدر عنه ينطوى على شىء من المجاملة للشعوب التى كانت خاضعة للاستعمار

وعلى هذا الاساس ، فلا يكفى ان يكون التاريخ مناهضا للاستعمار ، كما لا يكفى ان يكون التاريخ جزائريا ، حتى يعد مطابقا للحقائق التاريخية ٠

على اننا اذا تعمقنا فى تحليل هذا المفهوم للتاريخ او لعلم الاجتماع المناهضين للاستعمار ، وتأملنا فى هذا المذهب العقائدى المجامل للشعوب الخاضعة للاستعمار ، فاننا نستطيع ان نتساءل : هل يمكن ان نمنحه الثقة التامة ، أم ان هذا المفهوم يخبىء وراء ابتسامة المجاملة ، نوايا خبيثة ؟

وهنا ايضا قد يكون من المفيد ان نتخذ الاستقلال اساسا ومعيارا للتمييز بين طريقة وأخرى فى كتابة التاريخ ٠ فقبل الاستقلال ، لم يكن هناك فرق بين التاريخ الاستعمارى من جهة ، والتاريخ وعلم الاجتماع المناهضين للاستعمار من جهة أخرى ، لانه يوجد قاسم مشترك بينها ، وهو خوض المعترك السياسى ٠ فلا شك اذن ان تلك العلوم قد اتخذت كسلاح من اسلحة النضال والصراع ، لافحام الخصم ودحض حججه ٠ ولا يسعنا مع ذلك الا ان نلاحظ بأن بعض المؤلفات التى اعتبرت فى تلك الفترة مناهضة للاستعمار ، مثل كتاب « افريقيا الشمالية فى مسيرتها » لشارل اندرى جوليان (7) تبدو لنا اليوم ــ بعد اعادة قراءتها على ضوء معطيات الساعة ــ كأنها تتحدث عن بلاد يسود فيها الهدوء التام ، مما يدل على أن الجو العلمى السائد آنذاك قد افسدته المواقف السياسية الذاتية ٠ ولكن السؤال الذى يمكن ان يطرح هو السؤال التالى : هل يحتفظ ذلك الفكر العقائدى بنفس المحتوى بعد الاستقلال، ام انه يتغير تدريجيا الى أن يصبح مناقضا لما كان عليه قبل الاستقلال ؟ وهل يطابق الشكل المحتوى ، وهل يماثل الظاهر الباطن بالنسبة الى من لا يزال ينطق باسم ذلك الفكر العقائدى ، ومن بينهم بعض علماء الاجتماع وبعض المساهمين فى كتاب « تقويم شمال افريقيا L'Annuaire de l'Afrique du Nord » ؟ (8) ولابد من الاشارة هنا الى ان المؤرخين قلما يصدرون فى آرائهم عن ذلك الفكر العقائدى ، باستثناء الماركسيين منهم ، الذين يكتبون فى المواضيع التاريخية لا كتخصص ، بل كهواية ، مثل ايف لاكوست ، وم٠ برونان ٠ أما جاليسو ، فهو مؤرخ بالمهنة ٠

* * *

وسواء نظرنا الى التاريخ ، أو الى علم الاجتماع المناهض للاستعمار ، فاننا نتساءل : أليس وراء كل منهما موقف ، وعقيدة قد بليت كما بلى الاستعمار ، وكما بلى التاريخ الاستعمارى ؟ واذا كان الامر كذلك فلماذا ؟ وما هو السبب ؟

لنقل بصفة عامة بأن السبب فى ذلك يرجع الى ان مثل هذا الموقف يمنح العقلية الاستعمارية أمدا أطول ، ويظل بها مرتبطا ، ويحافظ على

(7) Paris Julliard 1952

8) ومنهم ش ، سوريان على وجه الخصوص ، وقد اتخذه منبرا لترويج آرائه

الاساس الذى تقوم عليه فكرة السيطرة فى حد ذاتها . وهذا الاساس هو : عزلة الانسان الخاضع للاستعمار ، وانفصاله عن بقية ابناء البشر ، من حيث طبيعته وأصله ٠ وبذلك يظل دائما شخصا لا يستحق ان نتحدث عنه ، أو أن نتعامل معه أو ان نتناوله بالدراسة ، الا على اساس انه مخالف لغيره من الناس ، لانه ينتمى الى عالم آخر غير هذا العالم الذى نعيش فيه ، واذا حاولت ان تخرجه منه . فسوف يذوب امامك ويختفى ، ولذلك فلن يجد الباحث مادة للدراسة ، وربما اضطر الى استعمال المكبر لعله يعثر على بعض الحقائق ٠

ان هذا الفكر العقائدى المجامل للشعوب المستعمرة يعد من الاساليب الخفية التى كان يستخدمها الاوروبى المستعمر ٠ وقد استطاع هذا الفكر العقائدى ، بما اتسم به من نقد مزيف يصل أحيانا الى حد التطرف ، أن يوهم الناس بأن هناك درجات كبرى وفروقا بين المستعمر والمستعمر ، كما استطاع ان يلفت انتباه العالم الى وضعية المستعمر الغريبة ، عوضا من ان يعتبره كأى انسان آخر ممن يحتل مكانا فى هذا الوجود ، ويعيش كغيره من ابناء البشر ٠ ان هذا الفكر يقوم على رواسب نظرة ثنائية تعتبر ان الناس فئتان : فئة تفهم وتدرك . وفئة أخرى هى موضوع الفهم والادراك ٠٠٠ فئة تحكم ، وفئة أخرى يحكم عليها ٠ وذلك انّ أصحاب هذا الفكر يدعون – باسم الفكر المطلق – بأنهم يعرفون عن الشعوب المستعمرة سابقا ، أكثر مما تعرفه تلك الشعوب عن نفسها ، وأنه اصبح من حقهم ان يرشدوها اليوم ، كما ارشدوها بالامس ، عما يجب عليها ان تعمل ، أو عما يجدر بها أن تعمل ٠ وهكذا نجد ان العقلية الاستعمارية القديمة المتميزة بعلاقة السيد بالمسود . وعلاقة العالم بالاسرار ، بمن اسراره كلها معلومة ، تلك العقلية تبعث اليوم من جديد تحت ستار مناهضة الاستعمار ٠

واننا لنجد مثالا مطابقا لذلك فى بحوث صدرت أخيرا تحت عنوان (المعلمون الجزائريون المكونون فى مدرسة المعلمين فى بوزريعة من سنة 1883 الى سنة 1939) اذ وردت فيها جمل مثل هذه الجملة : « انهم يقولون انهم مدينون بكل شىء لمدرسة المعلمين لان القوم ما فتئوا يكررون لهم انهم مدينون لها بكل شى » ان فى ذلك ما يعبر عن نفسية الباحث السائل تجاه المعلم المسؤول الذى كان يجيبه عن حسن نية واخلاص ان هذا المعلم على الرغم من تجاربه واجتهاده فى تحليل نفسيته انما هو رجل غير قادر على التفكير والاجتهاد – فى نظر ذلك العالم المثقف – ولذلك اصدرت محكمته حكمها بحشره فى زمرة الببغاوات وكيف يستطيع هذا المعلم ان يملك نظرا خاصا للاشياء (اديولوجيا) غير النظر الذى ينبثق معينه الصافى من الصفات العليا التى يتمتع بها ذلك الباحث الذى يساله من أعالى كبريائه وقد جرده من معانى الثقافة كلها حتى جعل موضوع بحثه سفليا وبذلك يرجع المبدأ الاستعمارى الى مجراه ٠

وقد تبدو هذه الظاهرة غريبة ولكن غرابتها فى المظهر فقط ونحن نجدها منتشرة لدى الاجتماعيين

الذين عنوا بدراسة الجزائر اكثر من انتشـــارها لدى المؤرخين لان المؤرخ الناقص هو وحده الـذى يقيم نفسه حكما او (مدعيا للربوبية) كما يقول مارو نعم اذا نحن امعنا النظر فى هذه الاديولوجيا التى فشت عقب انهيار الاستعمار فاننا نرى ان نظرية التثقيف الاجتماعى ACCULTURATION ما هى الا محض عبارة وان الافكار التى تنطوى عليها لم تنشأ قط فى البلدان التى كانت خاضعة لغيرها بل ان اوروبا وامريكا هما المسيرثان ـ فى هذه المرة أيضا ـ الى ما ينبغى ان يقـال ويذكر والصانعتان لاساليب التفكير المستحسـن اتباعها مع مراعاة ان هذه الافكار لم تخلق فى البداية الا لغيرهم من الناس ولم يشرعوا فى استعمالها شيئا ما الا منذ عهد قريب اذن فالسادة القـدامى هم الذين يوحون لرعاياهم القـــدامى ما ينبغى ان يعتقدوه فى أنفسهم وهم الـذين يوزعون تفكيرهم مستعينين فى ذلك بما يعترفون به من نقص فى تلك الافكار فيظفرون لدى المســـتعمر القديم بالتأييد والعون ـ وهذا هو العجب العجاب ! انهم أصحاب ثقافة غالبة وجدوا الطف حيلة لعـــدم مشاطرة غيرهم اياها ألا وهى قتل رغبتهم بجعلها آثمـة ٠

ان هذا العالم الاجنبى بل هذا الباحث الاجنبى الذى يعتد بأجنبيته هل يرى نفســه معنيا بما يكتشفه من أفكار وهل تثير هذه الافكار فى قرارة نفسه حيرة واهتماما ؟ وهل يرى المخاوف والاخطار التى تكتنف اشخاص بحثه مخاوف وأخطارا فى عالمه الذى يحيى فيه ؟ كلا لسنا متاكدين من ذلك بل الظاهر ان الحقائق تختلف حسب عالم الباحث وعالم المبحوث فيه ٠

ان هذا الاجنبى يستطيع بفضل رجاحة فكره واتساع علمه ونضج طبعه وعالمية ثقافته وحنكة تجاربه ان يعرض نفسه لجميع الانواء ويشم الهواء فى لجج البحر ويمارس هواياته الفنيــة ويشبع رغباته بالاطلاع كانسان على جميع العـوالم التى تثير اهتمامه بل فى وسعه ان يبهر أنظاره ويسحر شعوره بمختلف الثقافات المتعددة كما فى وسعه ان يكتفى باستخلاص انفع ما فيـــها من دون ان يستهدف للادماج الثقافى Acculturation او للتجريد من الثقافة deculturation انه لا يخشى أية سيادة على فكره انه لا ينحل فى غيره بل بالعكس ينحل غيره فيـــه ان التاثيرات الاجنبية لا تحدث الادماج الثقافى عندما تلمســه بل تحدث التثقيف (ان صح هـذا التعبير) انه يزداد ثروة ورقة وجدة ـ شأنه شأن بيكاســو الرسام عندما استلهم الفن السودانى أو اليابانى٠ انه ، بعبارة واحدة ، يحيى وان هذه الحياة التى تتصف بالحركة والتحول والنشدان (وهيهات أن تكون الحياة سكونا) يأباها صاحبنا عـلى غيره من الناس ويقول لهم انها تنـــكر وعقوق بل تفكك وانحلال انه يزرع فى العالم التفــوق والسيادة وينتمى ـ عـــلى كل حال ـ لعثرة الاخيار اولئك الذين مثواهم فى الاحياء الصامتة المتصلبة ذات الابواب الموصدة فويل لمن يطـــرقها من عقاب الادماج الثقافي وهكذا يبقي صاحبنا ينعم فيجنته مطمئنا على فاكهته التى لو أكلها آكل غيره لاهلكته٠

وهكذا نجد عالمين متقابلين العالم الذى نحيى فيه والعالم الذى نطوف من دون جدوى على مغانيه (والا حصل الخضوع للغالب) وبذلك تنعكس الفكرة والالفاظ المؤدية لها انعكاسا كليا فيؤدى معنى ضده ويستطيع المستعمر القديم ان ينام ناعم البال .

ان هذه النظريات الاوروبية الغربية هى ايضا اوروبية غربية من جانب آخر اذ انها تعتمد على فكرة خلوص الثقافات وتومىء الى الرجوع لحالة أولى طاهرة خالصة لم تشبها شائبة أوحت بها أشنع مذاهب الرجعية التى تمخض عنها الفكر الاوروبى فى القرنين 19 و 20 ثم طبقها أعنى نظرية طهارة الدماء ونقاوة السلالات التى لا يعد صفاء الثقافات الا نسخة منها ولم يكن اذن مولد هذه النظريات التى ابتكرها اعداء الاستعمار فى أوروبا ونشوؤها فى تلك التربة صدفة من الصدف ولو ان كاتبا تصدى لكتابة هذا الموضوع لكان بحثه شيقا حيث يدرس العلائق بينها وبين النظريات الملية فى القرن 19 وما بينهما من صلة وشبه وفرق ويبحث عن تاريخ العلماء الذين استعملوها وافكارهم الاجتماعية لو اعطى هذا الجانب حقه من العناية لافادنا ايما افادة فى الاطلاع على مأتى النظريات المذكورة وعلى كل فان فكرة (الاصل المشوب) التى نجدها ملازمة لفكرة الادماج الثقافى وتأثيمه انما هى فكرة اوروبة وانما تتحدث عن (الاصل المشوب) لدى الآخرين (لا لدى الاوروبيين) ولنضرب مثلا بالفرنسى أو الباريسى فى القرن العشرين ما هى بداية هذا الشوب أو (التلوث) لديهما ؟ انها لمسألة عويصة فهل فقد هذا الباريسى طهارته الثقافية الى حد يجعلنا لا نستطيع الوقوف لها على أثر أم هل بلغت هذه الطهارة حدا من الحصانة تجعله فى مأمن من فقدها وهل يوجد مكان فى الارض بلغت فيه العوامل المؤثرة ما بلغته فى باريس من القوة والعنف لا فى ميدان الازياء فقط بل فى شتى المجالات الفكرية حتى صار من العسير جدا ان نعثر فيها على تفكير أصيل .

وان هذه الملاحظة لتمهد لنا سبيل التنقل الى جانب آخر من هذه البحوث التى خصصناها – بفضل مجلة الاصالة – الى الدور الذى يقوم به الاجانب فى تطور العلوم التاريخية والاجتماعية فى هذه الفترة ، فترة ما بعد الاستعمار .

لقد عرف الادماج الثقافى – مبدئيا – بانه نتيجة الاتصال بين ثقافة غالبة وثقافة مغلوبة ومن هذه الحيثية نجد علم التاريخ أو علم الاجتماع المناهضين للاستعمار يعتبران عبارة (التغلب السياسى) مرادفة لعبارة (الثقافة الغالبة) كما يعتبران (الرضوخ السياسى) مرادفا (للثقافة المغلوبة) فهل هذه المقايسات صحيحة ؟ كلا انها من الجانب التاريخى خاطئة فان التاريخ يفيدنا انه لا وجود لصلة ضرورية بين التغلب السياسى والتغلب الثقافى ولا بين الرضوخ السياسى والرضوخ الثقافى وليس معنى هذا انه لا يوجد أبدا وبصفة مطلقة أى اتصال بين الحالين ولكن معناه ان الدولة الغالبة قد تستطيع ان تشجع صنفا آخر من الثقافة الا ان القوانين التى تجرى

على الحياة الثقافية غير القوانين التى تجـــرى على الحوادث السياسية ومعناه ايضا ان المفعول الثقافى ليس نتيجة زائدة ينتجها العمل السياسى ولنضرب عن ذلك مثلا واضحا معروفا وهو استيلاء روما على اليونان ان الرجل اليونانى الحر أصـــبح حينذاك ذميا رومانيا وصارت روما تسوس أثينا بواسطة مجلس شيوخها ولكن أثينا اصبحت تسوس روما بثقافتها وكذلك كان الامر عندما فتحت الشعوب الاخرى مملكة روما فاصـــبحت تدين للثـــقافة الرومانية بكل شيء لهذا ينبغى ان ندرس امـــور الثقافة دون ان نجعل للسياسة ســـيطرة مطلقة عليها كما انه لا ينبغى ان نستهين بتأثير السياسة عليها الى حد تجاهلها وانما خير المواقف الوســط وحتى فيما اذا كانتالسيطرةالسياسية مصحوبة بحالة ثقافية سيئة فان الثقافة المغلـــوبة تنتقم لنفسها فى آخر الامر وتلك سنة مطردة أحســن مثال عنها اولئك الفرنســـيون الذين ولدوا فى الجزائر ثم جلوا الى فرنسا بعـــد الاســـتقلال ويسمونهم (الارجل السود) Pieds noirs فانــــا نجـــد لديهـــم مـــن العـــوائد التى انتحلوها فى المأكل وفى الاسرة بل نجد غيرها من العادات لدى الجماعة الاوروبية التى لجـــأت الى فرنسا بعد الاستقلال الجزائرى وهى كلهـــا تؤكد القاعدة المذكورة •

وهكذا كثيرا ما نجد التاريخ والاجتماع لـــدى المناهضين للاستعمار (فى الفترة بعد الاستقلال) يطبقون فى أعمالهم مجرد كليشهات ويسـلطون على العلم طريقة مضادة له ديدنهم الشروع باعلان النتيجة وتاكيدها قبل الشروع فى البحث واليكم بعض العبارات التى تنم عن اسلوبهم منـــها (ان الميدان اصبح مساعدا لتبين الامر الذى اردنا ان نبينه) (غرضنا ان نبين ••• كان من اللازم ان نبين فيما بعد) (لقد حاولنا ان نظهر) •

وهكذا اصبحت نية عالم الاجتماع محصـــورة فى التزكية لا فى العرفان واصبح العلم خـــديم الاديولوجيا (ان لم نقل شيئا آخـــر ربما يكون أقبح) فليس من المستغرب ان نضم الى هــــذا المذهب فئة الماركسيين وتآليف فاليســـو وايف لاكست وبرونان ونوشى فى بعض ما كتب •

ومما يؤكد ذلك ايضا موقفهم امام جماهير هذا العالم المستعمر الذى بقى ملحا على الرفض مخلدا الى العزلة الثقافية ما بقى الاستعمار والذى اصبح اليوم يعبر عن نفسه بهذه المجلة او عن طـــريق المظاهرات ومن بينها اسابيع ملتقى التعرف على الفكر الاسلامى التى ليست اقل المظاهرات خطورة وشانا ولكنها تفاجيء القوم فيما الفوه وتقلقهمفيما أقاموه من نظريات وارادوه من تبيين وماذا عسى ان يكون موقفنا أمام طريقة تخضع الحقيقة لاديولوجيا تحتوى أنواعا من السلوك الثقافى غير متوقعـــة ولا مطابقة للبنية المعدة لها • فمما لا شك فيه ان بقاء مخلفات (أى رواســـب لا يمكن تعليـــلها) Résidus يظهـــر لنا الى أى مدى ينتهى بنا التعجيل بالاقرار واســـتعمال الاساليب العلمية المشكوك فيصحتها وان الباحث الذى يؤكد عمله قبل ان يشرع فى بحثه ليوشك

ان يترك ذلك الشيء المجهول يفلت من بين يديه وربما يكون المفلت هو الشيء الـذي كان يبحث عنه بالذات ٠

واني لاترك جانبا في هذا المقال ما نستطيع ان نسميه التاريخ المتملق لانه هو ايضا امتـداد للموقف الاستعماري الذي يرى انه حسب اولئك الذين يعاملهم معاملة الاطفال ان يقدم لهم من العلم اوهاما واحلاما ٠٠

اننا اجتهدنا ما استطعنا في معالجـة قضية التاريخ وجنسيته واستطردنا شيئا ما الى القضايا التي يطرحها تاريخ الجزائر خاصة ٠ وقد اقترحت مجلة الاصالة عبارة (مؤرخـين اجانب) ولكننا عالجنا التاريخ كما عبر عنه اجانب وحللنا طبيعة النوايا التاريخية التي افصحوا عنها بالفعل وبذلك تحاشينا الاغترار بالمظاهر والانخـداع بالالفاظ وحرصنا قبل كل شيء على اثبات ذلك السـطر الناري الذي يسطره الاستقلال في علـم وصف التاريخ وغيره من العلوم والاشياء ٠ فكل ما قد كان من قبل السطر لا يمكن ان يكون من بعـده حتى ولو انه (نوايا حسنة جدا) ٠

وقد آن لنا الآن ان نبرح ميـدان التحليل والتشريح وندخل نحن أيضا في ميدان المناظرة ـ بعد ان أعلنا هذا الدخول ـ متسائلين : هل يجب على علماء التاريخ والاجتماع الاجانب المعالجـين لتاريخ الجزائر ان يكونوا مثل ذلك الجيش الفرنسي الذين قيل عنـه انه دائما متخلف على أوانه بحرب ؟ هل يجب ان يفكروا كما في ذي قبـل والواقع اننا في ذي بعد ؟ وان يبقوا عاجزين على ان يحلوا المعرفة محل الاصـطدامات ؟ ان ما نسميه بذي قبل لم يفد كل فريق الا بأشـياء طفيفة عن الفريق الآخر وذلك على الرغم مما قيل وعلى الرغم من جميع المظاهر ان الاجنبي الـذي ينزل باقطار شمال افريقيا عقب اسـتقلالها لا يظفر الا بأفراد قلائل من ابناء جنسـه ممن في وسعهم ان يفيدوه بما لديهم من التجارب والعظات كما لا يجد الا افرادا قلائل من الجزائريين يشـعر لديهم انهم يعرفونه حق المعرفة حتى ولو كانوا من الذين يتكلمون لغته احسن منه وهكذا يتضح لنا ان هذه المصنفات التاريخية ـ من اسـتعمارية ومناهضة للاستعمار ـ ما هي الا خطان متوازيان لا يلتقيان وامتداد لانعزال عنصري متبـادل بل انعكاس لصورة الاسـتعمار الغابر ان لم يكن رجوعا اليها وربما جاز لنا ان نصف هؤلاء بأنهم قوم يحنون الى الماضي اجل ان احوال الاستعمار كانت تعوق المعرفة الحقة ولهذا يجوز الرجاء ان يكون الاستقلال عصر النهوض بها واحيائها ٠

ومن هنا تظهر لنا قيمة هـذه البادرة التي بدرت عن (مجلة الاصالة) فاستحقت بها كل شكر وثناء ٠

ان هذه المجلة التي تصدرها وزارة الشـؤون الدينية قد ضربت لنا مثلا عن نفسـها فاقترحت علينا بحثا حول المؤرخين الاجانب لا لمحـاربتهم ولكن لمحاورتهم حتى يجنح كل فريق الى التامل والتدبر ففتحت على المصراعين ابواب اعمـدتها لجميع المعلقين والملاحظين ٠

فلتسمح لي أن أعبر لها عن شكري اذ سمحت لي بالاسهام في هذا المجهود ٠

أضواء جديدة على

تاريخ المغرب

د. هشام الصفدى

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

اذا تمعن الدارس فى الخطوط العريضة لتاريخ العالم القديم فى منطقة حوض البحر المتوسط ، استرعت انتباهه عدة حقائق اساسية :

1 ـ سبق المنطقة الشرقية من بحر المتوسط فى الدخول الى التاريخ ، وتسارع تطورها الحضارى . ويتمثل ذلك فى الحضارات الرافدية ، المصرية ، الكنعانية ، الايجية .

2 ـ تاخر المنطقة الغربية من المتوسط حوالى الفى سنة ، ثم تدرج دخولها فى الحقبة التاريخية فى ازمنة مختلفة ، وعلى درجات متفاوتة من التطور .

وقد تم ذلك بتحريض قادم من المنطقة الشرقية، ويتمثل فى تحركات بشرية : لفينقيين ، اتروسك ، اغريق الذين نقلوا معهم الادوات الرئيسية للدخول فى التاريخ ، وفى مقدمتها الكتابة الابجدية : الفينيقية والاغريقية ٠

3 ـ باستثناء مصر ، تتميز المنطقة الجنوبية من حوض المتوسط بضآلة المعلومات التاريخية عنها ، حتى ان فصولا عديدة من تاريخها ما تزال تتالف من صفحات غير مكتوبة ، يضاف اليها ثغرات تتخلل الفصول الاخرى ، هذا رغم ان بقعتين من هذه المنطقة المعروفة باسم شمال افريقيا : « ليبيا » ثم « الولاية الافريقية » أى تونس منحت اسمها مرتين للقارة السوداء ٠ فكانت ليبيا سابقا ، وافريقيا لاحقا ٠ هنالك اسباب عديدة يمكن ان تقدم كتبرير للوضع الراهن بالنسبة لتاريخ المغرب القديم ٠ يرد فى مقدمتها الوضع الجغرافى ـ المناخى الذى فرض نوعا من العزلة ، نتج عنها بطء فى التطور ، وخاصة فى الانتقال من العصور الحجرية الى العصور التاريخية ٠ ثم الوضع السياسى الذى شغل تاريخ المغرب بصراعات مع شعوب مجاورة أبكر فى التحضر : من مصريين، وايجبيين ، وفنيقيين واغريق ٠ وقد عبر المؤرخ جوليان بشكل مبالغ عن ذلك : « لم يصطدم التاريخ بالبربر الا عرضا ، وذلك عند اتصالهم بالشعوب الاخرى » (I) ٠ وبالضرورة قام بتسجيل هذه العلاقات كتاب ومؤرخون وفنانون اجانب من ابناء الشعوب التى اتصل المغاربة بها ، فكان تاريخا مختزلا وحيد الجانب ، لا يخلو من تحيز ٠

ولم تتمكن الكتابة الليبية مثلا من التطور والوصول الى مرحلة يمكن فيها تثبيت اللغة فى واسطة نقل أدبية ، علاوة على تعدد اللهجات ٠ أخيرا وليس آخرا ، فقد المغرب القديم معظم مصادر تاريخه الكتابية والمادية المباشرة خلال الصراع الطاحن بين روما وقرطاجنة ، وبعد هزيمة الاخيرة ٠ مثلما فقد الكثير من مصادر تاريخه غير المباشرة والتى تغطى حقبات هامة من الالف الاول ق٠م ٠ اثر هزائم مدينة صور ثم دمارها على يد الاسكندر الكبير ، واضمحلال المدن الفنيقية فى شرقى المتوسط ٠

اذا كانت العوامل السالفة تركت نتائجها السلبية ، والعميقة الاثر ، فى تاريخ المغرب القديم ، فلن يعنى ذلك ان الوضع الراهن للبحث سيستمر بالضرورة ٠ واذا كانت مصادر تاريخ المغرب الكتابية تتميز بانها وحيدة الجانب حتى الآن ، أى انها من تاليف الآخرين ـ فان هنالك عنصرا يمكن ان يصبح معادلا لها من حيث القيمة التاريخية ، وهو المصادر المادية والكتابية المباشرة ، التى ما تزال تكمن عبر الازمنة تحت تراب المغرب وفى مواقعه الاثرية ٠ وهذه لم تلق بعد القدر الوافى من العناية والبحث ٠ ثم تاتى المصادر المادية والكتابية غير المباشرة المتناثرة فى البلاد التى احتكت بالمغرب من قريب أو بعيد ٠ ولعل من اغراض هذا البحث ان يلفت انظار المهتمين بتاريخ المغرب لا الى اهمية المصادر المباشرة فحسب ، بل والى الدور البالغ الخطورة الذى يمكن ان تقدمه المصادر غير المباشرة ايضا (2) ٠

المصادر المصرية :

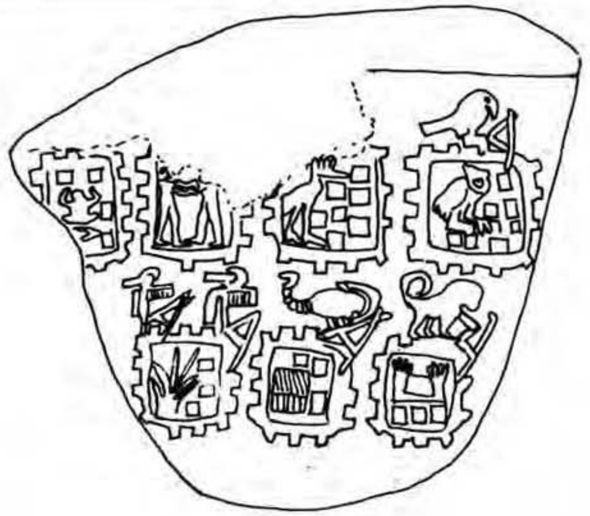
ذكرنا ان تاريخ المغرب القديم مستمد الى حد كبير من حوليات وشواهد ومستندات مصرية او ايجية ، او فنيقية ... الخ . وتتميز المصادر المصرية حسبما تضمنتها حوليات الفراعنة وافاريز رسوم حملاتهم بانها تكاد تنفرد في القاء الاضواء على مرحلة ما قبل التاريخ المغربي . غير انها لا تصل الى مرتبة الكتابة التاريخية المنهجية التي سيكون المؤرخ هيرودوت أول من يمارسها بالنسبة لتاريخ المغرب (1) . كذلك لا تتصف العلاقات المصرية ـ المغربية بالشمول ، بل تقتصر على المناطق الواقعة الى الغرب من النيل مباشرة ـ وخاصة في الواحات الغربية ـ ولا تتعدى على ما يبدو قريني او خليج السرت الكبير . اما المنطقة الممتدة وراء ذلك حتى شواطىء المحيط الاطلسي ، وافريقيا عامة فكانت أرضا مجهولة من المصريين . وقد اطلق هؤلاء على المناطق الواقعة غربي النيل اسما عاما هو imnt أي الغرب (2) كما اطلقوا اسم تهنو TEHEHU وتميهو TEMENU وليبو LEBU وغيرها كثير على الجماعات المقيمة مباشرة الى الشمال والجنوب والغرب منهم . واستنادا الى الوثائق المصرية من حوليات الدولة الحديثة ـ وخاصة من عهد رعمسيس الثالث ـ والتي تخبر عن جهود المصريين لضم مناطق الواحات الى مصر ـ يتبين ان ليبيا كانت تشمل منذ الالف الثالث على الاقل مناطق واسعة غربي النيل مباشرة (1) ، لا تنطبق مع معالم الحدود الحالية. وهذه حقيقة يشير اليها هيردروث عندما يقول : « تبدأ ليبيا من غرب النيل وتمتد حتى الاطلسي ، ويحدها من الجنوب ارض الاثيوبيين السود ذوى الشعر الصوفى » (2) .

يسيطر على العلاقات المصرية ـ الليبية جهود الفراعنة المستمرة ـ منذ العصر الثينى 3000 ـ 2700 ق.م . أى منذ عصر الملكين العقرب ونارمر ـ لدفع الليبين الذين جذبتهم ثروات وادى النيل وأراضيه الخصبة ، وخاصة البدو سكان الصحراء الليبية . كذلك افقادهم الامل فى الوصول الى مناطق المدن والحضارة لنهبها او الاستقرار فيها ، وذلك عن طريق معاقبتهم خاصة انهم كانوا يتحالفون مع الثوار فى الدلتا . وهؤلاء كانوا يرفضون الاتحاد مع مصر العليا (3) . وقد درج فراعنة العصر الثينى ، والسلالات الاولى والثانية، والدولة القديمة على اتباع هذه السياسة الدفاعية . وخلدوا اخبارها على أوابد تذكارية : **كالهراوات الحجرية ، ولوحات مزج مساحيق الزينة** . ومن ابكر هذه الوثائق التى تسجل مواضيع تاريخية لوحة لمزج المساحيق SCHNINKPALETTE اصطلح الباحثون على تسميتها : «لوحة الحصون»، تعرض مشهدا يرمز لانتصار حققه الفرعون الغامض المعروف باسم « العقرب » . فقد رسم على الوجه الاول للوحة (1) صورة سبعة مواقع محصنة باسوار ذات ابراج تقوم حيوانات ترمز الى الملك ـ من بينها العقرب ـ بتهديمها (الصورة 1) . وعلى الوجه الآخر يرى صفوف من ثيران وحمير واكباش متتالية ، وفى الاسفل اشجار (تين ؟) غنمها الملك العقرب من ليبيا o وهنالك

الى جانب الاشجار العلامة الكتابية الخاصة بليبيا (الصورة I ب) ويستنتج المؤرخ الكسندر شارف من كل ذلك ان هذه اللوحة تخلد نصرا مصريا على جيران مصر الغربيين المقيمين في ليبيا (2) • وهناك أثر ثان قد يؤيد هذا الرأى ، هو هراوة للملك العقرب نفسه عثر عليها في انقاض معبد العاصمة هيرا كونبوليس ، تصور الملك يرتدى تاج مصر العليا الابيض ويحتفل بانتصار الجنوب على تحالف يتالف من مصريين وأجانب (3) • أما الملك آها أو (مينس ؟) ـ أول ملك في السلالة الاولى ـ فهنالك عدد من الاوابد تشير الى انتصاراته على اقوام الليبيين ومصرى الشمال • وبفضل حجر « بالرمو » نسمع عن حملة قادها الملك سنفرو (أول ملوك السلالة الرابعة) لحرب الليبيين ، انتصر فيها وعاد بعد ان غنم 11000 اسير و 131000 رأس ماشية (1) • ومن الجدير بالذكر ان وثائق السلالة الرابعة تقدم معلومات لاول مرة عن علاقات ذات طابع غير حربي في العلاقات المصرية ـ الليبية • فحفيد الملك سنفرو ـ وابن خوفو باني الهرم الاكبر ـ المسمى ددفرع يتزوج اخته من ابيه واسمها حتب ـ حيريس • وقد عثر على صور هذه الملكة في مدفن ابنتها محاطة بكامل القابها الملكية • وخلافا للنساء المصريات تتميز حتب ـ حيريس بشعر اشقر وعيون فاتحة ، كما ترتدى ثيابا اجنبية • ويمكن اعتبارها اقدم ممثلة لليبيين الشقر « التميهو » ، الذين يدخلون لاول مرة عن قرب في تاريخ الدولة المصرية القديمة • والمرجح ان الملك خوفو اتخذ لنفسه زوجة ليبية هى ام حتب ـ حيريس الشقراء (2) • ومنذ هذا العهد الباكر ستتخذ مصر موقفا متماثلا من الليبيين فتكرر عبر السلالات الواحدة والعشرين أى حتى غزوة شعوب البحر حملات الفراعنة وجهودهم لصدهم ، ويتكرر معها تسجيل هذه الاعمال على أوابد ووثائق الدولة المصرية بالكتابة وبالتصوير والنقش •

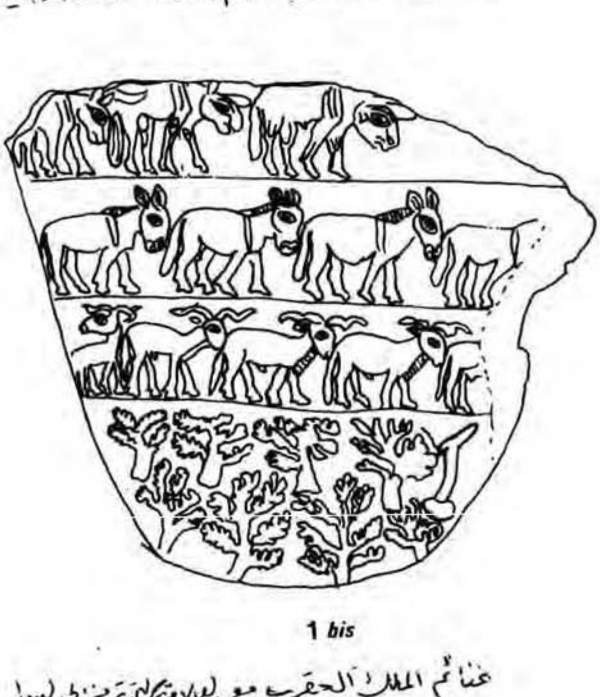
المصادر الايجية ـ الاغريقية :

لم يكن البحر المتوسط خاليا من النشاط الملاحى ، قبل أن يمخر عبابه الفنيقيون والاغريق، متجهين نحو الجزء الغربى منه ، بل كان الاخيرون ورثة حركة ملاحية نشيطة بدأها سكان جزر السيكلار منذ الالف الثالث ق•م • فعرفوا مسالكه بمراكبهم المتطاولة ذات المقدمة المرتفعة (1) المنتهية بشكل سمكة • كما شاركهم المصريون بسفن « أعالى البحار » الشهيرة ذات المجاذيف الوفيرة ، وتلاهم ملاحو جزيرة كريت « الكفيتو » KEFITU العظام ، الذين يكثر ذكرهم في النصوص المصرية ، وملاحو العالم الايجى وخاصة في العهد الميكيني • وقد استعمل هؤلاء سفنا تدفعها المجاذيف الوفيرة ، بالاضافة الى شراع مربع الشكل ربط على السارى الاوسط في المركب • ومما لا ريب فيه ان الثراء المادى الضخم والازدهار الحضارى الذى حققته الحضارة « المينوسية » في جزيرة كريت » والميكنية » فيما بعد في شبه جزيرة البيليبونيز ، يعود بالدرجة الاولى الى الحركة التجارية ـ البحرية الكثيفة التى تولتها اساطيل هذه المدن خلال الالف



1

حيوانات الملك العقرب تهدم المدن المحصنة الليبية

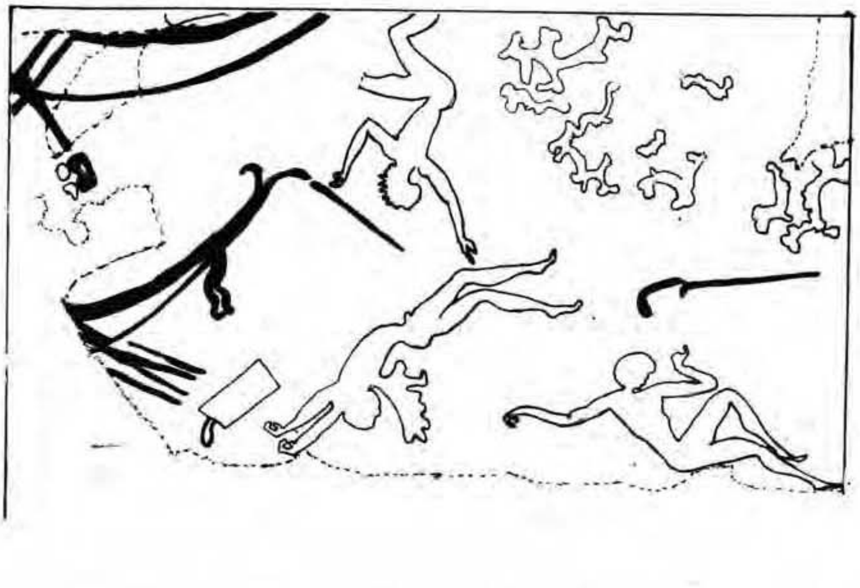


1 *bis*

غنائم الملك العقرب مع العلامة التي ترمز إلى ليبيا

الثانى ق٠م ٠ فكان الحوض الشرقى للمتوسط يشبه بحيرة داخلية ، تتبادل الدول المطلة عليها المنتجات الزراعية والصناعية وخامات المعادن ٠ ومع السلع انتقلت الافكار والتأثيرات الحضارية فى كافة الاتجاهات ، وخاصة بين مصر والعالم الايجى ، وبين مدنه وعالم آسيا الغربية ٠ ولم يوقف هذه الحركة الدولية النشيطة فى عالم ساده تعايش-دولى ، الا غزوة لشعوب همجية قدمت من اوروبا ، واجتاحت منطقة البحر المتوسط الشرقى فى حوالى 1200 ق٠م ٠ وقد عرفت باسم غزوة « شعوب البحر » ٠ أما الاثار التى خلفتها غزوتهم فكانت بعيدة الاثر ، بسبب الحريق والدمار الذى انزلوه بالمدن المزدهرة فى الاناضول وعلى طول شواطىء سورية وحتى مصر من جهة ، وبسبب تغير موازين القوى فى المنطقة من جهة اخرى (I)

قد يخيل للقارىء أن المغرب القديم بقى فى معزل عن الفعاليات والتيارات السالفة الذكر ، والتى سادت المتوسط الشرقى خلال الالف الثانى ق٠م ٠ ولعل ندارة المصادر التاريخية المباشرة تبرر ذلك الظن ٠ غير ان الواقع الجغرافى للمغرب وسير الاحداث التاريخية حوله ، تقدم دلائل قوية على ان المغرب ، خاصة شرقيه ، كان له

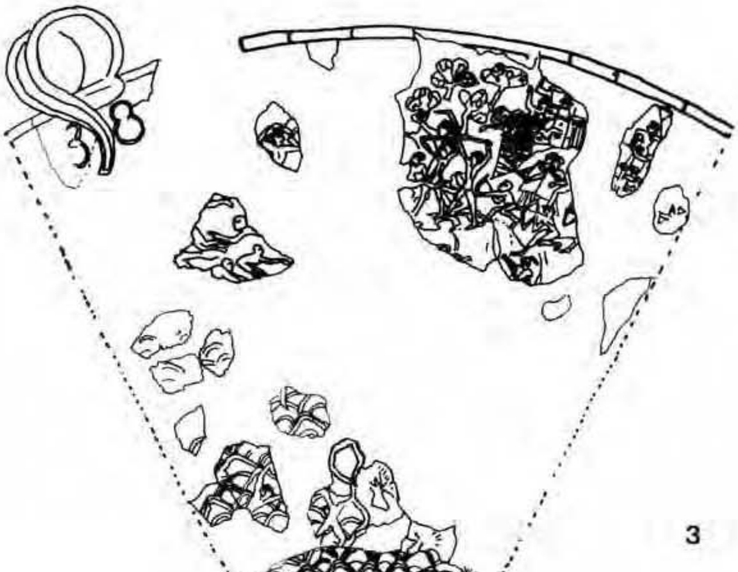


2

جنود قتلى يغرقون فى البحر قرب مركبين عملاقين للمصريين

دور هام ٠ وتتظافر الادلة المكتشفة حديثا على دعم هذا الرأى ، وعلى رفع الضباب الذى يلف تاريخه ـ تكفى نظرة الى خارطة البحر المتوسط لتبيان صلة المغرب الشرقى (ليبيا) الوثيقة بتلك التفاعلات فليبيا تقع مباشرة تجاه بلاد الاغريق الام ، التى تؤلف جزيرة كريت واجهتها الجنوبية ٠ ولا يفصل قرينى CYRENAICA عن كريت اكثر من 300 كيلو متر ٠

وهى نفس المسافة بين كريت ومرفأ اثينا ، او قيرينى ودلتا النيل تقريبا ٠ وبسبب قرب المسافة كانت جزيرة كريت شديدة الصلة مع قيرينى ، أكثر من اتصالها مع بلاد اليونان الام (1)٠وكانت الملاحة من كريت الى مصر تمر فى طريقين : مباشر ، يتوقف على تهيىء طقس مناسب ورياح غربية ، لكنه محفوف بالمخاطر ـ وآخر غير مباشر



3

مراكب سكلينية تهاجم مدينة على الشاطئ الليبي

يتجه الى قيريني ، ثم يتابع السفر الى مصر مستفيدا من الحلجان والشواطىء الرملية على طول الساحل الليبي .

وهنالك طريق ثالث طويل يدور عبر جزيرة قبرص والساحل السوري . ومما لا ريب فيه ان الطريق الى مصر عبر قيريني كان اسهل واسلم هذه الطرق البحرية . ولا يستبعد ان العلاقات الوثيقة بين الحضارات المصرية - والمينوسية ، الميكنية استفادت من هذا الواقع (2) كذلك لا يستبعد العالم ايفانز قيام علاقات مباشرة بين ليبيا والعالم الايجي .

هنالك حدث يمكن ان يقوم برهانا على قيام مثل هذه العلاقات ، ولكن في فترة تالية - يتمثل في اختيار الاغريق لمنطقة قيريني في منتصف القرن السابع ق.م لتاسيس خمسة مستعمرات . وقد قام مؤسسوا مدينة قيريني نفسها CYRENE من جزيرة ثيرا THERA ، التي تقع مباشرة شمال جزيرة كريت (2) .

وبالمثل لا يستبعد ان يكون المينوسيون قد أسسوا مستوطنات على الساحل الليبي - قبل ألف سنة ، ساهمت في التجارة الدولية . وخاصة في تصدير الثروات الزراعية والحيوانية التي اشتهرت بها ليبيا وفي مقدمتها نبات « السلفيون» SYLPHIONU (1) . ويستدل أيضا على قيام الصلات انذاك من العثور على نقش يصور مركبا منخفضا (في مقنة بين باجه وطبرقة) - زود صاريه الاوسط بشراع شكله شبه منحرف ، يماثل المراكب المستخدمة في الالف الثاني . ويحمل المركب جنودا يرفع احدهم سلاح الفأس المزدوج الشائع استعماله لدى المينوسيين . وقد يكون من المفيد لدعم الرأى المؤيد لقيام هذه العلاقات ، ايراد الاساطير التي تدور حول الموضوع ، والتي لابد وانها تحمل في طياتها قبسا من حقيقة تاريخية يماثل ما قدمته اسطورة طروادة . ومن ذلك مايذكره ديودور الصقلي عن قيام ابطال الاغريق بتأسيس مدينة مشالة عقب عودتهم من حرب طروادة . وما تذكره احدى الاساطير من أن كوروبيوس الكريتي قذفت به العاصفة الى الشواطىء الليبية فعاد اليها مرة ثانية يقود سفينة (2)

اكتشافات جديدة من جزيرة ثيرا :

أشرنا الى ان اوائل المستعمرين الاغريق الذين تذكرهم المصادر التاريخية قدموا الى قيريني في القرن السابع ق.م من جزيرة ثيرا . وكانت للاغريق مع الليبيين معارك عديدة وعنيفة ، الى ان تم اختلاط العنصرين وتعايشهما . ومن جزيرة ثيرا نفسها ترد الآن اكتشافات تاريخية هامة تلقى اضواء جديدة على حقبة تاريخية تكاد تكون ضائعة . ولربما تؤدى هذه الاكتشافات الى اعادة كتابة فصول بكاملها من التاريخ القديم .

تم الاكتشاف الاول على يد بعثة من الاثريين اليونان برئاسة العالم سبريدون ميناتوس . وقد نقبوا مدة ستة سنوات للكشف عن موقع مدينة هامة في جزيرة ثيرا ، كانت مركزا هاما من مراكز

الحضارة المينوسية (نسبة الى الملك الاسطورى مينوس) ولحسن حظ المؤرخ ، كانت هذه المدينة قد ردمت تحت غطاء من الرمال والتراب الذى شمل المنطقة فى حوالى 1500 ق٠م نتيجة انفجار بركان كبير فيها (1) • وبذلك سلم كثير من معالم المدينة من عوامل الفناء ، أو من التلف على يد السكان التالين •

هنالك فى طليعة الوثائق المادية المكتشفة رسوم جدارية FRESCOES رائعة الجمال تعرض مشاهد طبيعية متنوعة : من سنونيات تحلق بين الازهار ، أو غلامين يتلاكمان ، او رجل يركع فى وضع العبادة ••• علاوة على ذلك هنالك رسوم تعرض مشاهد تاريخية تتصل بشكل وثيق بماضى القوة البحرية التى ساعدت أهل جزيرة ثيرا على تكوين ثروتهم الضخمة • وقد عثر على هذه الوثائق فى منزل تم انقاذه من كتل الرماد فى الصيف الفائت، وكان مزينا بافريز يبلغ طوله 6,30 مترا رسم بشكل عصابة تطوف بثلاثة من جدران المنزل • وقدم هذا الافريز المصور – بعد ترميمه – وصفا مثيرا « لملحمة حربية » تماثل ملحمة طروادة ، الا ان الفارق بينهما – كما عبر عن ذلك العالم مارينا توس – ليتركز فى ان ملحمة طراودة تتالف من شعر خطته يراعة كاتب ، وملحمة ثيرا تتالف من شعر صورته ريشة فنان •

مشاهد الملحمة :

تتالف اللوحة من سلسلة من المشاهد الصغيرة، لا يتجاوز ارتفاع احدها 40 سنتمترا • تعرض تفاصيل معركة حربية دارت بين اسطول من السفن المينوسية ، وعمارة بحرية صغيرة معادية له •وكان مسرح المعركة على مبعدة من شاطىء احدى المدن الساحلية • وبعد ان تمكن المقاتلون المينوسيون من الظفر باعدائهم ، نزلوا الى اليابسة ودمروا المدينة ، واستولوا على ما فيها من اشياء ثمينة • وقد قام الفنان باعادة تركيب تفاصيل المعركة : فهنالك رجال يسقطون فى البحر من سفن غارقة (الصورة 2) وهم ينحدرون الى الاعماق ، وبالمقابل تقفز نسوة هلعات يائسات من ابراج المدينة • بينما يقوم الجنود الظافرون بدفع قطعان الاغنام والابقار المنهوبة •

وفى الواح اخرى نرى سكان مدينتين اخريين يرحبون بالمنتصرين • وهذه الاعمال تدور أمام خلفية من مناظر الطبيعة التى تحفل بالاسود والوعول والنمور والفهود وحتى بالزرافات ، اضافة الى حيوان اسطورى له رأس وجناحى نسر وجسم اسد (جريفين) •

استنادا الى معالم وجوه السكان ، وأنواع الحيوانات الاهلية التى كانوا يربونها ،والحيوانات الوحشية التى تملأ خلفية المنطقة ، يستنتج العالم مارينا توس بان هذه المشاهد الحربية دارت على الشاطىء الليبى (1) ولربما كانت المدينتان المذكورتان اما مدينتين حليفتين للمينوسيين ، او مستعمرتين لهم • وقد قام أهل المدينتين على ما يبدو باستدعاء نجدة بحرية مينوسية لتساعدهم ضد مدينة غريمة او منافسة لهم • واذا كان مارينا توس مصيبا فى هذا التفسير للوثائق المصورة ، فان الافريز الملون الذى عثر عليه فى

جزيرة ثيرا يدفع تاريخ ليبيا الف سنة الى الوراء ، أى الى منتصف الالف الثـــانى ق٠م ٠ » ولهذه الاسباب يعتبر الافريز اثمن وثيقة تاريخية أمكن الحصول عليها حتى الآن من بقايا حضـارات عصر البرونز » (2) ٠

تزداد قيمة اكتشاف الصور الملونة فى جزيرة ثيرا الى حد كبير اذا استطعنا الآن ان نضيف اليها اكتشافا سابقا ، ظل أمره مهملا مدة طويلة لخطأ فى تفسيره ٠ فقد عثر سابقا فى ما يسمى « القبر الرابع » SCHACHTGRAB من القبـــور المكتشفة فى مدينة ميكينى (فى شـــبه جزيرة البيليبونز) (1) على اناء مخروطى الشكل صنع من معدن الفضة RHYTON ٠ وكان الاناء الثمين من ضمن الممتلكات الشـــخصية الوفيرة والفنية التى دفنت مع أمراء الاسرة الحاكمة فىهذه المدينة ٠ رسم على الاناء الفضى مشهد يمثل هجوم محاربين ميكنيين على مدينة تقع على الشـــاطىء (صورة 3) ٠ ويرى أهل المدينة يقفون على برج واسوار المدينة ، وقد رفعوا ايديهم هلعا ويأسا ، وهم يشاهدون المعـــركة التى تدور رحاها امام اسوار مدينتهم بين الغزاة والمدافعين ٠ وبالنظـر الى ان المشهد المرسوم على الاناء قد تشوه وضاعت اجزاء كثيرة منه مع الزمن ، فانه يمكن فيما تبقى منه رؤية محاربين صرعى ينحـــدرون الى اعماق المياه ، ومن المحتمل جدا ان المشهد كان يتضمـن صورا للمراكب البحرية التى اشــتركت فى المعركة ٠ وفى خلفية الصـــورة ترى اشـــجار (التين ؟) ٠ ويمكن تميز المهاجمين بخوذهم ذات الذؤابة (2) . عن المدافعـــين العـــراة وحاسرى الرؤوس ، الذين يستخدمون القوس والنشـــاب والسيوف ؟ ٠ ويعود تاريخ الاناء الفضى الى بداية الثقافة الميكنية ، أى ا لىالقرن السادس عشر ق٠م

اختلف المؤرخون حول المكان الذى دارت فيه هذه المعركة ٠ واعتمدوا انذاك على احتمال وجود حيوان رسم ضمن الماء ، فسروه بانه (فرس نيل)، ليقولوا بان المعركة يحتمل انها تمثل هجـــوما بحريا على حصن او مدينة للهكســـوس واقعة فى دلتا النيل ؟ وقد شك العالم شاخرماير فى صحة هذا التفسير ونوه بأنه غير مؤكد (1) ٠ واذا قارنا بين مشهد المعركة المرســوم على الانـــاء الفضى ، والمشهد الجدارى FRESCO المصور فى جزيرة ثيرا ، لراعنا التشابه التام فى الموضوع : (معركة بحرية امام مدينة ســـاحلية) . وفى التفاصيل : (محاربون صرعى يسقطون فى اعماق الماء ومدينة تهزم) ٠ هذا بالاضافة الى الخصائص الفنية المشتركة : فى اسلوب الرسم ، وفى دقـة التعبير عن الحركة الحرة فى سقوط الاجســام فى الماء ، ومحاولة التعبير عن وجود الماء بشـــكل تموجات تتكاثف مع ازدياد العمق ٠ وهى جميعها خصائص تتميز بها مدرسة الفن الايجى ٠ اخيرا يخلد كلا المشهدين ذكرى انتصارات هامة تعتمد على غزو بحرى ٠

تقييم الشواهد التاريخية :

من المسلم به ان طبيعة المغرب ومناخه ساهمت الى حد كبير فى تطوره التاريخى ٠ فعن هـــذه المعطيات الطبيعية نشات ثلاثية البيئة : من سهل

وجبل وصحراء ، ومنها تكونت ثنائيته الاجتماعية: بدو وحضر · ولقد انتج المغرب منذ العصور الحجرية حضارة رائعة فى المنطقة التى ستتحول الى « صحراء » ، بقيت رسومها الصخرية ، وادواتها الحجرية شاهدة على قيامها وعلى صلاتها الحضارية بالمراكز المجاورة · أما السهل او شريط الحياة ، فانه غدا مع تزايد الجفاف فى الداخل مأوى للذين نزحوا عن مواطنهم السابقة، ومهدا طبعيا لقيام واحتضان حياة حضرية تعتمد على الاستقرار والزراعة وانشاء المدن · وبقدر ما كان تاريخ المنطقة الداخلية « الصحراء » غنيا بالشواهد عن ثقافة الصيادين الرعاة ـ لانها سجلت على مواد عسيرة على الفناء ـ تميزت منطقة السهل بقلة المصادر والشواهد التاريخية فى المرحلة الهامة التى سبقت بداية التاريخ فى المغرب ، أى فى الالفين الثالث والثانى ق·م الا ان هذه الظاهرة ليست دليلا على « لا تاريخية المغرب » ولا نعدو الحقيقة اذا شبهنا تاريخ المغرب القديم بصورة ضخمة من الموزاييك تبعثرت عبر الزمن الجزئيات الصغيرة التى كانت تتألف منها : فتشوه قسم ، وتحطم آخر ، وضاعت اقسام اخرى بفعل عوامل طبيعية وبشرية · ويمكن القول على ضوء الشواهد التاريخية التى قدمناها ـ من مصر ومن العالم المينوسى ـ الميكنى ومن المغرب نفسه ـ خلال هذا البحث ، بأن جزئيات من الصورة الضخمة تظهر مباشرة ، أو غير مباشرة ، نتيجة الصدفة حينا ، او نتيجة البحث التاريخى والتنقيب الاثرى احيانا · وهى تشير أى الجزئيات ـ حين يتم جمعها وتحدد العلاقة بينها ـ الى الاصل الواحد الذى كانت تمت اليه ·

واذا عدنا الى الشواهد المستمدة من الالف الثالث لاحظنا ان مصر مارست علاقات متصلة مع المغرب الشرقى (ليبيا) ، وبالمثل كان للمغرب فى نفس الفترة (عصر البرونز الباكر) تأثيرات قوية على جزيرة كريت تظهر فى انتقال فن العمارة الميجاليتية بابنيتها المستديرة واسلوب بناء قببها ، ومن كريت انتقلت هذه التأثيرات الى جزر السيكلاد والى بلاد اليونان الام · وتشير لوحة الملك « العقرب » على ما يبدو ، الى ان سكان ليبيا ـ مهما كانت حدودها الشرقية ، كانت لديهم منذ الالف الثالث مدن محصنة . وزراعة ، وتربية مواشى وحيوانات أهلية وفيرة وملابس وعادات خاصة ، وملامح اتنوجرافية محددة ، وصلات مع مراكز الحضارات الاخرى · ولا يستبعد أن كانت ليبيا متحدة مع دلتا مصر فى الاصل ولها دور سياسى وحضارى يعبر عنه « اخذ فرعون مصر التاج الابيض من ايدى الاجانب العظام الذين يحكمون الليبيين » · ثم حدث انفصال لاسباب اقتصادية تتعلق بطبيعة وادى النيل وضرورات اتحاد الجنوب مع الشمال · ولربما تشكل عودة الليبيين الى مصر فى عهد السلالتين 22 ـ 23 رجوع الى البداية التى انطلقت منها العلاقات بين المنطقتين فى باكورة التاريخ ·

اما الشواهد عن العلاقات مع العالم الايجى فقد جاءت لتؤكد حقائق عديدة وهى استمرار الصلات الحضارية خلال الالف الثانى ، ووجود المدن

المحصنة فى المغرب الشرقى واستقرار الحيـــاة الحضرية فيه رغم وجود توازن مع نمط الحيـــاة المترحلة ٠ وتكاد الوثائق الثلاثة التى قدمناها من فتـــرات ومناطق مختلفة تجمع على تاكيد هذه الصورة من التطور ، مثلما تشترك فى اعطـــاء فكـــرة عن طبيعة العلاقات التى كانت ســـائدة انذاك ٠ والوثائق تكفى لدحض الافكار السلبية على الاقل التى ارســـخها المؤرخ سالوست عن « بربرية أوائل سكان المغرب » ، والجغـــرافى سترابون» عن بداية الزراعةوالتمدن لدى اهله» ، والمؤرخون المعاصرون أمثال قوتيه وجـوليان عن « لا تاريخية المغرب القديم » ٠ ومما لا ريب فيـــه ان الشواهد المقدمة تفتح أمام المؤرخ آفاقا جديدة من تاريخ المغرب القديم ، وتضع أمامه مهمة شاقة وممتعة بنفس الوقت لجمع المزيد من المعلـــومات ، ولايضاح الدور الحقيقى الذى لعبه المغرب بالنسبة للحضارة الانسانية ٠

هـــوامش :

1) ش . جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية . تعريب مزال وبن سلامه ، ص 70

2) راجع هـ . الصلدى : نحو وعى افضل لتاريخ الجزائر ، مجلة الاصالة ، العدد 8 ، 1972 ، ص 165 ــ 177

1) Herodote, Textes relatifs à l'Histoire de l'Afrique du Nord par S. Gsell Alger 1915, p. 9

قارن تحديد هيرودوت لانحاء القبائل ومناطق انتشارها

2) راجع الجداول المقارنة لاسماء ومناطق توضع الليبيين فى مؤلف O. Bates, The Eastern Libyans 1970, p. 39 f.f.

1) J. Breasted, ancient record of Egypte 1906, vol. IV, p. 213.

2) Herodote, II, 17, 32.

3) J. Vercoutter, Fischerweltgeschichte, Bd. II, s. 242 ff.

1) لم يبق الا النصف الاسفل من هذه اللوحة المصنوعة من حجر الاردواز ، ويبلغ طولها 28 سنتيمترا ، وهى محفوظة فى متحف القاهرة ، راجع :

1) K. Lange Aegypten, Muenchen 1961, Taf.3 unten und S. 37.
2) A. Scharf, A. Moortgat, Aegypten und Vorderasien im Altertum, Muenchen 1950, S. 23-24.
3) A. Scharf, Ibid, S. 24.

2) راجع
(1) J. Vercoutter, Fischer weltgestchichte, Bd. II, S. 256
(2) A. Scharf, Ibid, S. 57.

1) انظر
(1) J. Vercoutter, Egypte et prébéllénes, 1954, P. 73.

1) راجع اثار غزوة شعوب البحر على شمال افريقيا ، وعـــلى ليبيا خاصة :
(1) A. Scharf, Ibid, S. 164-169.

1) وحدت الامبراطورية الرومانية جزيرة كريت وقيرينى فى ولاية واحدة

2) راجع
(2) F. Schachermeyer, Aegaeis und Orient, wien 1967, S. 9-12.

3) عرفت المدن باسم « البنتابوليس » وهى : قيرينى ــ برقة ــ برينيكه ــ ايينوى ــ ابو للوينا ، واعطت قيرينى اسمها لكافة المنطقة

1) انقرض السلفيون من ليبيا بسبب تهافت الاغريق الشديد على قطعه وتصديره ، وقد استعملوه فى تطييب الاطعمة والتداوى قبل معرفة توابل الهند ، فساهموا بذلك فى انجراف التربة الليبية

2) راجع جوليان ، نفس المصدر ، ص 73

1) انظر التقرير الموجز الذى نشرته مجلة « تايم » الامريكيةعن بعض نتائج التنقيب فى عددها السادس عشر ، عام 1973 ، ص 40 ، وصورة الجزء من المشهد

1) قابل وصف هيرودوت : اشرت الى الليبيين البدو الذين يسكنون على طول (شاطىء) البحر ، وفوقهم وفى داخل البـــلاد توجد ليبيا الحيوانات المتوحشة

2) اعتمدنا فى الوصف على تقرير مجلة « تايم » وعلى الصورة الوحيدة التى نشرت لجزء من الافريز (صورة 1) ، ولا شك ان نشر بقية الصور سيمكن من اجزاء مقارنات واستنتاجات تاريخية اكثر دقـــة

(1) Karo, Schachtgraben, 1930, Nr. 481, Taf. 122

2) تشبه الخوذ التى يرتديها جنود مسينيون ورسمت على اناء فخارى ، وهنالك نموذج منها اشار اليه العالم Lhote ضمن رسوم الصحراء الصخرية

(1) F. Schachermeyer, Ibid, S. 48, 63.

فى الحقيقة ليتعذر تبين حيوان (فرس النيل) فى تفاصيل هذا المشهد

الجزائر وأقطار العالم الثالث
في نظر الاتنولوجيا
في القرن التاسع عشر

د. يوسف نسيب
استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

من الشيق ان نتساءل كيف كان علماء الانتنولوجيا الاوروبيون فى القرن التاسع عشر يتصورون معشر الجزائريين وشعوب اقطار العالم الثالث على العموم ٠

ومن المعلوم ان الاكتشافات الكبرى للهند وامريكا التى جاءت بعد عصر الانبعاث الاوروبى قد أثارت فى أوروبا رغبة البحث عن الشعوب القصية وما فى معاشها من عجائب وغرائب كان ذلك عند انتهاء القرون الوسطى المتسمة بالطابع

المسيحى اللاهوتى التى كان شعارها (لا منجاة خارج حضرة الكنيسة) معنى ذلك ان الشعوب الاخرى لا تكون بطبيعة الحال الا قبائل متوحشة . فكانوا اذن يربطون كل شيء بأوروبا ونظرتها الى العالم وأوروبا تنبعث (لتحضير) العالم بحضارتها فكان (بروسبرو) (1) يرى من واجبه تهذيب (كالبان) (2) وهكذا كان شكسبير من ذلك العهد قد طرح قضية الاستعمار على البساط .

ولكن القوة الغاشمة هى التى كانت تسيطر على الموقف آنذاك فكانت شروط اللعبة واضحة ويا للاسف حيث يعلم (كالبان) و (بروسبرو) كلاهما ان للجزيرة مالكا شرعيا واحدا ولكن الاول كان يتمتع بقوة السيف فى حين كان الثانى لا يتحصن الا بقوة الحق .

وفى حوالى سنة 1830 (وهى سنة ذات اهمية تاريخية مزدوجة بالنسبة للجزائر) شرع التوسع الاوروبى واستثماره للاصقاع الغنية القصية يحاولان ان يدعما كيانهما الاخلاقى بدعائم من العلم فقامت المباحث الانتولوجية فى بدايتها ابان القرن الماضى تلعب هذا الدور اى دور الحديم العلمى وبقيت مدة طويلة وهى تحمل فى جبينها تلك الوصمة ـ وصمة الخطيئة الاولى ـ .

ونشر اوغست كونت نظريته سنة 1830 مبنية على نموذج التطور الثلاثى حسب قطبين احدهما يتمثل فى جهالة التوحش والآخر فى اشراق نور الوضعية فاغرت هذه النظرية عقول الناس ومعنى ذلك ان اشراق نور الفكر وايناع بساتين الاخلاق انما هما فى أوروبا ربة المحاسن اما مجاهل الجهالة وانحطاط الاخلاق فموضعهما فى المجتمعات النائية القصية ذاك مع حكم به سداة الاتنوجيا فى بدايتها فاتحد الزمان بالمكان واطمئنت الضمائر بحصول هذا القران أى ان النائى القصى والبدائى الاصلى اصبحا شيئا واحدا فى ذهن الرعيل الاول من علماء الاتنولوجيا كما ان القريب الدانى والمتحضر المتمدن يمتزجان فى الثقافة الاوروبية المعاصرة لهم .

ان ذنب المجتمعات (المباينة) هو مباينتها لاوروبا فهى اذن مجتمعات (ليس لها تاريخ) واتفق ان العالم (بوشى دى برت) عثر فى حفرياته وتنقيبه عما قبل التاريخ على بعض الادوات البدائية (سنة 1829) فخطا القوم بنظريتهم خطوة جديدة فقالوا ان الادوات التى تستعملها الفئات الافريقية وهى المسماة عندهم (بدائية) هى نفس الاشياء (تقريبا) أو مثل الاشياء التى عثر عليها فى الرواسب او الغيران (وبعبارة واحدة) : كانت الاتنولوجيا الناشئة تظن أنها عثرت على الانسان الذى انقرض منذ آلاف السنين واندرست ثقافته وتعتقد انها وجدته حيا يرزق .. فى المجتمعات التى سميت فيما بعد اقطار (العالم الثالث) .

لا شك ان لهذا الانسان الذى نجا من غير الزمان ميزات عقلية وبيولوجية معينة فهو غير

1 و 2) بروسبيرو وكاليان من الاشخاص الخرافيين الذين انشاهم شكسبير فى روايته (العاصفة) يمثل الاول السيد المتحضر غاصب الجزيرة ويمثل الثانى القوة المتوحشة الثائرة ضد الغاصب

قادر على (التنظير) أى انشاء نظرية ـ ذاك ما ما زعمه باحثو المدرسة الاحيائية وهو ايضا متقيد بالمحاكاة أى التقليد ، محكوم عليه بالركود وعدم التطور هذا هو الانسان المتوحش العاجز عن تصور المعانى وادراك ما بينها من ارتباط محمول على اللجوء الى (التصورات الجماعية) أى الى مزيج من العقل والعاطفة · وهكذا نشأت نظرية (التعليل العقائدى causalite mystique الغامض) (1) التى أصبحت احدى دعائم الفكرة التى أطلق عليها صاحب كتاب (النفسية البدائية) عبارة (ما قبل العقل) PRELOGIQUE

وقد كانت هذه الصورة فى حقيقتها تمهيدا يزعم نفسه علميا وهو داخل فى الاطار السياسى الذى وضعه الاستعمار فالاتنتولوجيا فى القرن التاسع عشر وظهور الظاهرة الاستعمارية فرسا رهان ورضيعا لبان احدهما يساند الآخر اما عن قصد او بدون قصد فاذا شرح لنا المتحضر حالة المتوحش غارقا فى الجهالة تعين اذن تهذيبه وتمدينه واسرع القوم الى اصدار حضارتهم وابرمت الصفقة التى نعرف محتواها فان ما زعموه من (رسالة تمدين) ما كان الا دعوى خاطئة يستظهر بها مجتمع غالب لاستعباد مجتمع مغلوب على أمره والقضاء على كيانه الجسمى والثقافى وان جميع عمليات الابادة تتخذ ستارا من الحياء والاخلاق تنسجه على منوالها الخاص ·

وما ان استقر المصر فى بلد المغلوب حتى طفقت الادارة الاوروبية تحاول بجميع الوسائل ان تتعرف على (الاهالى) وأن تعلم ما هى المقاييس والحاجيات الموجودة فى تلك الفئات حتى تكون مستعدة لمجابهة رد الفعل منها · ان بدرت منها بادرة فانحدرت المباحث الاتنولوجية الى مستوى وظيفة التطلع أو الاستطلاع وهكذا شاهدت الجزائر عشرات من ضباط (الشؤون الاهلية) وصغار المعلمين والرحالين والمبشرين الغربيين يرتجلون علم الاجتماع ويعدون انفسهم علماء فى معاش الاهالى.

أجل ان فى بعض ما درسوه لفضلا اذ صوروا لنا طبق الاصل واقعا يصعب تحريفه وهو اليوم فوق المتناول لانه واقع زال وانقرض بل انهم تركوا لنا وثائق وحيدة فى نوعها لانها ثمينة وفريدة نقول ذلك (مثلا) عن القاموس الواسع الذى خلفه لنا الاب دى فوكو فى لغة (تاماشك) وهى لغة ابناء الهجار ولو لم يقم بذلك العمل لكان من الصعب علينا اليوم ان نأتى بمثله وقل مثل ذلك عن العمل الذى أتمه عسكرى آخر وهو الجنرال هانوتو الذى جمع ديوانا حافلا عن القصائد القبائلية سجلها بالحروف اللاتينية حوالى سنة 1860 ومع هذا نلاحظ ان نية علماء الاتنولوجيا فى القرن الماضى لم تكن فى غالب الاحيان علمية صرفة فقد كانوا ينظرون الى الاشياء بمنظار شعورهم بالتفوق وفى اطار الاحتلال والتغلب فكانت العينة الثقافية التى يحطبها اولئك الحاطبون فى غاب العجائب والغرائب والنوادر والشواذ

1) من معانى (مستيك) بالفرنسية العقيدة التى يكون مبعثها العاطفة وقد عبرناه بالعقائدى لا الصوفى وهى من معانى مستيك

معرضة للتشويه والتحريف حتى فيما يكتبـــونه لنعتها ووصفها .

أما التحليل نفسه فناهيك به من تحليل ! ان غايته الاساسية مشبوهة اذ يرمى الى اخبـــار السلطة المتعسفة فلا مناص من أن تكون الدراسات كلها تهدف الى تزكيـــة الواقع الاســـتعمارى وتبريره . ألم يكن الهولنديون (من سنة 1870) يعلمون حكام مستعمراتهم فى المحيط الهادى علم الانتنولوجيا ؟ أما فى بلادنا الجزائرية فقـد كان عدد كبير من حكام (الاحواز الممتزجة) يصـفون الاهالى وما فى حياتهم من أشياء ملهية او مخيفة فنظروا الى الحياة الريفية بهذا المنظار لذلك نجـد عددا كبيرا من النصوص التى تصف المظاهــــر الدينية عند الجماهير الشعبية كمناظر غريبة فى نفسها ولكنـــها مخيفة فى عواقبها والتفتوا الى الزوايا بمزيد العناية لانها كانت تحتضن أصـل المقاومة التى لا تقهــــر وثارت نقمة هانوتو على (الطريقة الرحمانية) لانها سببت ثورة (بوبغلة) فى عهد المقرانى .

وفى الحقيـــقة لـــم يكن علـم الانتنولوجيا الاستعمارية علم الانسان الشامل ولـم يبحث فى مختلف حضارات آسيا وافريقيا وأوروبا وأمريكا والمحيط الهادى للتقريب بين شتى هذه الحضارات ولم يقم بنفسه كدراســـة تفارقية بـين الفرق والحضارات باعتبارها حرة متساوية فى الحقـوق ولكنه جعل افتراضه ونتيجته فى حين واحـد أن المجتمعات فيما قبل الطور الصناعى (ولا سـيما مجتمعــــات مـا قبـــل الطـــور الكتـابى) اعنى المجتمعـات التى لـــم تيسر لهـــا اسباب تاريخية معينة معرفة الفحم والآلة الصنـــاعية كلها فئات منحطة أى ان القوم طبقوا علينا أوهاما من الحكم أو أحكاما من الوهم لا قبل للعلوم بهـــا

ان الباحثين فى عالمنا الثالث لجد شاعرين بهذا التحريف للواقع والتشويه للحقيقة وقد آن لنا — حيث طوينا تلك الصفحة من مغربنا — أن نجعل بلادنا فى علم الاجتماع ذاتا تبحث عن نفســها لا موضوعا يبحث فيـــه وقد حــــان أن نرجع علم الاجتماع البشرى الى منزلته الحقيقية والى رسالته الحقة التى تجمع كل صفات الوضعية والخصــوبة والواقعية والحرية بل تتضمن أيضا — ولم لا ؟ — أصول المقارنة والمناظرة .

المؤرخون الالمـان والجزائر

د٠ ابو العيد دودو
استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

ليست علاقة المؤرخ بالتاريخ هى علاقة الرحالة به ، فارتباط المؤرخ بالتاريخ اوثق ، وصلته به امتن ، ومع ذلك يمكن ان يعتبر الرحالون الالمان الذين كتبوا عن الجزائر ، مؤرخين بشـــكل او بآخر ٠ فمن النادر ان تجد بينهم من لم يهتـم بتاريخ الجزائر فى طور من اطوارها ، ويحاول ان يقدم صورة عنه ، ولو كانت مختصرة غير وافية ٠ وكثيرا ما تكون هذه الصورة المختصرة تمهيــدا لدراسة نفسية الشعب الجزائـرى ، وعاداتــه وتقاليده ، وأساليب حياته وطرق معيشته ، ولمـا تخلفه الاحداث التاريخية فى ذلك كله من آثــار وسمات خاصة ، وبعبارة موجزة لربط ماضيــه بحاضره ٠ وهذا ما يجعل هذا الرحالة يختلف عن ذلك فى تناول التاريخ واختيار الفترة الملائمــة للجوانب التى يريد معالجتها ٠

وكانت مصادرهم متنوعة ، وتاتي في الدرجة الاولى المصادر التاريخية المحضة وكتب الرحلات، سواء كانت المانية او أجنبية ، ثم التجارب الشخصية والروايات الجزائرية والاجنبية . وهذه المصادر الاخيرة في نظري أهم بكثير من غيرها ، لانها تقوم على شهادات أناس عاصروا الاحداث ، وشاهدوها عن قرب ، وعرفوا حقيقتها والطريقة التي تمت بها ، وقلما يلحقها التشويه ، خاصة اذا كانت قد صدرت عن انسان عادي ، لا مصلحة له في التزوير ، وسجلت من طرف رحالة نزيه ، ولو انه من الصعب التاكد من نزاهته .

ولعل سيمون بفايفر هو الالماني الوحيد ، الذي اعتمد على تجاربه الشخصية وعلى ما سمعه من أفواه الجزائريين .فقد أكد (أنظر رحلاتي وسنوات سجني ... ص 101) انه ينقل ما رواه له الجزائريون . صحيح انه لم يقدم اي ضمان على صحة ما روى له،ولكنها في اعتقاده، توضح بعض ما ورد في المصادر الفرنسية . وقد تكون هذه التحفظات ، التي أبداها بفايفر ازاء الروايات الجزائرية ، دليلا على صدقه ونزاهته ، ولعل هذا أيضا ما حمل مقدم كتابه فريدريش شميتهنر على أن يصف كتاباته (ص 5) بأنها تمتاز بالبساطة والصدق .

واعتمد فيلهلم شيمبر على ملاحظاته الخاصة وعلى ما حدثه به بعض الجنود ، الذين شاركوا في عدة معارك ، وكان لهم دور في بعض ما وقع من جرائم واعتداءات ، وكان من بينهم عدد من مواطنيه ، سبق لهم ان وصلوا الى الجزائر مع الحملة الفرنسية . واستمد بعض معلوماته من جهة اخرى من الجزائريين ، الذين اتيح له ان يقيم معهم علاقات ودية . وحين يتحدث عن العقيدة الاسلامية وتاريخها وتعاليمها يلجأ شيمبر الى من كتب عن هذا الموضوع قبله ، وما ذكره يشبه الى حد كبير ما ورد في كتاب الراهب الفرنسي دان « تاريخ البرابرة والقراصنة » ، الذي نشر سنة 1637 ، مما جعل حديثه هذا ذا صبغة صليبية واضحة ، ولكن صليبيته هذه تنعدم بمجرد ان يبدأ بوصف علاقاته بالجزائريين وصلاته بهم .

واذا كان شيمبر قد اعتمد على مراجع أغلبها اجنبية ، خاصة في حديثه عن تاريخ الجزائر ، فان مواطنه فرديناند فنكلمان يعتمد في كتابه « تاريخ احتلال الجزائر من طرف الفرنسيين سنة 1830 »، وقد أصدر كتابه عام 1832 ، على سيمون بفايفر وعلى مصادر فرنسية متنوعة ، ولا سيما كتاب ضابط الحرس الفرنسي رونودو ، الذي ترجم الى الالمانية ونشر سنة 1830 ، واستفاد كذلك مما كتبه الشاعر الايطالي فيليبو بنانتي في مؤلفه « مغامرات فيليبو بنانتي وملاحظاته عن سواحل البلدان البربرية » . وقد ترجم الى الالمانية ايضا وصدر سنة 1824

اما الامير النمساوي فريدريش شفار تسنبيرغ فقد شارك في الحملة الفرنسية ، وهو لهذا شاهد عيان فيما يخص تاريخ الاحتلال ، مما يجعل لكتابه اهمية كبيرة . وتقوم الفصول الاخيرة من كتابه

« التفاتات الى الجزائر واحتلالها من طرف القوات الملكية الفرنسية فى سنة 1830 » ، الصادر عام 1837 ، على ملاحظاته الخاصة ، التى كان قد حرص على تسجيلها فى يومياته فى حينها ・ أما الفصول الاولى ، التى يحتوى عليها القسم الاول ، فقد اعتمد فيها على الرحالة الانجليزى توماس شو ، صاحب كتاب « رحلة توماس شو فى ولاية الجزائر » ، الذى صدرت ترجمته الالمانية فى سنة 1765 ، واعتمد كذلك على ف・ شيلر ، القنصل الامريكى ، مؤلف « موجز الجزائر » الصادر سنة 1826 ・

وسلك الطبيب الالمانى آدولف فون شونبيرغ نفس المنهج ، فقد شارك هو الآخر فى الحملة الفرنسية ، وسجل فى الفصل الاول من كتابه « نظرات على الاحتلال الاخير للجزائر وتاريخها واستعمارها الحديث » ، الذى نشره عام 1839 ، اليوميات ، التى كتبها فى الميدان ・ وتناول فى الفصل الثانى ثمانية من دايات الجزائر ، ابتداء من الداى مصطفى (1798 ـ 1805) الى حسين باشا ، الداى الاخير ・ وقد كتب تاريخهم ، فيما ذكره فى المقدمة ، اعتمادا على معلومات ، زوده بها شخص ، لم يذكر اسمه ، عاش فى الجزائر أيام الحكم التركى مدة طويلة ، وكان شاهد عيان لبعض ما رواه من اخبار ومعلومات ، ولكن شونبيرغ لم يكتف به ، بل استعمل مصادر أخرى لم يحدد طبيعتها ・ وكانت مصادر الفصل الثالث والاخير ، الذى تناول فيه المناخ الجزائرى والحركة التجارية والصناعية ، فرنسية بحتة ، من ضمنها بعض الوثائق والتقارير الرسمية ・

ويعتبر موريتس فاغنر افضل من غيره بكثير ، فقد تناول فى كتابه « رحلات فى ولاية الجزائر فى سنوات 1836 ، 1837 و 1838 » ، 1841 ، المصادر ، التى اعتمد عليها ・ تناولها فى المقدمة ، وهذا ما لم يفعله غيره من الرحالين الالمان على هذه الصورة ・ فاخذ على الرحالين توماس شو الانجليزى وبيصونيل الفرنسى ، وقد نشر كتاب هذا الاخير « رحلة فى سواحل البلدان البربرية » عام 1838 ، ان كتابيهما يتسمان بالجفاف ويهتمان بجانب واحد ، ويقول فاغنر (ج 1 ص 17) ان المؤلفين قد وجها اهتمامهما لدراسة الآثار ونسيا فى غمرة ذلك الانسان ، الذى هو على حد تعبير غوته ، اهم شيء فى اى مكان كان ・ ويشكو المؤلف الالمانى (ص 18) من عدم صدور كتب جيدة عن الجزائر منذ الاحتلال ، فالكتب العشرون او الثلاثون ، التى صدرت حتى ذلك الحين ، تقتصر على معالجة الناحية السياسية او الناحية الاستعمارية ، ويفضل من بينها « الحوليات الجزائرية » لبيليسيي ・ ويعترف فاغنر : لا يعرف من كتب الرحلات الحديثة سوى ثلاثة كتب ، أما البحوث العلمية فهى متناثرة فى المجلات المتخصصة ・

وهذه الكتب هى « رسائل من الجنوب » لتوماس كامبل ، و « سيميلاسو فى افريقيا » لبوكلر ـ موسكاو ، و « رحلة فى ولاية الجزائر » لروزيه ・ ويصف الاول بانه كان دون شك شاعرا انجع منه رحالة ، فما يجده الانسان عنده أقل مما يجده فى انطباعات السائح العادى ・ ويصف

الثاني بأنه اكثر سطحية من الاول وانه اصلح لوصف الحياة في قصور النبلاء منه لوصف الحياة البدوية واكتشاف حقيقتها • ويفضل الثالث عليهما (ص 91) ، ولو انه اكتفى بوصف مدينة الجزائر والبليدة والمدية ووهران ، ويثنى فاغنر على مواطنيه شيمبر وميليتس •

ويذكر فاغنر (ص 21) انه كتب القسم التاريخي عن الجزائر بعد دراسة دقيقة للمصادر القديمة والحديثة ، واستمد معلوماته عن تاريخ الجزائر الحديث من الحوليات الجزائرية لبيليسيي، ومن محادثاته مع بعض الشخصيات الهامة ، التي عاشت الكثير من الاحداث التاريخية ، فنقل عن صديقه الضابط السويسري مورالت قصة اللقاء ، الذي تم بين الامير عبد القادر وبوجو في التافنة واخذ فاغنر أيضا بعض المعلومات عن المارقين الالمان ، الذين عاشوا في الجزائر مدة طويلة ، وخاصة مارق يدعى بودوان ، قال عنه انه اصبح عربيا بأتم معنى الكلمة ، يحسن اللغة العربية ، ويتكلمها مثل اى رجل من رجال الدين • ثم الماني آخر ، اتخذ اسما عربيا ، وهو بن حميدو ، وكان اسمه الحقيقي غايستينجر ، حارب الى جانب الامير في عدة معارك ، منها معركة المقطع الشهيرة ، وكان فاغنر قد التقى به أيام اقامته بمعسكر ، عاصمة الامير • وبعد معركة المقطع وجهه الامير الى المغرب ليسلم هدية الى السلطان مولاى عبد الرحمن ، وهي عبارة عن عربة للذخيرة ، غنمها الامير في معركة المقطع •

ويذكر فاغنر ان الامير قال لغايستينجر عند سفره الى المغرب : « ابق هناك اذا شئت • اما اذا كنت تحبني ، فما بي حاجة الى ان آمرك بالعودة •» وسافر الالماني ، وكان قد أسلم في أثناء ذلك ، الى المغرب ، واشترى مقهى بالمال الذى زوده الامير به ، ولكنه عاد في النهاية الى سيده الامير ، فعينه مديرا لمصنع الذخيرة بتلمسان • ويضاف الى هذين المانيان آخران ، هما فندلين شلوصر ، مروض السباع في قصر باى قسنطينة ، وسند ، مدير معمل الاسلحة في المدينة نفسها • وكان هذا الاخير قد وقع في الاسر بعد انضمامه الى الفرقة الاجنبية ، فحمل الى المرابط سيدى علي بن عيسى في بلاد الجرجرة ، فأرسله هذا الى باى قسنطينة الذى زوجه واعطاه دارا وزوده بالمال لفتح معمل للاسلحة (ص 391 ، ج 2 ص 332) •

ويعترف المؤلف (ص 21) بأنه قد اخذ بعض المعلومات عن المواطنين الجزائريين ، وقد حضر بنفسه أحداثا بالغة الاهمية ، فسجل في كتابه ما شاهده في الحملات الثلاث ، التي شارك فيها عضوا في اللجنة العلمية ، وهي حملة البليدة ورغاية ، وقسنطينة • واستمر فاغنر يسجل مذكراته الى ان ترك الجزائر في شهر يونيه سنة 1838 ، وذلك بعد ان زار جميع المناطق ، التي كانت فرنسا قد احتلتها في ذلك الحين ، وبعض المناطق التابعة لدولة الامير عبد القادر •

اما كارل فون ديكر فقد رجع في وضع كتابه « الجزائر والحرب الدائرة هناك » ، الذى نشر عام 1844 ، الى كتابات بيليسيي ، وبوكلر موسكاو ، وروزيه ، وفاغنر • وكان قد زار الجزائر عام 1842

ليكون قريبا من أحداث الحرب واوضاعها . وأوضح ديكر في مقدمة كتابه انه لا يريد كتـــابة تاريخ الحرب الجدير بالاهتمام ، فتاريخ ذلك كله لم يحن بعد وقت كتابته ، وانما أراد الحديث عن الحـرب الجارية في الجزائر . واعتمد ديكر كذلك على ما كتبه فريدريش شفار تسنبيرغ ، ونقل بعد فقره ليستشهد بها .

ويصف ديكر كتاب فاغنر بانه احسـن كتاب صدر عن الجزائر باللغة الالمانية ، ويحذر القارىء من ان يتصور ان موريتس فاغنر متعصب لفرنسا، لانه اهدى كتابه الى ولى العهد الفرنسى ، فالواقع خلاف ذلك ، وينصحه بالمضى فى القراءة ، حتى يكتشف بنفسه عكس ما يوحى به الاهــداء . فمواطنه فى نظره بعيد عن التعصب ، وكان همه الاول والاخير اعطاء صورة صادقة عن الجزائر فى جميع الميادين .

وهناك من الرحالين الالمان من لا يعتمد على من سبقه اطلاقا ، وانما يكتفى بتســجيل تجاربه الخاصة . وهذا ما فعله كليمنس لامبينغ فى كتابه « مذكرات عن الجزائر » ، الذى نشره سنة 1844 ، اذ وصف فيه اصدقاءه الجـــزائريين وحياتهم ، وتحدث عن اهتماماتهم العامة ، كما وصف بعض المعارك التى شارك فيها ، وكذلك المناطق والمدن ، التى زارها واقام فيها فترات متفاوتة .

ومن الضرورى ا نتتســـاءل بعد هذا عن الاســباب ، التى حملت الالمان على الاهتـــمام بالجزائر ، والعناية بتاريخها ، والحرص على وصف مظاهر الحياة فيها بدقة . والواقع ان هذه الاسباب تكاد تكون واحدة عندهم جميعا ، فهذا ما تثبته لنا تصريحاتهم على الاقل . لقد اعتبر الالمان احتلال الجزائر أهم حادثة وقعت فى القرن الماضى ، وقد رأوا ما سيكون لهذا الاحتلال من ابعاد سياسية فى أوروبا وافريقيا على حد سواء . فقد فتح امامهـم آفاقا جديدة ويسر لهم سبل الهجرة والمغامرة . والهجرة تتطلب معرفة بظروف المهجر وأوضــاعه المختلفة ، ومن هنا كان لابد للمهاجـــر من كتب وأدلة سياحية ، وخاصة اذا كانت البلاد ، التى يريد ان يهاجر اليها ، خصبة التربة ، فاتنـــة المناظر ، شاسعة الاطراف .

ولم يدع بفايفر صراحة الى الهجرة ، ولكنـــه يتحدث (ص 231) عن روعة الجزائر ، وخصوبة أراضيها ، فيقول : « كثيرا ما فكرت ، بعد عودتى الى اوروبا ، فى دولة الجـــزائر ، فى وضعها السابق ، وفى وضعها الراهن ، وفى الوضع الذى يمكن ان تكون عليه فى المستقبل . لقد آلمنى ان تظل هذه البلاد الرائعة فى بعض اجزائها ، الغنية بمنتجاتها ، التى يمكنها ان تمد الملايين العديدة بالطعام والغذاء ، وتكون بالنسبة لاصحابها الجدد ذات منافع لا حدود لها ، هكذا قفراء غير مستغلة ، لان الفرنسيين اقتصروا فى صراعهم مع أهلها على الجزائر وحدها تقريبا » .

ويرى شفار تسنبيرغ (ص 3 ـ 4) ان ما حدث فى افريقيا قد جلب اهتمام الرأى العام ، نظرا الى ما سيكون للوجود الفرنسى فى شمال القارة من اثر كبير فى تاريخ العـــالم ، ولذلك فان كتابه سيكون ذا أهمية كبيرة ، لانه يتضمن وصفامتنوعا

وبعيدا عن التحيز للحملة الفرنسية ، كتبه شاهد عيان • ويعتقد ان القصص التى تاتى متاخـــرة فى التاريخ تعتبر أصدق من الاخبار الاولى ، لان هذه غالبا ما تكون متحيزة . تتحكم فيها الاحـكام المسبقة • ويؤكد على ضرورة المعلــومات ، التى يقدمها فى كتابه بالنسبة للمؤرخ والســـياسى والعسكرى . فالنزول فى شواطىء قارة اجنبيـة يتطلب معرفة كاملة بخصـــــائصها واوضاعها السياسية واجواء مناخها وطبيعتها ، لا سيما وان موانىء شمال افريقيا ستكون ذات اهميـة كبيرة بالنسبة لاوروبا •

ويقدم شيمبر (ص 160 وما بعدها) نصـــائح لمواطنيه ، الذين يرغبون فى الهجرة الى الجزائر ، فينصحهم بعدم الاختلاط بالسفلة والاوباش،الذين قدموا الى الجزائر للسلب والنهب ، ويحـــدد لهم الاماكن . التى لا يتعرضون فيها لهجومات العرب ، ويصف لهم الطرق . التى يجب اتباعها للحصول على رخص الهجرة من الدوائر المعنية ، كما يحدثهم عن وسائل العيش فى الجزائر وغلاء المعيشـــة • ويحذرهم من الالتحاق بالفرقة الاجنبية ، ويطلب منهم ان يتجنبوا تلك التصرفات التى صدرت عن بعض مواطنيه ، وكانت نتيجتها ان اصبح الاسم الالمانى محتقرا فى الجزائر •

ويفخر موريتس فاغنر (ج 1 ص 5) فى الكلمة التى أهدى بها كتـــابه الى لويس فيليب ، دوق اورليانس ، بان بلاده تشـــارك فى تأســـيس المستعمرات الاوروبية فى شمال افريقيا ، فالجندى الالمانى يحارب الى جانب الجندى الفرنسى ,والفلاح الالمانى يقوم باصلاح الاراضى الى جانب المستعمر الفرنسى . والعالم الالمانى يعمل مع العالم الفرنسى لاكتشاف تاريخ شمال افريقيا القديم • والغريب ان يفخر فاغنر أيضا بأن الهدف من ذلك كله هو نشر الحضارة والحرية فى الاراضى الجزائرية ، التى كانت فى القديم مزدهرة عامرة ! ويرجو فاغنـر (ص 20) بعد ذلك ان يكون كتابه دليلا أمينـــا للسائح والمهاجر ،الذى يريد ان يستقر فىالجزائر بصفة دائمة ، ومصدرا مهما لمن يهتم بدراســـة الشعوب وطباعها واسلوب معيشـــتها • ويؤكد بدوره على الاهمية ، التى يكتسبها شمال افريقيا يوما بعد آخر ، لان فرنسا ، فى نظره ، ســـتعلم سكان الجزائر ان وظيفة الانسان لا تتمثـــل فى محاربة اخيه الانسان . وتمزيق لحمه ، واهمـــال أراضيه الجميلة الخصبة المعطاء !

ونجد لودفيغ بوفرى فى كتابه « الجـــزائر ومستقبلها تحت الحكم الفرنسى » ، الذى صـــدر سنة 55 ، يمثل نفس الافكار ، فهو يعتبر الجزائر بلادا صالحة جيدة . يمكن استعمارها واستغلالها، ويقدم نصائح الى ابناء بلاده الراغبين فى الهجرة ، ويشير الى ان هناك احكاما مسبقة ، تتعلقبالهجرة الى الجزائر . مبعثها عدم معرفة البلاد على حقيقتها والاطلاع على أوضاعها من جهة ، وجشـــع بعض الالمان الذين وصلوا الى الجزائر من جهة ثانية • ويؤكد (ص 18 ــ 19) ان الرغبة فى نفع مواطنيه والحيلولة دون هجرة الاسر بناء على ما يشيعه بعض المخادعين هو الذى دفعه إلى وضع كتابه هذا •

ويصف بوفرى المناطق الصـــالحة للزراعة ، ويعترف (ص I9) بأن الاوروبيين ، الذين كانــوا عاجزين عن الحصول على قوتهم اليومى فى بلادهم قد تمكنوا من كسب ثروة . تجعل الفرق بين مـا كانوا عليه فى السابق وما هم عليه الآن واضحا تمام الوضوح ٠ وهو يقدم لهم هو الآخر معلومات متنوعة عن طبيعة البلاد ، ومناخهــا وآثاره ، والامراض . التى يمكن ان يتعرض لها المهاجـر الالمانى ، ويبين كذلك طرق الاتصال بالادارات الخاصة ، التى تسهل لهوسائل الانتقال الى المناطق الآمنة ، ومحاولة الاستقرار فيها ٠

وقد اهدى فون بوفرى كتابه لنابليون الثالث ، ونوه فى الاهداء بالاعمال الجبارة . التى تقوم بهـا فرنسا ، من أجل بناء حضارة جديدة ، تحل محل الحضارة القديمة . تحت راية المسيحية ! ويبدى اعجابه بالازدهار ، الذى بدأ يعم مناطق الجـزائر المتنوعة o

وهكذا نرى ان الجزائر كانت بالنسـبة للالمان مهجرا جديدا ، يستطيع ان يعيش الالمانى فيه فى هناء ورفاهية ورخاء ، كما صرح بذلك فرديناند فنكلمان (ص 6I) ، فالجزائر بالنسبة له مستعمرة رائعة . والالمانى فيها أكثر كرامة وأوفر عزة من الجزائرى ، لان فرنسا تحمى الالمـانى كما تحمى غيره من الاوروبيين ،ولا تسمح للجزائرى بأى نوع من التحدى والمقاومة ٠ وهذا ما جعـل فنكلمان يتنبأ (ص 7I) بأنه لن يمر وقت طـويل حتى يصبح عدد الاوروبيين فى المناطق الخصبة اكثر من عدد السكان الاصليين !

هذا ولا تخلو كتابات الالمان من اظهار العـداء للجزائر . التى اهانت اوروبا لمدة طويلة ، وكان ذكر اسمها مجردا يثير الرعب فى قلوب ابنائها ، مما جعل شونبيرغ يعترف (ص 62) بأن اسـم الجزائر لا يحمل على التفكير فى جمال سمائها ، وصحية مناخها ، وخصوبة أراضــيها بقدر ما يحمل على التفكير فى الآلام . التى عرفها العبيـد المسيحيون فيها ٠ وهذا ايضا ما جعل كتاباتهم تتسم بالطابع الصليبى فى اغلب الاحيان ، فقد أشفت فرنسا غليـــل بعضهم فى الانتقام من الجزائريين ، فيصفونهم بالهمجية على غرار ما فعله بقية الاوروبيين مما كتبوا عن الجزائر ٠

لم أتناول فى هذه الدراســة جميع الرحالين الالمان ، فكتب الكثير منـــهم لم يمكننى الاطلاع عليها بعد . وانما اقتصرت على بعض من اتاحـت لى مجهوداتى الفردية معرفة ما كتبوه عنا ٠ ومـع ذلك أرجو ان اكون قد قدمت فكرة تقريبية عـن مصادرهم واغراضهم ، وليس بمستبعد ان تكـون لهم اغراض اخرى لم يصرحوا بها ، واحتفظوا بها لانفسهم فى وثائقهم الخاصة او فى وثائق بعض الجهات التى مدت اليهم يد العون للقيام برحالاتهم ٠ واتمنى ان تتاح لى الفرصة فى المستقبل للاطلاع على وثائقهم فى مضانها ، حتى اتمكن من تقـديم معلومات اخرى قد لا تخلو من فائدة فى مجـال كتابة تاريخ الجزائر ٠

موقف المؤرخين الأجانب من
تاريخ الجزائر
عبر العصور

المهدي البوعبدلي

عضو المجلس الاسلامي الاعلى
- الجزائر -

ان المؤرخين الاجانب الذين اعتنوا بتاريخ الجزائر يعدون بالمئات، ولا زالت تآليفهم متواصلة ويمكننا ان نقسمهم الى ثلاثة اقسام :

القسم الاول تخصص في تاريخ البلاد القديم، اى عهد احتلال الرومان وما قبله .

والقسم الثاني اهتم بتاريخ الفتوحات والعهد الاسلامي .

والثالث اعتنى بتاريخ الاحتلال الفرنسي وما اعقبه من تطور الاستعمار وانتشاره وآثاره .

فمؤرخوا القسم الاول بالغوا في الاشادة بروما ومدنيتها ، واحيـــوا ما تبقى من آثــارها ، واستعانوا بما كان يمدهم به العنصريون،ودعاة « افريقيا المسيحية » ، وميزانية الدولة الـــتي كانت تفتح لهم — على مصراعيها — ابوابهـــا ، فاسست الجمعيات في جميع انحاء البلاد ، للبحث والتنقيب عن الآثار ، واتخذت لها مكتبات ،ومجلات ومراكز للمحاضرات ، واقامت مؤتمرات علميـة كانت تدعو لحضورها ، وللمشاركة في بحوثها اساطين العلم من الاثريين ، كل هذا لتتوصـــل الى هدف دعوتها : وهي ان الحضارة الرومانيـة المسيحية طبعت هذه البلاد بطابعها ، وان احتلال هذه البلاد هو استرجاع حق مغصوب ، وقليـل منهم من اهتم بتاريخ سكان البلاد الاصليـين — ان لم يكن ذلك لبث روح البلبلة والاحـن فـي الافكار ، واظهار العنصر العربي دخيلا ومستعمرا وما الى ذلك — اللهم الا ما كتبه المؤرخ العبقري سطيفان قزيل Stephane Gsell فانـه خصص لهم تاليفا قيما ، اجمع المؤرخـــون الاختصاصيون ، انه اهم واجمع مصدر لتاريـخ الدول البربرية ، التي كانت تتمتع باستقـلال داخلي ، وكانت لها حضارة ممتازة ، الا ان كثيرا من المؤرخين لتلك الفترة اهملوها ٠

اما القسم الثاني فان جل كتابه كان هدفهـم من دراساتهم تصوير الفتوحات الاسلامية بانها فرضت دين الاسلام بالاكراه ، والسيف،وقطعت صلة البلاد مع الحضارة الغربية والكنيســة ، فتعطلت المدنية ، وتوقفت ، كما استنتجـوا ان الجزائر لم تتوحد في تاريخها ، وانها كـانت دائما خاضعة للمغيرين ، واشهر هذه الطبقـــة واكثرها صراحة ، هو فليكس قوتي Félix Gautier اما الطبقة الثالثة وهي التي تمثل الاكثرية ، فان معظم كتابها مجدوا بطولة قادة جيش الاحتلال ، واشادوا بالاستعمار ، وظهرت آثار هذه الطبقة، اثر انتهاء مقاومة الامير عبد القادر ، ثم عنـــد الاحتفال المئوى للاحتلال سنة 1930 ٠

واذا امعنا النظر في جل ما وصلنا مـن هذا السيل العرمرم من التآليف ، نجد القســم الذي يستحق العناية والاهتمام ، هو القســم الشبيه بالمذكرات ، او مجاميع سجلات التقارير الرسمية ، فانها تحتوي على جوانب مفيدة في حاجة الى الدراسة والمراجعة والتحقيق ، ولهذا فاني في هذا البحث ساتعرض للقطـات (وان كانت مفككة ومجملة) لمختلف كتاب هذه الاقسام المذكورة لاجنب القارىء الدخول في التفاصيل التي يمكنه تتبعها في مواضعها ، وهذا لا يمنع من الخروج عن هـذا الالتـزام ببعض الاحداث الجوهرية فاذكرها بنوع من التفصيل وهـــذه الطريقة هي التي تفرضها مثل هذه الدراسات المحدودة ٠

القســم الاول

كتب ستيفان قزيل Stephane Gsell المتوفى في الثلاثينات من القرن المسيحي الجاري، كتابه الشهير « التاريخ القديم لافريقيا الشمالية» والكتاب يشمل ثمانية اجزاء ، خص جلها لتاريخ

الحضارة البربرية فى المدة التى تتراوح بين سقوط قرطاجنة واحتلال روما للبلاد ، وهذه المدة لا تتجاوز خمسا وثمانين ومائة سنة ، (185) اثبت المؤلف ان قرطاجنة لم تكن هى افريقيا ، اذ كان جل مؤرخى تلك الفترة يقتصرون على الاعتناء بالمراكز التجارية التى احدثتها قرطاجنة طوال شواطىء البلاد ، ومثل هؤلاء المؤرخين كمثل زملائهم الذين ـ ولا زالوا ـ اقتصروا فى تآليفهم التاريخية عن حياة الملوك وقصورهم ، ضاربين صفحا عن حياة البلاد وسكانها وحضارتها وثقافتها ، هذا الفراغ هو الذى حاول قزيل ان يتداركه ، فنجح حيث ان مقرظى كتابه متفقون على انه احسن ما الف فى الموضوع ، بل هو التأليف الوحيد فى العالم لهذه الفترة ، ويعدونه موسوعة تاريخية جمعت ما تفرق فى غيره ، وميزته استنتاجاته التى دعم بها آراءه ، فمما ذكره قزيل فى الموضوع : « ان تاريخ عهد قرطاجنة لا ينحصر فى المدن التى احدثوها كمراكز تجارية بشواطىء البلاد . فان بداخل البلاد ، كان يوجد شعب كون امارات ، وكانت هذه الامارات البربرية فى حالتى حرب وسلم مع حكام البلاد الفنيقيين ، اى القرطاجنيين ـ كما بقوا على هذه الحالة فى عهد الرومان بعدهم ـ وان هذه الامارات كانت مجهولة تماما ـ الا القليل منها ـ لدى المؤرخين القدامى من اليونانيين واللاتينيين ، وان اتيح لنا اليوم ان نكشف القناع عن تاريخهم ، فذلك يرجع الى فضل النقوش باللغة الفنيقية ، او الليبية (لغة لم نعرف منها الا اسماء الاعلام) او العثور على بعض الآثار كالمسكوكات والاضرحة الخ . كما يرجع فضل هذه الاكتشافات الى صمود ومحافظة سكان افريقيا ، اذ هم مشهورون ومعهم الايطاليون ، بانهم فى مقدمة الامم المحافظة على التقاليد والعادات » وقد ضرب المؤلف مثلا لذلك بالتوارق الذين حافظوا على كثير من العادات والتقاليد ، كانت موجودة فى بلادهم قبل الاسلام ولم يمنعهم اعتناقهم للدين الاسلامى من المحافظة عليها ، وفيها ما تنكره تعاليم الاسلام ، ثم ذكر او عقد فصلا للحضارة المادية البربرية بين فيه نموذجا من طريقة استنتاجاته التى اتبعها فى تاليفه فقال : « السكان كانوا يعيشون جماعات فان الآلة الحجرية المجموعة فى مكان واحد قرب منابع المياه ، تثبت وجود قرى آهلة بالسكان ، قريبة من منابع الماء ، ليمكن لهم الاستيطان والدفاع عن انفسهم ، كما ان الاسرة تكونت هنا من قديم ، بخلاف بلاد آسيا ، وان المرأة كانت وظيفتها القيام بشؤون المنزل وخدمة الصوف ، وتربية الاولاد والحيوانات ، وان روح الجماعة والتفافها حول رئيسها ، ثم التفاف الجميع حول رئيس القبيلة ، كانت سارية المفعول كانت العصبية العائلية تسود المجتمع البربرى ، كما كانت القرية تخضع لنظام الجماعة المنتخبة ، وكان الانتخاب يختلف ، فمنه ما ينتخب صاحبه لمدة الحياة ، ومنه لمدة تمكن فيها عزل المنتخب وتعويضه بغيره ، ثم يذكر المؤلف ان هذه القبائل كانت كثيرة التمرد على الحكم ، وبعد أن يتعرض للامارات التى تكونت والى زعمائها ، ومواقعها ،

وحياة الابطال امثال سيفاكس وماسنيسا ويوغرطة والحروب التى خاضوا غمارها ، تعرض للحياة الاقتصادية ، ومنتوجات البلاد من حبوب وفواكه ، وخضر ، وتربية المواشي والنحل وصيد السمك وتصبيره ، وصادرات البلاد التجارية ووارداتها ، ومساكنهم ، وانواعها تعرض للتمدن المعنوى ، فقال ان اخلاق البربر وعوائدهم لفتت انظار المؤرخين والباحثين القدامى ، فسجلوا لهم خصوصيات غريبة ، منها ان مجتمعهم كانت تسوده الطهارة والعفاف ولهذا كانوا يصلون الى ارذل العمر ، محتفظين بصحتهم البدنية المثالية فهم لا ياكلون اللحم الا قليلا — رغم تربيتهم للمواشي ومختلف الحيوانات — ثم نجدهم لا ياكلون لحم الخنزير ولا يربونه الخ .

ان هذا التاليف قيم في موضوعه وصاحبه مشهور بالعلم ، وعمق التفكير ، وسعة الاطلاع وهو وان كان من اقطاب افريقيا المسيحية » « والجزائر الفرنسية » الا ان تاليفه هذا يتوقف عليه تاريخ البلاد ، فهو دعامة لربط حاضرها بماضيها ، اذ الحقبة التى تعرض لها المؤلف وخصص لها ما يزيد على مائتين والف صفحة تلقى اضواء على تاريخ البلاد الحضارى ، الذى كثيرا ما اهمل اذ نجد اشهر كتابنا لم يهتموا بهذه الفترة ، وكل ما يذكرونه عندما يجدون آثارا قديمة هذه العبارة « وفيها آثار للاول » ان لم تختلط بالاساطير ، او ما تعود العوام ان يطلقون عليها ، مثل قولهم « بلاد الجهلاء » او « الاصنام » أو « الخربة » .

القسم الثانى هو ما ذكر فيه العهد الاسلامى وهو كثير ايضا ، اذ تخلل هذا العهد الاحتلال الاسبانى لبعض مدن السواحل كوهران وبجاية ، وقد بقى الاسبان ما يقرب من ثلاثة قرون بوهران ، وفى هذه المدة اهتم كثير من مؤرخى الاسبان بتاريخ البلاد ، اذ كان هذا الاحتلال سببا فى اثارة الاحقاد الصليبية الكامنة فى نفوس كثير من الكتاب الذين كانوا لا يخفون ان بلاد الشمال الافريقى طبعت من العهد الرومانى بالطابع المسيحى وكانوا يرون ان الفتوحات الاسلامية جريمة لا تغتفر ، وتفننت هذه الطبقة من الكتاب الذين كانت تشجعهم الكنيسة ماديا ومعنويا لبث السموم وتشويه الحقائق ، ثم نجد هذه الفترة غيرت الاوضاع ، واستولت على البحر الابيض اعظم قوة بحرية عالمية صارت اساطيل العالم تقرؤ لها الف حساب وحاولت القضاء عليها بشتى الوسائل فلم تفلح ، فصارت تمدها بالفدية مكرهة ، وهذه القوة البحرية التى هيمنت على البحر الابيض طيلة ثلاثة قرون هى قوة الدولة التركية التى شبهها بعض المؤرخين بقوة قرطاجنة البحرية فى عهد ازدهارها ، ويذكرون ان البحر الابيض لم يشاهد مثل هاتين القوتين — أى التركية والقرطاجنية — فى تاريخه الطويل .

ورد الى الجزائر للاسباب المذكورة كثير من علماء اوروبا المتصلين بالجزائر وكذلك الرحالون والاسرى والتجار والقناصل فكتبوا الكثير عنها ويمتاز بعض ما كتب بجوانب مفيدة فرضت نفسها وصارت من المصادر الهامة التى لا يستغنى

عنها ، ومن ذلك تآليف الراهب الاسبانى دييقو دى هايدو Fray Diégo de Haëdo **الذى** كان اسيرا فى الجزائر ودون مذكرات سماها «تخطيط وتاريخ عام للجزائر» واهم ما فيه تخطيط مدينة الجزائر ومعالمها وتاريخ ملوكها ، طبع هذا التاليف لاول مرة على نفقة الكنيسة الاسبانية سنة 1612 **ثم ترجم الى الفرنسية سنة 1870 وقد اعتمده كل** من اشتغل بتخطيط مدينة الجزائر وذكر معالمها كما اعتمده ايضا كثير من المؤرخين فى تاريخ الحكم التركى وتداول حكم الباشوات، ومما يلحق به كتاب « تاريخ شمال افريقيا » لمواطنه دييقو سارز Diégo Suarez الذى كان جنديا **بوهران بين سنوات 1577 و 1604 تعرض فى** تاليفه لجغرافية البلاد ثم للاسباب الداعية الى **احتلال وهران والهجوم الفاشل للملك شارلكان** على الجزائر ذلك الهجوم الذى كان من اسباب تخليه عن الحكم حيث ان مفعول الهزيمة اثر فى **معناوياته ، ففقد توازنه وقد عبر عنه احد متأخرى** الكتاب (1) بقوله « وشارلكان الذى اشابته الاحداث ، غادر الجزائر مطاطىء الراس وطلقات **المدافع يملأ دويها اذنه ، غادر شارلكان اسوار** الجزائر التى شاهدت ابتداء تقلص ظله » كما وصف سيارز الاسبانى بعض المعارك شاهدها ، واهم ما فى الكتاب اعتراف مؤلفه بالحياة التعيسة **التى كان يحياها الجيش الاسبانى المرابط بوهران** الذى شبه حياته فيها بحياة المساجين فى سجونهم

وتعرض لقادة الجيش فاتهمهم بالجشع والطمع والسرقة ونقض العهد ، وضرب امثلة لذلك منها ان القائد الاعلى للجيش الاسبانى كان يتعهد للقبائل الموالية لهم بالحماية ، فاذا به يهاجمهم فى حللهم للاستحواذ على اموالهم ومواشيهم ، وعندما يرجع جيشه الى وهران حاملا الغنائم ، يتقدم الجنرال من دون حياء ولا خجل ، فيقطع لنفسه قسمة الاسد، ثم يذكر بان العدل والنزاهة لا يحلم بها الا المتملقون ، وان كل ما يقع فى **البلاد من احداث وهزائم ومجاعة يجهلها الملك ،** اذ تصله التقارير مزيفة ، وان ما قاله هنا الكاتب يؤيده آخرون من مواطنيه صوروا الحياة بوهران بحياة الجحيم ، وهم اقلية ، ولكن بعد مرور الزمن اعترف المؤرخون الاسبانيون انفسهم بان كل من صوروا الواقع الوهرانى بغير ما وصفته هذه الاقلية كانوا من طبقات الكتاب المأجورين او المتعصبين للكنيسة ، التى لم ترد ان تعترف بان هجومها واحتلالها لهذه المدينة كان كارثة على البلاد ، اقتصاديا ، ولنرجع الى ما كتبه بعض المؤرخين الفرنسيين وغيرهم لهذه الحقبة ، ولنبدا بأشهر كتاب لفت انظار القراء والكتاب وحظى بنقد تحليلى لمحبذيه من العنصريين والاستعماريين وصار عندهم الكتاب المفضل وعنوانه يدل على مضمونه « ماضى افريقيا الشمالية فى القرون المظلمة » لاميل فليكس قوتى E. F. Gauti 1864-1940 الاستاذ السابق بمدرسة الآداب العليا بالجزائر، كان هذا المؤلف من غلاة المعمرين له عدة تآليف لم يخف فيها هويته الاستعمارية المتطرفة ، وقد كان تخصصه فى الجغرافية فعين استاذا فيها بالمدرسة المذكورة فى اواخر القرن المنصرم ، ولهذا ارتكب عدة غلطات فادحة ، تتناقص فى

1) الكاتب دوميتيك لوسياني مدير الشؤون الاسلامية السابق بالولاية العامة ورئيس النيابات المالية فى تابينه للكاتب ستيفان قزيل بالمجلة الافريقية سنة 1931

كثير من الجزئيات مع الاختصاصيين في التاريخ ، حتى من الاستعماريين انفسهم ، ومن جملة ماذهب اليه في تاليفه المذكور « هو ان سكان المغرب اى العنصر البربرى لم يملك شؤونه ابدا ، وبقدر ما نبحث في التاريخ نجد سلسلة متصلة الحلقات لاحتلال الاجانب لهذه البلاد ، ان الفرنسيين خلفوا احتلال الاتراك ، الذين خلفوا احتلال العرب ، الذين خلفوا احتلال البيزنطيين الذين خلفوا احتلال الوندال ،الذين خلفوا احتلال الرومان ، الذين خلفوا احتلال القرطاجنيين ، وليسجل التاريخ ان هؤلاء المحتلين على اختلاف اجناسهم وازمنتهم كانوا يتصرفون بكامل الحرية في شؤون البلاد الى ان يخرجهم ويطردهم محتل آخر ، يرث بدوره البلاد ان السكان الاهالى لهذه البلاد لم يتوصلوا يوما من الايام الى طرد مستعمريهم » ثم يقول : « ومع هذا نجد ان هؤلاء الراضين باستعمار بلادهم من دون ان يحركوا ساكنا ليسوا من الاجناس الهادية فانهم رجال حروب ، ولهم قادة وابطال من عهد حنبعل Annibal الى عهد الامير عبد القادر » .

ثم يعقد فصلا للتاريخ فيقول ان المغرب يبدؤ مع الحروب الفنيقية في الوقت الذى تكلم فيه المؤرخون اليونانيون واللاتينيون مكان المؤرخين القرطاجنيين الذين سكتوا ، فاننا نجد آخر عهد قرطاجنة وتاريخ افريقيا الرومانية روايات نخبة رجال التاريخ مثل بوليب Polybe وصالوستر Sallustre وتيتليف Tite-live التى القت عليها الاضواء آثار البناءات والنقوش بل صقلتها وهذبت فصولها في مختلف العصور . الموسوعة التاريخية القيمة لقزيل التى لا زالت لم تتم ، (هى التى تحدثنا عنها في القسم الاول)

ثم يقول : « ان تاريخ المغرب ابتدا في غاية الوضوح ، الا انه اعقبه الظلام طيلة قرون ، الى ان كان القرن الثانى عشر المسيحى ، فقد ظهرت الوثائق المتعددة لعهدى المرابطين والموحدين ، وهذه الآثار سواء منها البناءات او الكتابة فانها لا زالت مبعثرة » ثم قال مفسرا لعنوان كتابه ومدلوله « القرون المظلمة من ماضى تاريخ افريقيا الشمالية » ان العصر المظلم الذى هو في حاجة الى الانارة والبيان ، هو ما بين الغزوتين العربيتين الغزوة الاولى التى قام بها الامراء ممثلوا الخلافة الاسلامية في آخر القرن السابع المسيحى ، والثانية التى قام بها البدو الهلاليون والتى ابتدات في منتصف القرن الحادى عشر المسيحى ، فهذه الفترة تنفصل تماما عن التاريخ المغربى » وبعد ان يذكر ان هذه الفترة من تاريخ البلاد المغربية التى شاهدت فتح الاندلس وصقلية ومصر يمكننا ان نسميها قرون المجد ، حيث شاهدت ذروة المجد ، ومع هذا فهى في الوقت نفسه « القرون المظلمة » فانها القرون المجهولة فالفاتحون المسلمون لم يهتموا بالتاريخ ، فالعربى همجى ، لايهتم بالتاريخ ، فلم يظهر حب الاطلاع العلمى الا في ايام الدولة العباسية عندما افل نجم العنصر العربى وخلفه العنصر الفارسى والشرقى الممثل للمدنية الفارسية التى اجتاحتها الغزوات العربية الخ .

ثم نجد من كتاب هذه الفترة الراهب الانكليزي شاو Schaw الذى عاش ما يزيد على العشر سنوات تجول فى ربوعها ، تعرض لوصف كثير من المدن ولاخلاق السكان وعوائدهم ومعيشتهم ، وقد نشرت هذا التاليف جامعة اكسفورد Oxford سنة 1738 ، وترجم الى الفرنسية ثم اخيرا لخص وترجم الى العربية وهو مفيد ، كما زار الجزائر سنة 1732 الكاتب الالمانى هبوستريت Hebeustreit وكتب عنها وبيصونيل PEYSONNEL الذى زار الجزائر سنة 1725 وفنتور دو براد Venture de Paradis الذى زار الجزائر سنة 1788 والاب رينال Abbé Raynal ولوجى دو طاسى Laugier de Tassy الذى قدم تاليفا لمؤلف هولاندى طبع بامستردام سنة 1725 وطبع فى باريس بعد ترجمته سنة 1727 ، ومعظم هؤلاء الكتاب اقاموا بالجزائر لمختلف الاغراض ، وسجلوا انطباعاتهم ، ومشاهداتهم ، او ما استقوه من المعلومات عن الاوربيين المقيمين بالبلاد ، او من السكان المسلمين الذين كانوا يتصلون بهم، بحكم وظائفهم ومهنهم وهى لا تختلف عن بعضها ، واكثرها نظريات سطحية ، ويمتاز من هؤلاء المذكورين لوجى دو طاسى Laugier de Tassy فانه فى تقديمه للكاتب الهولاندى رد عليه الاتهامات التى اتهم بها الجزائر : منها التعصب الدينى فقال فى رده عليه « ففى الميدان الدينى نجد احسن شىء واروعه التسامح ، وهذا التسامح موجود فى الجزائر ، ويستحق سكانها الشكر والاعتراف بالجميل ، ثم قال « ان حكومة الجزائر لها سلوك ممتاز فى هذا الميدان فانها تترك الحرية التامة للمتدينين الساكنين ببلادها ، وبقدر ما يشتهر عندهم الانسان بالتدين الا ويرتفع قدره عندهم ويحترمونه ويحمونه » ويناقش دو طاسى المؤلف الهولاندى الحساب ويظهر له مصدر هذه الاتهامات فيقول « ان منبع هذه الحملة المغرضة هم القسيسون المنسوبون الى جمعية الافتداء المسيحية Redempteurs التى انشئت فى نابولى سنة 1731 ويسمون انفسهم بالمنقذين والمخلصين والفادين (للاسرى المسيحيين الذين كانوا بالجزائر) فانهم هم الذين يتهمون الجزائر بانها تضغط على الاسرى المسيحيين وتكرههم على اعتناق الاسلام ، وهذا غير صحيح ، ويخاطب هؤلاء القسيسين فيقول لهم : ان شهادتكم لا تقبل حيث ترتكبون اشنع الفظائع باسم الدين ، فانكم تبيحون الفتك بالمسيحيين الذين من سوء طالعهم ولدوا من آباء مسيحيين ، Protestants ويرد مزاعمهم فى الاكراه على الاسلام ، فيقول : ان الجزائريين لا يثقون فى الاسرى المعتنقين للاسلام ، اذ يرون ان دخولهم فى الاسلام صورى ، يقصدون به قضاء مآربهم»الخ

اما القسم الثالث فان كتابه كما ذكرنا ينقسمون الى فرقتين : الفرقة الاولى واكثر افرادها من الضباط الذين خاضوا غمار حرب الاحتلال فدونوا احداثها ككتاب «حوليات الجزائر» Annales Algériennes لبليسيى دورينو Pellissier de Reynaud الذى سجل احداث الجزائر ما بين سنوات 1848 و 1854 والكتاب

يقع في ثلاثة اجزاء وطبع بالجزائر سنة 1854 ، وهو من المصادر الهامة لذلك العهد ، وكثير من الكتاب يعترفون لمؤلفه بالشجاعة الادبية وبالنزاهة النسبية ، اذ نجد كثيرا من تصريحاته وتعليقاته على الاحداث لم تكن في صالح السلطات ، كما يمتاز كتاب هذه الفرقة بسجلات تقاريرهم التى جمعت وطبعت بمناسبة الاحتفال المئوى، فنجدها تعرضت لكثير من احداث حرب الاحتلال كالمعارك الشهيرة «واقعة وادى المقطع» «واقعة سيدى ابراهيم» «طاقين» «الوفايا» «واقعة التنصير» فصورتها على ما يقرب من الحقيقة واعترف فيها كتابها بالغلطات الفادحة التى ارتكبها الجنرال تريزيل وتسببت في هزيمة « وادى المقطع » ، والغلطة التى ارتكبها زميله الكولونيل دومنطانياك Mantagnac ولقى فيها حتفه بسيدى ابراهيم الخ • وهؤلاء الكتاب هم الجنرالات دوبورمون De Bourmont وكلوزيل Clauzel وقوارول Voirol ودامريمون Damrémont الخ ، ثم اعقب هذه الطبقة كتاب آخرون واصلوا آثارهم ، وجلهم اشادوا بالاحتلال وصفقوا لنجاحه ، خصوصا انصار الكنيسة الذى كان شعارهم « افريقيا اللاتينية» و « الجزائر الفرنسية » اذ كانوا يرون ان احتلال فرنسا للجزائر عبارة عن امتداد المدنية الرومانية في هذه الربوع التى حال بينها الفتح الاسلامى ، وقد صرح بذلك كثير منهم ككاط E. Cat المبرز في التاريخ ، والاستاذ بمدرسة الآداب العليا بالجزائر في تاليفه « التاريخ الصغير للجزائر والمغرب وتونس » المطبوع في الجزائر سنة 1891 (مطبعة جوردان) فقال : «في الخامس يوليو امكن للجيش الفرنسى ان يخرق باقدامه شوارع الجزائر الضيقة مسلحا ، تلك الشوارع التى امتنعت على الملك شارلكان ولويس الرابع عشر ولم تطأ اقدام اجدادنا طرقاتها الا مكبلة بالحديد ، اسرى او عبيد ، فهذا مبدا اعظم احتلال يسجله التاريخ لفرنسا » ثم استدل المؤلف بكلام ركلوس O. Reclus الذى قال في الموضوع : «ان هذا اليوم عظيم لان هذا الانتصار ليس هو من الانتصارات العقيمة المملوءة بها بعض صفحات كتبنا ، انه ليس انتصار مارينيان Marignan ولا روكروا Rocroy ولا فونتناى Fontenay ولا واقرام Wagram فهذا الانتصار هو احتلال الجزائر في 5 يوليو 1830 ، ان هذه البلاد بموقعها ستسهل علينا الحاق جناحيها وبلاد الصحراء وتفتح لنا الطريق الى السودان » الخ • (يقصد بالجناحين المغرب وتونس) وهذا الكتاب رغم افكار صاحبه الاستعمارية يحتوى على حقائق هامة سنذكرها في موضعها ، ولننتقل الى الحديث عن كتاب ظهر اخيرا اى طبع سنة 1965 وهو من نوع المذكرات نشره الكاتب بيير سيرقال Pierre Serval تحت عنوان «المجهولون في التاريخ» وهي مذكرات للماريشال دوبورمون قائد جيش الاحتلال الفرنسى للجزائر ، لم يسبق نشر كثير من فصولها قال الكاتب في مدخل تاليفه : «انه منذ مائة وثلاثين سنة في برج قصر انجقان Angevin

توجد بعض الوثائق المهملة ، وبعد الاطلاع عليها يكتشف القارىء الاسرار الغامضة التى تتعلق باحتلال الجزائر سنة 1830 » ثم يقول : «ان هذه الاحداث وان كانت قديمة ، فانه يمكن تطبيقها على الحالة الحاضرة ، حيث ان التاريخ يعيد نفسه ، ان التشابه بين قضية الجزائر فى القديم والحديث ، بلغ الى حد انه يمكن للانسان ان يكتفى بتغيير الاسماء والتاريخ فقط ، حتى يظن ان احداث هذا العهد هى نفس احداث الماضى » ثم يقول : « اننى اعد نفسى محظوظا حيث ان الفرص اتاحت لى الاطلاع على مئات الوثائق ، الكثير منها مجهول ، وان صحتها لا نزاع فيها ، ان هذه الوثائق سجل لوزير الحرب اذ ذاك وقائد جيش الاحتلال الفرنسى ، ولاهمية هذه الوثائق والحفاظ بقيمتها ، اخترت ان اتوارى وراء ممثليها الحقيقيين ، فاتركهم ، يتحدثون عن الاحداث التى مثلوها بدلا منى ، وان ما ذكرته لم يتمكن لى ، لولا فضل الكنت دوبرومون Comte Louis deBourmont وقرينته اللذين فتحا لى باب برج قصرهم العتيق ، وتركا لى الحرية التامة لتصفح وثائق جدهم الماريشال دوبورمون ، كما انى مدين للكولونيل هنرى دوبرومون الذى شرح لى احداث تلك الفترة ذلك الشرح الذى يدل على سعة الاطلاع » .

ثم يتعرض المؤلف سيرڤال (1) فى الفصل الاول من التاليف الى سرد احداث محاولة شارلكان الفاشلة لاحتلال الجزائر سنة 1541 ، كما هو معروف ، ثم يذكر ما نسب الى الفارس الفرنسى بونس دوبالاقير Ponce de Balaguer الذى غرز سيفه قرب باب عزون وصرخ بقوله « سنرجع » وقال ان هذه الكلمة صارت شعارا من ذلك العهد لقادة الحروب منهم ماك ارتور Mac Arthur الامريكى الذى رددها عند ما اخرجه اليابان من جزر الفيلبين . ثم يتعرض المؤلف للتطاحن الذى كانت باريس مسرحا له بين الجمهوريين والملكيين وكيف استغل الملكيون قضية المروحة وبين بتفصيل ما ايد به آراءه من هذه المذكرات ، والذى يهمنا منها ـ ان المذكرات ـ وله علاقة بموضوعنا هو دور التاجرين اليهوديين بوشناق وباكرى فى قضية المروحة ، والاحتلال الفرنسى ، ان قضايا اليهود ومواقفهم ازاء المسلمين ودولهم من قديم الزمان لا ينبغى لها ان تهمل ، او تعد من القضايا العادية ، بل ينبغى لها ان تدرس مرتبطة ببعضها ، وقد علمنا ان وجود اليهود بالجزائر قديم ، وقد آوت الجزائر ـ باعتراف المؤرخين اليهود ـ اللاجئين منهم والمطرودين من مختلف البلاد الاوربية ، ابتداء من القرن الرابع عشر المسيحى ، الى ان وصل عددهم فى عاصمة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسى الى ستة آلاف نسمة ، وقد علمنا انهم اعترافا بجميل الاحسان شاركوا فى المؤامرة التى سهلت على الاسبان احتلال المرسى الكبير ، ثم تطوعوا للجوسسة لصالح الاسبان بعد احتلالهم بجاية ،

(1) "Les Méconnus de l'Histoire". (Le Maréchal de Bourmont) par Pierre Serval (Edit. Caliman-Levy Paris 1965)

الى ان امر بطردهم الملك شارلكان (1) لما اخفق في هجومه على الجزائر سنة 1541 وقال قولته المشهورة في حقهم : « اننا اخرجناهم واطردناهم من بلادنا بخسة الغدر المتأصلة فيهم ، وقد آواهم اعداؤنا واحسنوا اليهم وبدلوا خوفهم لنا بجوسسة اللئام » هذا كله معروف في كتب التاريخ وانما اردنا تذكير القراء قبل ان نتحدث وننقل رواية صاحب المذكرات قائد جيش الاحتلال دو بورمون فشهادته لها قيمتها ووزنها ، وقد كشفت القناع عن الدور الخطير الذى لعبه اليهود اذ ذاك في سياسة حكام الجزائر وجعل كثيرا من المؤرخين والكتاب يتساءلون عن اسباب تدهور الدولة التركية في آخر عهدها وكان ختامه احتلال البلاد ، قدم المؤلف لحديثه عن قضية اليهود مدخلا قال فيه : «عند ما خفق شارلكان في حملته ــ 1541 ــ وايس من الاستيلاء عليها كان عمر الجزائر كقاعدة وعاصمة ثلاثين سنة ، ولكنها عاشت ثلاثة قرون مهيمنة على البحر الابيض ، مستعبدة للمسيحيين الذين كانوا يرزحون تحت قيد السلاسل والاغلال ، وقد بلغت ثروتها بفضل غنائم قراصنتها (غزاتها) الرقم القياسي الذى لم تبلغه دولة اخرى حينئذ ، وقد هاجمها بعد شارلكان ، الاميرال الفرنسي دوبوليو de Beaulieu باسم الملك لويس الثالث عشر ، ثم الملك لويس الرابع عشر بواسطة قائد اسطوله الدوك دوبوفور de Beaufort سنة 1663 ثم في سنة 1668 القائد الفرنسي دستري d'Estrée فكانت النتيجة واحدة : الخيبة ، ثم تجددت هجومات الاميرالان دوكس و تورقيل (Duquesne)و(Tourville) فارتطما بنفس الخيبة ·

فتداخل بعد هذا الدانمرك ، ثم الاسبان سنوات 1773 و 1783 و 1784 فكانت هجوماتهم كضربة السيف في الماء ، ثم اهتم بها نابوليون بونبارت واعد للامر عدته ، فلم تساعده الظروف ، فخلفه للقيام بالمهمة اعداؤه الانكليز فارسلوا سنة 1816 اللورد اكسموت Exmouth فخفق ، ثم اعادوا الكرة سنة 1824 وكان قائد الاسطول الاميرال نيال Néale فكانت الخيبة المتكررة المعروفة · ثم يدخل الكاتب في الموضوع ويبين موقف الملكيين الذين كانوا يخشون من انفجار الثورة ، فاتفقوا على ان املهم الوحيد في التغلب على الاحداث ، هو تجنيد جيش وخوض غمار حرب والتحصيل على نجاح ولو وهمي ليشغلوا بها الراى العام ، فكانت قضية المروحة ، وبعد حديث مفصل ينتقل المؤلف الى الحديث عن قضية دين اليهود فيتحدث عن علائق اليهودى جوزيف باكرى مع طاليران وزير نابليون ، ثم يتعرض لمكانة طاليران عند نابليون فقال : « كل ما يعرفه نابليون يعرفه طاليران ، والعكس بالعكس ، اللهم الا مسالة واحدة كان يعرفها طاليران ولا يعرفها نابليون وهي

1) مر شارلكان على مرسى بجاية في طريق عودته بعد الهزيمة ووجد الاهالي بلباسهم في البلدة فاخبرانهم يهود اسبانيا المطرودين تطوعوا بالجوسسة لمعرفتهم لغة البلاد والاسبان

علائق طاليران مع التاجر اليهودي جوزيف باكري » ولهذا فوجيء نابليون عند ما اطلع على تقرير سري ارسله طاليران الى زميله وزير المالية روبير لاندي Robert Lindet مؤرخ في 24 اوت 1800 نصه : « ان علائقنا مع الجزائر تستوجب ان نظهر لليهود نوايانا الحسنة معهم ولهذا فان قضية الدين لا ينبغي ان ننظر اليها من زاوية العلائق التجارية الخاصة العادية بل ينبغي لنا ان نعتبرها قضية دولة » .

ثم تساءل المؤلف فقال ما هو هذا الدين ؟ واجاب عن سؤاله بما يلي : « كان الفلس يهدد حكومة فرنسا من جهة ، وخطر المجاعة يهددها من جهة اخرى ، فكانت الدولة اذ ذاك في اشد الحاجة الى القمح ، مهما بلغ ثمنه ، فتوجهت حكومة المديرين Directoire الى داي الجزائر، ونظرا لعلائقه الودية مع فرنسا اذ ذاك ، اجابهم لرغبتهم ، فباع لهم ما قدره مليون فرنك قمح ، وتبرع لهم بقرض من دون فائض .

كلف الداي شركة اليهود لتنفيذ الصفقة التجارية ، وتحمل ضمان المبلغ من خزينة الدولة، ثم ذكر المؤلف تفاصيل الصفقة وما جرته لليهود من ارباح ، اكثرها معروف في كتب التاريخ ثم بين افراد الشركة ، ونشاطها التخريبي في المنظمات الحربية والاقتصادية في البلاد، فاعرضنا عنه ، لطوله واخترنا تتبع جوانب ما يهم من قضية الدين .

امكن لطاليران ان يحصل لباكري الذي زاره بباريس اعترافا من الحكومة الفرنسية بما قدره مليونان ومائتان وسبعة وتسعون الف فرنك وتعهدت فرنسا ان تدفع هذا المبلغ بالتقسيط الا انه عند ما توترت العلائق بين تركيا وفرنسا وانقطعت العلائق بين الجزائر وفرنسا بسببها ، توقف دفع الدين الى ان وقع اتفاق بين الداي وممثلي فرنسا مؤرخ في 17 دصمبر 1801 ، من جملة بنوده ، تعهد الجانبان بتسهيل دفع ديون رعايا كل من الدولتين ، فكان مبلغ دين اليهود تضخم الى ان وصل ثمانية ملايين فرنك ، فقبض منه ثلاثة ملايين ، ثم مليون ومائتي الف فرنك وكان الداي اذ ذاك يجهل تفاصيل هذا الدين وانما كل ما يعرفه من القضية ان لرعاياه اليهود دين على فرنسا يجب الاسراع بقبضه ، فتكونت لجنة برلمانية في فرنسا للبحث في هذه القضية ، فاقرت هذا الدين لخبر يطول واكتفى المؤرخ بالاستدلال على ما حكم به احد كبار المؤرخين لما تعرض للحديث عنها وهو قابريال اسكير Gabriel Esquer صاحب كتاب «احتلال الجزائر» سنة 1830 La Prise d'Alger قال « ففي هذه القضية نجد الحكومة الفرنسية ودائني الشركة اليهودية بل حتى اعضاء الشركة اليهودية (وهم كلهم من اسرة باكري وبوشناق) كلهم خدعوا من طرف جوزيف باكري الذي كان يتظاهر بالبلادة » ، ثم ذكر المؤلف ان الامير سكست دو بوربون Prince sixte de Bourbon علق على هذه الفقرة بقوله « كلهم خدعوا ماعدا طاليران » .

واننا ذكرنا هذه القضية بنوع من التفصيل

لان لها ابعاد واشباهها فى التاريخ العالمى وبالخصوص الاسلامى ، اذ لم تكن هذه الكارثة مقصورة على قضية الدين الملفقة والتى كانت خيوطها بباريس ، ولا نريد ان نطيل على القارىء وسنرجع اليها فى فرصة اخرى وانما تتميم للموضوع انقل ما وعدت به عند الحديث على المؤرخ كاط E. Cat السابق الذكر فقد وجدنا فى تاليفه ما ايد به دو بورمون فى مذكراته ، وحديثه تفسير لما تساءل عنه كثير من المؤرخين (1) عن سبب تدهور الحكم التركى فى اواخر عهده فقال « ... عند ما اندلعت ثورة فرنسا سنة 1789 امتنع الباشا حسن ان ينضم الى اعداء الثورة لعلائقه الحسنة مع فرنسا ، وذلك رغم تدخلات انكلترا ، واغراءاتها ، وقد انقذها من شبح المجاعة التى كانت تهددها ، فسهل لها شراء القمح واقرضها خمسة ملايين فرنك من دون فائض » ثم قال المؤرخ كاط فيما يخص اليهود « ان يهوديين لهما نفوذ وهما بوشناق وباكرى دفعا هذه الحبوب وقد جرت هذه القضية مشاكل معروفة ، ثم ذكر وفاة الداى حسن سنة 1798 اثر مرض وخلفه صهره الخزناجى مصطفى (1798 – 1805) ويذكر ان هذا الداى كان كناسا بشوارع العاصمة ، جهولا فظا ، وهو مدين بمنصبه لليهودى بوشناق ، فلهذا كان لليهود فى عهده التصرف المطلق فى شؤون البلاد فبسبب تداخلهم فى شؤن الدولة وقعت مصادرات لا نهاية لها كما وقع عزل كثير من البايات ثم اجراءات استثنائية ضد القناصل الاوربويين، فغصبت اموالهم، واهين كثير منهم ، ومن هؤلاء قناصل انكلترا ، والسويد والدانمارك ، فقد عوملوا بقساوة واهانة ، بخلاف قنصل فرنسا ، فانه كان محاطا بالتجلة والتقدير الى حد ان الخليفة العثمانى لما امر الداى باعلان الحرب على فرنسا بسبب الهجوم على مصر ، امتنع الداى من تنفيذ امره، وعندما تكرر الامر المصحوب بالانذار ، اكتفى الداى بالقاء القبض على بعض الرعايا الفرنسيين ، وكانت معاملتهم حسنة ، وقد اعتذر الداى لفرنسا (سنة 1799) معترفا لها انه اقدم على هذا الفعل مكرها ، وبعد مدة تغيرت الاحوال وهاجم الاسطول الجزائرى بعض شواطىء فرنسا وهددها باعلان الحرب لخبر يطول

ثم يتعرض المؤلف لقضية اليهود فيقول : « ان نفوذ اليهود المتالق ، وعجبهم وغرورهم بانفسهم ، جر عليهم موجة غضب من طرف السكان ولم يكن الغضب خاصا باليهوديين بوشناق وباكرى بل شمل معهما الداى الذى كان ياتمر باوامرهما ان عدة مظاهرات غضب انفجرت ضده وفى ثلاث مرات اصيب وهذا نص الاصل :
وفى ثلاث مرات اصيب من جرائها بجروح خطيرة وهذا نص الاصل :

«Cependant la faveur croissante des Juifs, leursvanité de parvenus, leur avaient attiré de nombreux ennemis. Buschnack et Bakri particulièrement étaient détestés et le Dey qui écoutait leurs conseils était enveloppé dans la même haine. Plusieurs emeutes éclatèrent. contre lui, trois fois à diverses reprises il reçut des blessures graves».

1) منهم حمدان بن عثمان خوجة فى المرآة فانه عقد فصلا هاما تعرض فيه للتصرفات الجنونية فى ذلك العهد

كانت اخطر هذه المظاهرات هي الواقعة في يونيو 1805 وسببها ان جنديا تركيا (انكاشري) اطلق على اليهودي بوشناق طلقة نارية اردته قتيلا . وقد خاطبه عند اطلاق الرصاص عليه بقوله (خذها يا ملك الجزائر اذ كان لقوة نفوذه يطلق عليه لقب ملك الجزائر) .

وقد تسابق رفقاء الجندي اليه فحملوه على الاكتاف معلنين اغتباطهم بفعلته ، اما الداي فقد احس بالخطر ولم يسعه الا العفو عن القاتل اذ بمجرد ما بلغ السكان خبر القتل ، تسابقوا الى الحي اليهودي ، فنهبوه وخربوا دوره ، ومتاجره ، وقتلوا خمسين فردا منهم ، اما رد فعل الداي فكان ان امر بالقاء القبض على كثير من اعيان اليهود وابعاد الآخرين لينجي نفسه من تهمة حماية اليهود وصداقته لهم ، ومع هذا لم يسمح له السكان فقد ذبح بعد شهرين من قتل بوشناق وذلك في اوت 1805 وقد طالت المظاهرات ضد اليهود ، ثم توترت العلائق بين الجزائر وفرنسا من جديد ، واطرد الداي قنصل فرنسا ، ونكاية فيها حسنت الجزائر علائقها مع انكلترا ، فغضب لذلك نابليون وعمد الى الهجوم على الجزائر فكان تكليف الكمندان بوتان Boutin بتسطير تصميم الجزائر ، ذلك التصميم الذي اعتمده جيش الاحتلال فيما بعد .

هذه صفحات لا ينبغي دراستها متفرقة ومقطعة ومع الاسف لم يتعظ بها حكام الجزائر اذ ذاك خصوصا بعد ما اشتهرت قضية الدين وحوصرت الجزائر ما يقرب من ثلاث سنوات ثم احتلت ، وقد ظهر موقف اليهود بعد الاحتلال الفرنسي ، فقد شاركوا الفرنسيين في افراحهم رجالا ونساء ومع هذا كله نجد احمد باي قسنطينة يعين يهوديا للتفاوض مع الجنرال دامريمون اى مع ممثله الذي ارسله لهذا الغرض الى تونس ، ثم عين مرة ثانية يهوديا آخر كان من خدامه ليتفاوض من جديد مع دامريمون الذي كان هذا اليهودي الثاني المسمى بوشناق ، من سكان العاصمة وكان من ابرز جواسيس دامريمون نفسه ، اما اليهودي الاول فكان اسمه ابن باجو ، ثم نفس الغلطة تكررت في عهد الامير عبد القادر الذي عين ممثلا يهوديا بالعاصمة ، وقبل ان نختم هذه الدراسة نذكر ان كثيرا من مؤرخي فترة الاحتلال الفرنسي لم يخفوا ما وجده جيش الاحتلال الفرنسي عقبة في طريقه ، واعترف بعجزه عن ازالتها ، او تذليلها ، ولنقتصر على ما كتبه في القضية المؤرخ الشهير موريس (1) وهل Maurice Wahl وقد نشره وقدمه المؤرخ الشهير اوقستان برنار وهو كذلك من اقطاب غلاة المعمرين ، قال لما تحدث عن طبقات سكان البلاد اذ تاليفه خصه لجغرافية الجزائر : « ان الذي يجمع بين سكان الصحراء وفلاحي التل هو الدين ، كلهم مسلمون : فالمساجد والزوايا والقبب (الاضرحة) هي مراكز تجمعاتهم ، ان الكثيرين

(1) "L'Algérie" par Augustin Bernard (Edit. Alcan Paris 1903).

منهم منخرطون فى الطرق : الرحمانية ، الطيبية ، القادرية ، التجانية والسنوسية ، فهى كلها طرق قوية واخطرها السنوسية ، ان اكثريتهم متشبثون بتعاليم دينهم وقليل منهم من لم يراع هذه التعاليم : وضوء ، صلاة ، صيام رمضان ، وفى كل سنة يذهب الآلاف منهم الى الحج ، فمنهم من يموت فى طريق الذهاب او الاياب ، ومنهم من يرجع منهوك القوى من اثر التعب والحرمان ، الا انهم مسرورون باداء الواجب المقدس ، ان هذه الروح الحماسية فى التعلق بالدين ، هى العائق الوحيد الذى وجدناه فى طريقنا ، فهى التى تعزز الروح الوطنية لايقاد نيران الغضب ، وتشجيع المقاومة ، ان معظم الثورات التى اجتاحت البلاد كانت بسبب دعاية رجال الدين والانكى انهم بمجرد اعلانهم الحرب على العدو الكافر ، تزول الخلافات بين الافراد ، وبين القبائل ، فهذه هى الحقيقة المخيفة دائما ، والتى لربما نصل الى التخفيف من وطأتها ، الا ان القضاء عليها صعب جدا » ، ثم يقول : « اما تنصير المسلمين الذى يحلم به بعضهم فهو خيال وحلم محفوف بالاخطار ، فتعاليم الاسلام بسيطة ، ومعنوياته واضحة ، فهو من هذه الناحية لا يختلف عن بقية الاديان التوحيدية، انه شبيه لها ، فالمسلم متعصب غير متسامح ، ولكنه فى هذه الاحوال شبيه ببقية المتدينين الآخرين من مسيحيين ويهود ، وان القرآن وان كانت توجد فيه آيات تشيد بالقوة المادية ، فانه يشتمل على آيات تدعو الى الرحمة والعدل . فمحاربة التعصب او تلطيفه يكون بنشر الحضارة والعلم ، فالاديان السماوية وحدها غير كافية ، فهى فى حاجة الى نشر العلم ، وتعزيزها به ، والاهلى الجزائرى سيبقى مسلما ، كما ان الفرنسى المسيحى يبقى مسيحيا ، الا انه سيصير رجلا معاصرا لقرنه » . اهـ كلام المؤرخ وهل

وما نقلناه فى ختام هذا البحث للمؤرخ وهل واقستان برنار هوما كاد ان يجمع عليه بقية المؤرخين آراءهم ، الا ان هذه الحصانة ، حدث ما يهددها بالتزعزع : طغيان الروح المادية ، ومتطلبات المادة التى انغمس فيها الافراد والجماعات ، فالروح الدينية التى كانت تجمع اشتات القبائل لم تعد كافية وحدها فى مجتمع صار كثير من افراده يحاربون التقاليد والتعاليم الدينية ويتنكرون لها .

موقف المؤرخين الأجانب من

تاريخ الجزائر

عثمان الكعاك

مؤرخ تونسي

1) تصدير صغير ·

هنالك قواعد اصولية وبديهيات مسلمة هي جوهر هذا الموضوع الذي نطرقه والعمود الفقري منه وقطب الدائرة له والموضحة لاساسه ، والرافعة لالتباسه فلا بد من ايرادها اولا وبالذات

أ) القاعدة الاولى ·

هي ان كل امة وقعت تحت حكم غيرها تكون مصادرها التاريخية طوال حكم الاجنبي بلغة هذا الاجنبي ، وبمفاهيمه ، ونزعاته ، وما تقتضيه احكام سياسته · فما يؤلف في التاريخ من كتب

تتعلق بتاريخ الامة العام ، أو تاريخ جهة منجهاتها أو قبيلة من قبائلها ، أو مؤسسة من مؤسساتها ، لا يكون الا بمقتضى القاعدة الاولى التى بيناها • ويضاف الى ذلك ما يؤلف من مذكرات أو يوميات أو اخبار وقائع يؤلفها القواد المحتلــون ، فهى مرآة صادقة للنوايا المبيتة والتخطيطات المسطرة • ويكفينا شاهد على ذلك رسائل الماريشال بيجو الى زوجته وهى مطبوعة ومعروفـة ، ومن اكتفى بمطالعتها وحدها دون غيرها كفته مؤونة مطالعة غيرها ، وتالله لقد قضيت عاماكاملا اطالعها بامعان فكنت امرض فانقطع وارجع فامرض وهكذا دواليك طوال العام الذى كان بطول القيامة واشد هولا • ماذا قاسى الجزائريون ! ماذا احتملوا ! كم صبروا وصابروا ! اشياء اقلها يشيب لهولها الاطفال •

ويكفى ان نطالع الرسائل الاولى ، ووقعـة ام الطبول حتى نكتفى وزيادة • واقول انه من الخير ان تترجم هذه الرسائل الى العربية حتى يعلــم ابناء الجزائر والعروبة والاسلام ماذا قاسى الاسلام والعروبة والجزائر •

ولكل قاعدة استثناء والاستثناء يؤيد العموم كما يقول المناطقة ، فقد جاءت مجلة العالميــن Revue des deux mondes سنة 1549 وذكرت فى تفاصيل واقعية موضوعية مجسمة خالية من كل زيادة ونقصان واقعة الزعاطشة قرب سيــدى عقبة من احواز بسكرة فى الجنوب الشـــرقى الجزائرى فانصفت وروت الاحداث كما هى وهى احداث هائلة مريعة فضيعة مرعبة تقشعر من هولها الجلود وتحمر الشمس وتربد السماء يبكى الناس بدم قلوبهم على كثة فضحها الجند امام حميها وعلى شيخ محترم عابد ناسك جعل رأسه كرة للترفيه على الجنود وعلى حامل بقر بطنها واخرج جنينهـا واجبرت على طبخه واكله • وماذا اقول ايضا • لكن العرب بالباب والمجلة موجودة وهى شاهــد عدل لا مطعن فيه •

وهنالك ايضا وثائق الخزائن documents d'archives الموجودة ليست فقط بالجزائر فى دواوين الحكومة والبلديات وأرشيف المحاكم وغيرها بل ايضــا بفرنسا ووزارات الخارجية للامم كلها التى لها صلة بالجزائر والتى لها مواقف صدق وولاء او مواقف حياء او مواقف لا مبالاة او مواقف عداء • فهذه الارشيف التى فيها المعاهدات والاتفاقات والمراسيم والقرارات واذون الولايات ورؤساء البلديات هى مادة ثرية تبين المواقف النهائية المعادية الـــتى وقفها كل ذى سلطة قلت او جلت • وهنـــالك أرشيف مجالس الجزائر ومجالس الولايات ومجالس البلديات وما حرر من محاضر جلساتها • فهــذه ايضا مادة اخرى ثرية لابد من مراجعتها ولايــة ولاية ودائرة دائرة وحوزا حوزا ، وهنالك أرشيف المحاكم المدنية او العسكريه وأرشيف الانديجينا (الاحكام الاهلية) • فهذه كلها تبين من الالـف الى الياء وبوضع المنقط على الحـــروف وفى دون التواء ولا احجام جميع ما وقع بالجزائر •

وهنالك التقارير العسكرية والمجلات العسكرية•

وهنالك الصحافة الجزائرية الفرنسية اللسان• وهنالك المجلات الجزائرية الفرنسية وهى مـــآت

مختلفة المواضيع . منها ما فيه فوائد نزيهة في كثير من الاحيان مثال La Revue Africaine ومنها ما فيه الملاعن .

هذا هو الاصل الاول ويضاف اليه ان الدول الاستعمارية الاخرى هي ايضا تمشي مع فرانسا القذة بالقذة من باب :

فان ستروا عني تسترت دونهم
وان بحثوا عني ففيهم مباحث

وهو ما يسمى بتونس «شهادة باجية» اى اشهد لفائدتي وانا اشهد لفائدتك . ومن غير شك فهنا ايضا الاستثناء يؤيد العموم . فهناك دول قد انصفت مثل تركيا ودول قد انصفت احيانا ولم تنصف احيانا او انصفت في موضوع ولم تنصف في آخر . والانصاف صعب للشهادة الباجية التي تحدثنا عنها ولان مصدر المعرفة هي الجزائر نفسها ووسائل اعلامها او وسائل اعلام فرنسا نفسها فرواية الاخبار والاحداث ومهازل تقديم مجريات الاحوال للضيوف الذين سيكونون « شهودا من اهلها » كلها تتم وفق المرام باساليب كوميدية ابرع وابدع واروع من اساليب موليار لولا انها بعيدة كل البعد عن المرمى الاخلاقي ونزاهة الفكر وصدق القول . وليراجع من يشاء منا ما رواه كبار المشارقة عن زياراتهم المحتفى بها للجزائر فهي مكتوبة مشطرة مطبوعة بما فيها من خير وشر . وبما فيها من صدق او تلبيس ابليس كما يقول ابن الجوزي . على ان موضوعنا الاصلي هو ما كتبه المؤرخون الافرنج وما ذكرناه انما هو ذيول لذلك التاريخ الاصلي وامتدادات ، ومن باب الذكرى التي تنفع المؤمنين .

ولنتساءل الآن : لماذا لا يكتب ابناء البلاد المحتلة تاريخ احتلالهم ؟ قيل للارنب مرة لماذا تمعنين في اكل العشب ولا تأكلين اللحم ، انه انفع لك ؟ فقالت : سبحان الله ! انا سلمت بلحمي حتى آكل لحم الغير ؟

ان المحتل الاجنبي لاسيما اذا كان لاتينيا من اسبان وفرنسيين وايطاليين وبلجيكيين يمنع حرية القول وحرية النشر وحرية الصحافة . ومن غير شك ان هذا في اتجاه واحد . وكما يقول المثل التونسي : « عليهم عليهم يا سيدى القاضي » أو كما يقول المثل الآخر : « اذا كان ولدنا ضرب ولدكم هاكا حال الصغار ، واذا كان ولدكم ضرب ولدنا شام النهار » فاية رقابة قائمة عسكرية او مدنية تسمح لصحيفة او لكتاب ان يقولا عشر معشار الحقيقة حتى ولو تلميحا دون تصريح أو حتى باسلوب الخرافة والرمز مثل كليلة ودمنة وقصص جحا ولافونتان . كلا ثم كلا ، فمذهب هؤلاء هو اقامة محاكمة من اجل النية والمقصد اللذين لا يعلمها الا الله . فكيف اذا كانت هناك قطرة من يم ونزر من جم من الحقيقة ؟ الا تعلمون قصة الذئب من الحروف

La raison du plus fort est toujours la meilleure

ان حق الاقوى هو الافضل على وجه الدهر ، او كما قال الرصافي :

يا قوم لا تتكلموا
ان الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا
ما فاز الا النوم
وتأخروا عن كل ما
يقضى بأن تتقدموا
ان قال ان ثمادكم
سيل ! فقولوا مفعم
او قيل ان شهدكم
مر ، فقولوا علقم
او قيل ان نهاركم
ليل ، فقولوا مظلم
او قيل ان بلادكم
يا قوم سوف تقسم
فتحمدوا و تشكروا
و تنعموا و ترنموا

ومع ذلك فان الجزائريين لم يفعلوا ادنى شيء من ذلك فما حمدوا الا الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ولم يمدحوا الجزار ، بل فعلوا ما فى الوسع • بل جاء من المؤرخين حمدان خوجة الذى ذكر مخازى الاحتلال فى عصره ، وجاءت مجلة البصائر التى ذكرت الحقائق كما هى ، وجاءت خطب البشير الابراهيمى ومقالاته التى هى الشهب المحرقة • ولكن ذلك جاء بالاضافة الى فرنسا «عند العيا والكبر» وفى الفصل السابق للختامى من الرواية ذات المائة والعشرين فصلا •

وصارت القضية الجزائرية كما قيل فى حكم عمورية :

السيف اصدق انباء من الكتب
فى حده الحد بين الجد واللعب

ولكن انتهت المعركة الاخيرة بانتصار الجزائريين انتصارا مبينا ونهائيا وابديا • غير ان الكتب التى الفها الاستعمار ووثائق الارشيف والصحافة والمجلات بقيت هى المصدر الوحيد لمعرفة التاريخ ولما رجع الجزائريون الاباسل من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر فمن معارك الجهاد الاكبر معركة الكتاب الاستعماريين والوثيقة الاستعمارية بالترجمة وكشف اللثام ومقابلة الكتاب بالكتاب• وهى معركة طويلة النفس ولكن لا يهم•ولما كانت طويلة فلنبدأ من الايام•فلنترجم ولنهذب ولنحقق ولنحرر النقاط • فما نهض الاسلام الا بترجمة المامون • فعلينا بالترجمة فى هذا العصر الميمون• والا لبقى ابناؤنا يرجعون الى تلك المصادر ويتأثرون بها فتمسخ ادمغتهم ومفاهيمهم ويبقون مع جهل من حقيقة الامر على وجه الدهر • فعلينا ببينيسلين الميكروب التاريخى الاستعمارى •

القاعدة الثانية :

هى ان السياسة الاستعمارية تبدأ اولا بتغطية من التلبسات التاريخية والمغالطات والسفسطائيات وأنصاف الحقائق وارباع الحقائق واللاحقائق واضداد الحقائق • كما تبدأ المعركة المعاصرة بتغطية من اسراب الطيارات تجعل العمران قاعا صفصفا فتاتى الجيوش زاحفة كانها متجولة فى

بستان عمومى هو فى الحقيقة مقبرة للبشر والحيوان والنبات والمعالم والاثار وكل اسباب العمران وموجبات الحياة ·

وقاعدة هى المعركة التاريخية ترتكز على بيت الشاعر :

فان تكن سبة طاروا بها فرحا
وما رأوا حسنا الا وقد كتموا

او قول الآخر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما ان عين السخط تبدى المساويا

وقول المثل : « الى تحبو سقط لو ، والى تكرهو لقط لو » ، او قول المثل الآخر : « الى ما فيه مخلوق ، يشريو هولو م السوق » ، والمثل الآخر : « يقطع يد الى ما تضربش » ·

والمهم فى الامر هو ان نجعل اهل البلاد يؤمنون بحضارة غير حضارتهم ويعجبون بحضارة دين غير دينهم قد اخذ حضارته من دينهم وان نؤمن بعدم وجود حضارة لدينا ولا قدرة على اكتساب حضارة ما او بناء دولة او انشاء دولة علم او ادب أو فن او معمار او تقنية · بحيث ينسى الناس فى امجادهم او يحاول القوم ان ينسوهم فى امجادهم وفى دورهم الحضارى وفى رسالتهم العالمية فيزهدون ويتزاهدون · ووسائل ذلك هى الآتية :

ا ـ العناية بالآثار : وهذه العناية تسبق الاحتلال بمدة تقل وتزيد · وهى تتظاهر ببراءة علمية ما عليه من مزيد ورسالة حضارية سامية وظاهره رحمة وباطنه عذاب ·

فقد جاء الاقطار المغربية Shaw و Tissot واضرابهما وبحثوا عن حضارة الرومان وبينوا مجد الرومان واقاموا الدليل ببراءة علمية ايضا على ان العرب هدموا معالم الرومان وعطلوا الحضارة اربعة عشر قرنا · وبحمد الله جاء الفرنسيون او الاسبانيون او الايطاليون واعادوا مجد الرومان ولا شك ان الفرنسيين والاسبانيين والايطاليين هم احفاد الرومان بالمغرب حقيقة لا غبار عليها ولا مراء فيها ولكنها كلمة حق اريد بها باطل · فالذين قاموا بحضارة الرومان ليسوا الرومان ولكن ابناء البلاد المغاربة · فمدينة شرشال بناها يوبا الثانى الملك البربرى وبنى جامعتها الكبرى والف اول موسوعة علمية عالمية اول جغرافية جامعة · والمسرح الرومانى بناه المغاربة والف مسرحياته القرطاجنى طيرنسيوس وهو واضع علم التمثيل الحقيقى عند الرومان ومؤلف المسرحيات الرومانية الاصيلة الطريفة · والنقد المسرحى وضعه مغاربةاصليون امثال‌اونبيوس وترتوليانوس والقديس أوغستينوس ، واول مشروع رومانى‌وضع المجلة الدائمة هو تونسى من بير بورقبة سلفيوس جوليانوس وكبار الامبراطورية الرومان مغاربة امثال كارل‌كله وسبتيموس سافاروس وغوديانوس الاول والثانى والثالث بناة قصر الجم بتونس ·

وجاء Dussau فبحث عن الفينقة وان الفينقة ام الحضارة بالبحر المتوسط · وهذه ايضا كلمة حق اريد بها باطل فهم يريدون من الفينقة ان

نعدل عن تاريخنا العربي الى الحضارة الفينيقية والحضارة الفينيقية هى حضارة عربية اصيلة لان الفينيقيين من بنى كنعان وهم اليوم من سكان لبنان وسوريا والاردن وفلسطين • فاذا كانت الفينقة هى ام الحضارة ونحن نسلم بذلك فابو الحضارة هو يعرب بن قحطان •

وذهب شامبوليون الى مصر فاخذ يطبل ويزمر لحضارة الفراعنة وهى ايضا ام الحضارات • يا اخى ! يا اخى ! اذا سلمت بانه يجوز ان يكون لاحدهم آباء متعددون فالام دائما واحدة • فما بال الحضارة عديدة •

واذا كنا نسلم بمجد الحضارة المصرية القديمة وانها اثرت فى حضارات البحر المتوسط حتى الحضارة البونيقية نفسها فما هى الا حضارة مصرية مسبوقة بحضارة ليبية ومجدمصرفىعصرها العربى الاسلامى اضعاف مجدها الفرعونى الذى فيه حضارة اليمن وحضارة الهكسوس وحضارة الايرانيين وحضارة الليبيين البطوسين Battides من اهل الشحات Cyrène والمصريون الاقدمون والمحدثون عرب ، والا فما بالهم ينشئون الجامعة العربية ويحدثون المرة بعد الاخرى شخصية علمية وادبية وفنية عربية اسلامية كبرى ولماذا يخرج منهم كبار المصلحين المعاصرين الى جانب الامير عبد القادر وخير الدين باشا التونسى •

ثم يذهب اخواننا الاثريون الى تركيا يبحثون عن آثار الطوخاريين والحثيين فيجدون السد الابيض وحضارة الاتراك القدامى من سرامطة وحثيين ولكنهم يشتمون الفاتحين الاتراك امثال اتيلا وهولاكو وجنكيز خان وتيمور لنك ويمشى المتأوربون من الاتراك فى هذه السبيل ويبقى الشعب التركى الاصيل والعقلاء فى حظيرة الاسلام الذى كون حضارتهم الكبرى واعز دولة ظهرت فى بلادهم •

ويذهبون الى العراق ، فيبحثون عن آثار بابل وآشور واور ونينوى ويحاولون تبيين انها اعظم من حضارة العراق الاسلامى •

ولا يصيب العراقيين الجنون والافتتان بترهات هؤلاء العلماء الذين لا يبحثون « لله » لانه «ما ثماش قطوس يصطاد لربى» ، ولكن كل هذه البحوث لابعاد الناس على حضارتهم الاصلية والهائهم بحضارات سابقة هى جزء لامع من حضارتهم الاصلية وجعلهم لا يؤمنون بحضارتهم الى آخر ما قلنا •

وانتقل الاثريون الى ايران نفسها والى الهند فتحدث كريستنسنى Christensen عن الساسانين وكليمان هوار Cl-Huart عن تاريخ ايران فى العصور القديمة كل ذلك قصد انساء الايرانيين والمسلمين عامة فى مجد الطاهريين والصفاريين والصفويين والغزنويين واثبات عظمة قورش ودارا ورستم وانساء عظمة البخارى والنسائى والترمدى والبيرونى وابن سينا والشيرازى وابن بختيشوع والخوارزمى ، بل بلغ من امرهم انهم مجدوا الخيام الشاعر وحاولوا انساء الناس فى عمر الخيام الرياضى والعالم بالجبر والمقابلات والمثلثات •

وحاولوا تمجيد هند بوذا وبراهما والنرفانا وانساء الناس فى هند محمود الغزنوى واكبر واورنغ ذيب وتاج محل واقبال والتهانوى ٠

ب ـ **الحملة التشويهية** : العربى جاهل قذر وسخ اشوه يلبس اطمارا بالية واسمالا ملطخة مرقعة قملة وهو كذوب لص مخادع كسول مراوغ قلب فاسد الاخلاق عديم المروءة لا عهد له ولا ميثاق ضعيف مريض يحمل جراثيم الاوبئة وينشر الامراض الوافدة غير مؤتمن لا يمكن ان يسترسل اليه فى اى امر ٠

هذه هى الحملة التشويهية التى قام بها الفرنسيون ضد الجزائريين قبيل الاحتلال وعند الاحتلال وخلال الاحتلال وبثوها فى كل مكان بجميع وسائل الاعلام من صحافة وكتب ومسرحيات وروايات وقصص وخطب ومحاضرات ٠

لكن ! كيف يقام الدليل على ذلك ؟ الامر بسيط ٠ يقال بالتونسية : « من لحيتوا اقبل لو شكال» فقد قال ابن خلدون وهو اكبر مؤرخى العرب « اذا عربت خربت واذا خربت لم تعمر » ، لا شك انها كذبة فقد قيل لرجل : بما ذا عرفت انها كذبة ؟ قال : من كبرها ٠ فابن خلدون لم يقل العرب وانما قال الاعراب اى البدو الرحل فيأتى المسيو دوسلان ويترجم Les Arabes وتبنى على ذلك دنيا الاكاذيب وترهات بسابس والمزاعم والنظريات الخاطئة ٠ لكن من يستطيع ان يكذب المسيو دوسلان ؟

اذا قالت حذام فصدقوها
فان القول ما قالت حذام

العربى جاهل : لا يا سادة ٠ فكتابه الكريم يبدأ بفعل الامر من مادة قرأ ٠ ويسمى القرآن ولا يسمى كتاب كاء الشجرة La Bible ونبيه يقول : «طلب العلم فريضة على كل مسلم وكل مسلمة» ويقول : «اطلبوا العلم من المهد الى اللحد» والله تعالى يقسم بالقلم فى كتابه فيقول : « ن والقلم وما يسطرون » ويقول تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ٠

والمسلمون هم الذين علموا أوربا الصفر والارقام العربية والحساب والجبر والمقابلة والمثلثات والخوارزمية وعلموهم الفلك وقاسوا لهم خطوط الطول وخطوط العرض وعلموهم المعمار المرجن فبنوا لهم كنائسهم المرجنة واديرتهم وقصورهم باوربا واميركا ، وهم الذين نقلوا اليهم الكاغد والطباعة والتجليد ، وهم الذين علموهم الكيمياء والطبيعية والدورة الدموية والتحليل والتصعيد واصول الصيدلة المنفصلة عن الطب وعلموهم تلقيح الجدرى وعلم التطعيم بوجه عام ٠ واخترعوا لهم الساعة والدفة والبوصلة والاسترلاب والخرائط البحرية وعلموهم مسالك البحار ٠ وعلموهم القافية والوزن والموشح والزجل والغرام المتظرف والبلاغيات وعلموهم الجمع gamme والنوطة الموسيقية وادخلوا الى بلادهم العود والرباب rebee والنقارات hacaire والسرناى haubois وعلموهم البلطة hallebarde والاسلحة النارية من البندقية الى المدافع ونظام

الاستحكامات فى القلاع ، فهل يبقون بعد كل هذا جهـــالا ؟

وانما انتم جهلتموهم فأغلقتم مدارسهم الوطنية وحرمتموهم من مدارسكم وجامعاتكم على حـــين انهم فتحوا لكم جامعات قرطبة وطليطلة وبالـــرم وسالرن والقيروان وبجاية وفاس .

المسلمون قذرون ؟ استغفر الله ! فالمسلـــم يغتسل طهورا اكبر مرة فى الاسبوع على الاقـــل وهو قد اخترع الحمام الرائع والمشن والصابون والطفل المعطر وانواع الغوالى crème de beauté حتى سميت الغالية بالاسبانية algalia وبالفرنسية القديمـــة algalia وبالبرتغالية algalie وهم الذين ابتدعوا لكم انـــواع العطور والمسك والزبد (انظر الجزء الثانى عشـــر من نهاية الارب للتويرى وكتاب العطور للكندى) وقد نشروا فى اوربا الصابون ، ولفظ الصابون وصناعة الصابون كما نشروا لفظ الزبد cevette ومسك musc والانبيق alambic وجـــلاب julape وماء الزهر agna de azahar وهم الذين اهتموا بنظافة الثوب ونظافة المكـــــان ونظافة المدينة وهم الذين يغسلون اطـــــرافهم ورؤوسهم ويستنون ويستنشقـــون ويستنثـــرون خمس عشر مرة فى اليوم ، وهم الذين لا تصـــح صلاتهم الا بطهور البدن والثوب والمكان والذهن والقلب فكيف يكون العربى قذرا ؟

وما قلناه عن العربى الجاهل والعربى القـــذر نقوله عن العربى السارق فهذا اختلاق آخـــــر ما انزل الله به من سلطان . هل العربى احـــــذ اراضى الفرنسى ام الفرنسى اخذ اراضى العربى ؟

ولولا خوف الاطالة لاوردنا من الامثلة العجيب والغريب .

والمهم من هذه السياسة التشويهية هو خلـــق مركب النقص ومركب الجريمة فى نفس العربى حتى لا ينوى يوما ان يثور على الجنس الرفيع الـــذى يحتل بلاده بعقود رومانية وغالية gauloises أخنى عليها الذى أخنى على لبد .

ومع ذلك فما خضع العربى ولا خنع ولا ارغم انفه فى التراب . ولا ذل ولا استكان ولا تمسكن حتى يتمكن الى ان قضى الله امرا كان مفعولا .

فكل هذا الادب التاريخى التشويهى يجب ان يجمع لنتعرف عليه حتى لا يختلط على الباحثين فى التاريخ الحابل بالنابل وحتى نعرف الكوع من البوع وحتى ننقى الحنطة من الزوان وحتى نجعل ما لله لله وما لقيصر لقيصر .

القاعـــدة الثـــالثة :

اننا اذا حللنا طبقات المؤرخـــين المستشرقين وجدنا عند آخر تحليل انهم ينقسمون الى ثلاث طبقات :

الطبقة الاولى .

المؤرخون المستشرقون الذين ينتسبون الى اقطار غير استعمارية ، فهؤلاء يكونون عادة اقرب انصافا فى دراستهم أو اقل حدة فى احكامهم فتاريخ الادب العربى لكارل بروكلمان أو كتابه الآخر « الموجز فى تاريخ اللغات السامية المقارنة » لا يمكن ان

بوصفا بتعصب بل انهما معلمان من معالم الدراسات الاسلامية لا يوجد بالعربية لهما مثيل الا ما ترجم منهما • وكتاب زار Sarre في تاريخ التجليد الاسلامي شيء عظيم وكفى بالله • ولا عيب فيه الا انه لم يترجم بالعربية • وكتاب Toussaint المكسيكي عن تاريخ الفن المدجن الاسلامي بامير كا El arbe mudejâr en Amérique يقيم الدليل القاطع والبرهان الساطع على ان المعماريين المدجنين الاندلسيين الذين كانوا التقنيين في ذلك العصر قد بنوا طوال اربعة قرون كنائس جمهوريات امبركا واديرتها وقصورها وبساتينها بطراز عربي فيه الزليج والنقش العربي والقبة والسقف العربي والمشربية « القنارية » Verandah Loggia وذكر لنا البعض من اسماء هؤلاء وآتى بالتصاوير التي هي البرهان الذي لا يدحض • فهذا الرجل قد قام بعمل تاريخي لبيان مجد المعمار الاسلامي لم يقم به أي مؤرخ معماري مسلم • ودياماند الاميركي الذي ألف كتابا في الفنون الصغرى الاسلامية من اثاث وانسجة وسلاح وزجاجيات وعاجيات واوان وحلي وتحف على اختلافها هو ايضا محتاج الى ان يقام له تمثال •

الطبقة الثانية •

المؤرخون المستشرقون المنتسبون الى اقطار قامت فيها دولة العرب والاسلام مثل الاندلس والبرتغال وجنوب فرنسا وجنوب ايطاليا (قلوريات كالابريا Calabre وصقلية وسردانيا ومالطة) • فهؤلاء معظمهم منصف اذا تحدث عن تاريخ المسلمين في بلاده او في العالم واقلهم المنصف اذا تحدث عن تاريخ البلاد التي يستعمرها مثال ذلك غوستاف لربون في تاريخ العرب فقد اعطاهم حقهم وزيادة وعرف بحضارتهم ليس الافرنج فقط بل حتى المسلمين ، ومثل Leclerq في تاريخ الطب عند المسلمين ومثل W. Marçais في تاريخ الحديث وقيمته العظمى التربوية والاخلاقية عند الامم كافة فلا يوجد له نظير في أي ادب من آداب الامم ولا عند آداب الامم كافة • أو في بحثه عن اللهجات وأصول الكلمات المغربية أو في تخريجه المدرسين المسلمين الافذاذ اما اذا دخل السياسة فيصير شيئا آخر ومثل Pons Bouygues باسبانيا صاحب كتاب طبقات المؤرخين الاندلسين وقد احصى فيه وترجم بما ينيف عن ستمائة مؤرخ اندلسي ومنهم المؤرخات ومثل قنزالس بلنسيه صاحب كتاب تاريخ الادب الاندلسي الذي ترجمه وعلق عليه الدكتور حسين مؤنس ، ومثل كتاب تاريخ الحضارة الاندلسية وتاثيرها على حضارة اوربا الذي شرعنا في ترجمته ، ومثل كتاب El Islam الحضارة الاسلامية في حضارة اوربا الناشئة • y OccidenTe وهو اروع ما كتب عن تأثير وقد ترجمناه وهو ماثل للطبع •

ومثل اماري الايطالي صاحب كتاب تاريخ مسلمي صقلية وهو معلم ومعلمة نادر الوجود ولم يترجم الى الآن ، ولست ادري ما يصنع الناس • ومثل Mielli الايطالي صاحب كتاب تاريخ علماء الرياضيات عند العرب ، ومثل Schiapparelli الذي الف تاريخ المعمار الاسلامي بصقلية •

اما اذا انتقلنا الى الريف الاسباني سابقا او الى ليبيا التي رزحت تحت نير الايطاليين فان الانصاف يقل ومع ذلك نجد من بحث بانصاف مثل Romanelli في تاريخ ليبيا الرومانية واقوستيني في تاريخ القبائل العربية ببرقة · اما اذا وصلنا الى Beguinot فيجب ان نتجهز بالمقص العازل والمجهر الميكروبي ·

الطبقة الثالثة :

ونعني بها على الاكثر المؤرخين المستشرقين الذين نشؤوا ببلاد الاستعمار نفسها او الذين نشؤوا خارجها ولكنهم سخروا اقلامهم لخدمة الاستعمار في الدواليب الحكومية او الدواليب الاستعمارية ·

ثم ان هذه الطبقات الثلاث تنقسم بدورها الى الصنوف الآتية :

الصنف الاول : الباحث العلمي النزيه والمؤرخ المتمحص للبحث عن الوثائق الصحيحة من مخطوطات وكتب تاريخ ووثائق خزائنية للوصول الى حقيقة تاريخية لا غبار عليها تبين مزية العرب على الحضارة مثل دراسة Blum عن الكاغد عند العرب ونشرهم اياه باوربا وفضلهم على الثقافة بهذا النشر · ومثل دراسات جامعة هال عن تاريخ الفلك عند المسلمين ، ومثل تآليف Vernet و Villacrosa الاسبانيين عن تاريخ الرياضيين الاندلسيين ، ومثل تآليف Ribera عن تاثير الموسيقى العربية باوربا وتاليفه الآخر عن تأثير القصة العربية في كوميديا دانتي الايطالي الالهية ومثل تالف Joseph Bedier في تاثير القصة العملية في أدب القصة باوروبا ·ومثل دراسة لاوي بروفانصال عن نشأة شعر الطروبادور على غرار الموشح الاندلسي ووجود الخرجة العربية في شعر الطروبادور Guillaume d'Aquitaine (القرن التاسع الميلادي) أو دراسات الدكتور Reinaud عن اطباء العرب بالاندلس والمغرب أو Souneck عن الموسيقى الاندلسية أو Farme Rudolphed Erlange Coulangette عن الموسيقى العربية ، أو Terrasse و G. Marçais و Golvin أو Alexis Chottin عن العمار المغربي · عن الموسيقى المغربية فهؤلاء نستطيع ان نطمئن اليهم مع التحصن بالاحتراز كما قال الشاعر :

أعد نظرا يا عبد قيس لعلما
اضاءت لك النار الحمار المقيدا

أو كما يقول المثل التونسي « اقرأ يس وهز حجره في يدك » أو كما قال مالك ، رضي الله عنه « اعقلها واتكل » وحتى لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين ·

وقد قال صالح بن عبد القدوس :

واذا امرؤ لسعته افعى مرة
تركته حين يجر حبلا يفرق

وهو مثل المثل الجزائري : اللى لدغته حية من ظل الحبل يفزع ·

وقال ابن شمس الخلافة :

ومن يذق لدغة الافعى ، وان سلمت ، منها حشاشته يفزع من الرسن والمثل التونسي يقول :

التي يقرموا الحنش من جرة الحبل يخاف ·

الصنف الثاني

المؤرخ المستشرق المحايد · وهو غالبا يبتعد في الزمان أو في المكان · مثل Stephan Gsell الذي درس بدقة لا مزيد عليها تاريخ المغرب القديم قبل العرب أو مثل Carcopino الذي درس تاريخ المغرب الاقصى القديم فاجاد · فهذا الصنف قد درس مواضيع تهم تاريخنا مباشرة لكن في غير العصور الاسلامية ، ونحن بوجه عام لا نعرفه كثيرا وليست لدينا عنه مصادر كثيرة · وهم في الغالب مرتبطون بوثائق اثرية يصعب الطعن فيها فالقسم الاول من تاريخنا يمكن الاعتماد عليهم فيه بالاعتبارات الاتية :

الاعتبار الاول

ان البربر عرب من حمير فحضارتهم حضارة قحطانية عروبية أولى . وليست هنالك خرافة ثلاثية البربر من السلت الغال gaulois من السلت ، فالبربر من الغال واذن فهم فرنسيون فهذه تسمى بالتونسية خرافة أم سيسى تكنس تكنس لقات فلشين ، أي شنشنة اعرفها من اخزم أو حديث خرافة يا ام عمرو ·

الاعتبار الثاني

ان الفينيقيين عرب من بني كنعان فحضارتهم حضارتنا ومجدهم مجدنا ·

الاعتبار الثالث

ان آثار الرومان بالمغرب هي آثار المغاربة لا الرومان · فهي جزء لا يتجزأ من تراثنا لا من تراث غيرنا ·

الاعتبار الرابع

ان آثار البربر والفينيقيين والرومان بالمغرب اعظم منها بالمشرق فحضارة البربر الكبرى انما ظهرت بالمغرب 50،000 سنة قبل المسيح حسبما تدل عليه حفريات الغارامنت بليبيا ، وحضارة الفينيقيين انما ازدهرت بالمشرق ·

ومعالم الرومان وأدابهم وفنونهم ومسرحهم ومعمارهم وطبهم وقوانينهم ومحاكمهم انما ازدهرت بالمغرب اضعاف ما ازدهرت بالمشرق وقامت على ايدي مغاربة اضعاف ما قامت على ايدي رومانيين حتى في رجال النصرانية نفسهم وما عمله الامبراطرة المغاربة الذين جلسوا على عرش رومة اعظم مما عمله الامبراطرة الرومان واقرب الى الانسانية ، فخذ لك مثلا من ان القانون الروماني يقسم الناس الى populus-romanus الشعب الروماني والى Rem · لا شيء أو شيء بالمعنى المغربي أي ان « الاهلي » هو بمثابة حجر لا ينتفع به أو عنكبوت أو اية كمية مهملة فلا وجود له قانوني ولا حق له في التراجع لدى المحاكم الى آخر ما هنالك وهذا يذكرنا بدقة بقوانين الاهلية بالجزائر فلما جاء الامبراطور سبتيموس سافاروس وهو بيسى محا هذه الفروق العنصرية فصار « الاهلي » بدون

ان يتجنس يملك ويتعلم ويتصرف ويكون ناخبا ومحوبا ٠

الصنف الثالث

المؤرخ المستشرق المغرض الذى يريد ان «يغطى عين الشمس بالغربال » وهم غلاة الاستعمار بسنان اقلامهم وعذبة لسانهم الذى هو اشد سما من الافعى ٠ ولهؤلاء كتبهم التى يدسون فيها السم فى الدسم مثل Gauthier فى كتابه « عصور المغرب المظلمة » و André Servier الذى يريد ان ينبذ عرب الجزائر الى الصحراء (ويا حبذا فى هذا الزمان ! لو كان يدرى !) ٠

وهؤلاء قد يذكرون حقيقة ما احيانا ولكنها غابة حطب على وقية عسل فانت يجب ان تبحث عن الحقيقة فى قعر البئر ٠ وموقفنا من هذه الكتب ومن صحف مورينو واضرابه وخطب غلاة الاستعمار ان يترجم ويحلل ويصنف ما فيها ليعلم الناس الحقائق المرة اليوم ونحن فى فرحة الحياة وليتبين مجد المجاهدين الذين اخرجوا الناس من هذه المتاهة المظلمة النتنة العفنة المملوءة بالاشواك والعقارب وكسارة الزجاج والافاعى والنيران الملتهبة والاصوات المزعجة والنيازك المحرك والتى دامت 130 سنة بدون ان يعلم لها آخر وبدون ان يساعد الجزائرية من خاتمة المطاف والخروج من المتاهة بسلام وعافية ومجد وشرف ٠

ولهؤلاء فضل علينا عظيم حيث قال الشاعر :

عداتى لهم فضل على ومنة
فلا اذهب الرحمان عنى الاعاديا

هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها
وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا

فهم حافز لها وأى حافز للبحث عن امجادنا واخراج دررها اليتيمة اللموعة المخبوءة فى اصدافها المغمورة فى اغوار البحار الهوجاء ٠

2 ـ صميم الموضوع :

قد تبين من كل هذا ان العمل بالاضافة الى المؤرخ المسلم المعاصر هو ان يطرح كل شىء وان يبدأ من الصفر ٠ ومعنى ذلك يتلخص فى المناهج الآتية :

المنهاج الاول : ترجمة كتب المستشرقين وبعد تقسيمها الى **أ** و **ب** و **ج** فالف هى كتب المستشرقين النزهاء و **ب** هى كتب المحايدين ، و **ج** هى كتب المغرضين ٠ فنجعل قائمة من ذلك ونترجم اكثر ما يترجم ونهذب ما يمكن ان يهذب ونصحح ما يجب ان يصحح ٠ وهو عمل طويل نفس دقيق وجدى ونفيس ٠

المنهاج الثانى : ان نلجأ الى الوثائق الثابتة وهى الانواع الآتية :

النوع الاول : الآثار ٠ كل الآثار وان نعيد النظر فى دراستها وان نجمع المصادر التى الفت عنها ٠ فلا توجد بالجزائر قرية او قبيلة لم يكتب عنها الفرنسيون واغلب ما كتبوه ففى مجلات الاثريين . انظر :

S. Gsell : Atlas archéologique de l'Algérie + bibliographie.

وفى مجلة La revue Africaine **ولمعرفة ذلك** فلينظر المصادر الجزائرية الصادرة سنة 1930 و Pearson : Index Islamicus وفهارس دار الكتب

الوطنية الجزائرية وليضبط فى ذلك فهرست ابجدى بمصادر تاريخ المدن والقرى والمداشر والقبائل الجزائرية ، هذا عمل اولى يسهل البحث على الباحثين • وينطلق منه الباحثون فى كل ناحية يبحثون عن ناحيتهم •

النوع الثانى المعمار : وهو المدارس المعمارية الجزائرية من العهد الحجرى الى البربرى الى البونيقى فالرومانى فالوندالى فالبيزنطى • ثم العصور الاسلامية من عصر الولاة الى الرستميين الى الفاطميين الى الحماديين الى الموحدين الىالاتراك• ثم يقارن بالمدارس المغربية والمشرقية ويقابل المدارس الاوربية وما كان مبلغ تأثيره عليها •

ويراجع من اجل ذلك :

Creswell : Early Islamic architecture
G. Marçais : Manuel d'Art Musulman et toute son œuvre.
Terrasse : Introduction à l'art Maghrébin.
Golvin : La Mosquée - La Kalaâ des Beni Hammad - Sitifés etc...

وللمقارنة :

Ahmed Fikry : La Cathédrale du Puy
Emile Boule : Ses études sur l'influence de l'art musulman sur l'art français + bibliographie.

النوع الثالث الفولكلور : فغالب الشعوب الاوربية او الامريكية او الاسياوية او الافريقية او الاسترالية التى كانت تحت الاستعمار واخذت تبحث عن تاريخها وجدته فيفولكلورها • فالفولكلور يشمل الامثال التى هى حكمة الامم وديوان سلوكها ومصدر تربيتها وعماد تفكيرها • ويشمل الملاحم التى هى ديوان ادب وشعر ولغة وقوة تعبير وتاريخ احداث ماجدة وبطولات نادرة • ويشمل دراسة الالبسة والاطعمة والاشربة والزينة والحلى والاسلحة والمسارح الشعبية والعلوم الشعبية الى غير ذلك ، فهذا ايضا مصدر حقيقى للبحث عن تاريخ الشعب الحقيقى • وقد كتب الفرنسيون كثيرا عن الفولكلور وكتب عنه المسلمون (رشيد ابن شنب ، بخوشة ، شعيب التلمسانى ، بلغوثى بو على وغيرهم) • واكثر هذه الدراسات مفهرس بدار الكتب الوطنية الجزائرية وبالمقامات التى اشار اليها Pearson فى Index Islamicus وهذا قليلمن كثير فيجب القيام بالمسح الفولكلورى cadastre folklorique اى انطلاقا من المدن والقرى والمداشر والقبائل تتكون لجان محلية صغرى فى الدائرة ، تصب عملها فى الولاية التى ترسل الكل الى اللجنة الوطنية الفولكلورية بالعاصمة •

النوع الرابع : المسح الثقافى cadastre culturel

ويشمل :

اولا : الدواوين corpus اى دواوين الدواوين النقاشية corpus des inscriptions وهى بربرية وبونيقية ورومانية وعربية وتركية فيجب ان تكمل الى يوم الناس up to day

ثانيا ديوان الكتاب الجزائرى : وهو احصاء الكتاب الجزائرى منذ ظهوره الى يوم الناس بأية لغة (بربرية ـ بونيقية ـ لاتينية ـ يونانية ـ عربية ـ تركية ـ فرنسية ـ اسبانية ـ وبأية لغة اخرى كتبت عن الجزائر ويسمى هذا :

corpus librorunus algerisorunus

ويكون فى يوم ما جزاء corpus librorunus araborunus

ثالثا : ديوان الرجال الجزائريين (من رجال

ونساء) المشهورين عبر التاريخ في الحرب والسياسة والعلوم والادب والفنون والتاريخ والتقنيات والتجارة والبحرية والاختراع • على غرار الاعلام للزركلي ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة • ويعتمد فى ذلك على ترجمة الرجال فى كل عصر يوبا الثانى ، عقبة بن نافع ، وعبد المومن ابن على ، وباديس ، وابن باديس الخ ••• بدون فرق ولا تمييز •وتذيل كل ترجمة بمصادرها •

رابعا : ديوان الامكنة الجزائرية (جبال ـ انهار ـ رؤوس ـ خلجان ـ بحيرات ـ مدن ـ قرى ـ مداشر ـ قبائل ـ) ويذيل كل فصل بمصادره •

ومن اجل الفقرات الرابعة والثالثة والثانية والاولى اعلاه تؤسس اكاديمية العلوم التاريخية والجغرافية الجزائرية التى يكون اعضاؤها جزائريون ولها مراسلون اجانب فى الخارج ولها فرع فى كل ولاية وفرع ثانوى فى كل دائرة ولها فرق مسح جوالة مزودة بالآلات العصرية البصرية والصوتية والقبسية ولها روزنامة آجال معينة مسبقا • ولها الاعتمادات اللازمة للقيام بهذا العمل الجبار الذى يمكن ان يتم فى عشر سنوات ولا مزيد •

وتضاف اليها ايضا مؤسسة ترجمة المصادر التاريخية واعدادها التى تتولى :

اولا : ترجمة الكتب التاريخية التى الفها الاجانب او الوطنيون او المخطوطات التى يعثر عليها ، فتجمع هذه الكتب وتعطى لها ارقام قيمية من واحد الى عشرة وتمتد ترجمتها ونشرها على عشر سنوات فما كان برقم واحد يترجم فى السنة الاولى وما كان برقم اثنين يترجم بالسنة الثانية وهلم جرا الى العشرة •

فاذا جاءت السنة العاشرة وهى 1984 يكون قد تم كل شئ •

وهذه اللجنة نفسها تعد المصادر الجزائرية ما كتبه الفرنسيون او الانكليز او الاسبان او العرب • وما يوجد فى الصحافة الغربية (Pearson : Index) والعربية ، وما ينشر على التوالى بأية لغة من كتاب ومجلة وصحيفة بالاشتراك مع وكالات التحنيل المكلفة بذلك •

ثانيا : تضاف اليها مؤسسة تاريخ التحرير الوطنى عبر التاريخ فتؤلف معجما باسماء الوقائع ومحالها وتاريخ احداثها ورجالها وابطالها وتذيل ذلك بالمصادر الوطنية التى هى فى الغالب تكون مسجلات وعرضحالات عن شهداء عيان او تقارير عسكرية وطنية او اجنبية واخباريات وكالات الاخبار او كتب تاريخية معاصرة • وقد فعل ذلك بالاضافة الى ليبيا العلامة الليبى السيد خليفة عمر التليسى انطلاقا من المصادر الوطنية والايطالية واصدر معجمه فكان من عجائب الدنيا•

على ان هذا العمل يقتضى مشروعا داخليا ـ وهو الذى ذكرناه من اوله الى آخره ـ وعملا عربيا اسلاميا وهو الذى تعقد له مؤتمرات على ضوء هذه المعلومات الصالحة للجميع وهذه المناهج العامة التى يمكن تطبيقها فى كل مكان وزمان • ولكن هذا ياتى من بعد • وفى راحة بال وبعد تجارب اولى تصحح الاوضاع وتثبت او تعدل النظريات والمبادى المرسومة • وفوق كل ذى علم عليم •

3 ـ الموضوع فى العصور الجاهلية :

وهى العصر الحجرى ، والعصر البربرى ، والعصر البونيقى ، والعصر الرومانى ، والعصر الوندالى ، والعصر البيزنطى • اما العصر الحجرى فهو كله مبنى على الآثار والمقارنة • لكن الفرنسيين يركزونه على آثارهم من انسان كرومانيون بينما العصر الافريقى يعتمد على انسان بير العاتر او الانسان الوهرانى او الانسان الغرامنى او الانسان الكبسى l'homme capseen وكلها حضارات ترجع الى العصر الحجرى وهى اقدم عهد وادق حضارة من انسان كرومانيون •

واما العصر البربرى فهو يعتمد ايضا :

أ ـ على النقوش الصخرية بالمغرب والجزائر وتونس وليبيا . ويعتمد على الكتابات الهيروغليفية الواردة فى المسلات والمصاطب وغرف وادى الملوك وادفو وغيرها .

ويعتمد على كتب الانساب البربرية القديمة المكتوبة باللوبية والتى ترجمت ببيت الحكمة بالقيروان والتى اعتمدها ابن خلدون ، وكتب الانساب الوسيطة مثل تآليف سابق المطماطى وغيره من نسابى البربر ممن اعتمد ابن خلدون أيضا . وتعتمد على اسماء القبائل المقارنة مثل حمير وخمير وغمارة ، وعلى الصلات اللغوية بين الحميرية والبربرية وعلى اسماء الامكنة البربرية وعلى العادات البربرية المشابهة للعادات اليمنية فى المسكن والملبس والمآكل والاثاث والخط وغير ذلك ، وعلى تحبيط خرافات الاوروبيين فى المقارنات اللهجوية أو الانثروبولوجية المدلسة مثل تلبسات Chantre et Berthlon فى
Recherches anthropologiques dans la Berberie orientale.

وعلى اخبار البربر التى أوردها مؤرخو اليونان هيرودتوس ، بوبولبوس وقد جمعها S. Gsell فى كتاب بالفرنسية تجب ترجمته للتخلص من الموضوع مرة واحدة نهائية . أو مؤرخوا الرومان الخارجيون مثل ساللوسطس أو الداخليون الوطنيون مثل ابو ليوس وفلوروس واولو جيلس والقديس أو غوستينوس وغيرهم . وهذه الكتب عظيمة الاهمية وقد درسها Paul Monceaux فى Les Africains و La littérature romaine d'Afrique

علاوة عن الالمانى Mommser فى Geschiechte der Römer تاريخ الرومان وهو اوسع كتاب فى تاريخ افريقيا الرومانية . أو ما كتبه الفرنسيون أو الايطاليون عن افريقيا الرومانية مثل Boissier
S. Gsell Toutian Boissièr Andollent Vergara
Combes Romanelli Toulotte الخ ...

واما العصر الوندالى فقد كتب عنه مطولا Schmidt الالمانى : Histoire des Vandales

وهذا الكتاب لابد ان يترجم لانه دسم ككل الكتب الالمانية (وهو مترجم بالفرنسية فصار الامر سهلا) و Gauthier : Genseric Roi des Vandales يجب ان يترجم أيضا .

واما العصر البيزنطى فقد افرده بالتأليف Charles Dichl فى كتاب L'Afrique Byzantine وهو ايضا يحتاج الى ترجمة وكلها تدخل فى البرنامج العشرى على ان الكتاب المطول الدسم الذى جمع فاوعى فشمل باطالة واسهاب وتدقيق وشمول كل عصور الجاهلية المغربية فهو S. Gsell :

Histoire de l'Afrique du Nord dans l'Antiquité

وهذا اذا ترجم فقد حققنا للمغرب الجاهلى كتابا مطولا دسما مثل كتاب جواد على تاريخ العرب فى جاهليتهم وبنفس الاسلوب والدقة والعدد .

ونحن لسنا فى حاجة الى كثير « التنقية » و « التصفية » و « التمحيص » فى هذه الكتب لان اصحابها كتبوها بنية التمجيد والتحميد والمثل يقول ما توصى يتيم على نواح اذا بكى اعمى عينيه ويقول المثل الاندلسى آش (سيد) تعلم اليتيم البكا ، وجاء المثل المغربى قائلا : « لا توصى يتيم على بكاه . أو هو كما يقول المثل التونسى الآخر : آش يعمل السراج فى سرج ابنو » ؟ .

من بواعث الإستشراق

وأهداف المستشرقين

عبد الرحمن الجيلالي
مؤرخ جزائري

لقد أدرك رجالات الغرب فضل العرب على العلم منذ توطيد سلطان الامويين بالاندلس ، وان المدنية الشرقية والحضارة العربية الاسلامية سبقت اختها الغربية بقرون • فاخذ بعض المتحمسين من هؤلاء الغربيين – حبا في الاطلاع وللمعرفة والعلم – الدخول الى تلك المملكة العربية الاسلامية للدرس على علمائها ثم العودة بعدها الى بلاده لنشر ما اخذه عن العرب بين قومه وفي انحاء وطنه الغربي ، وكان فيهم اليهود والنصارى ،

وفيهم من أخذ بحظ وافر من علوم الشرق فانتفع بها فى حياته العملية وحاز بها أعلى المراتب، فكان منهم من ارتقى الى البابوية مثل البابا « سلفيستر الثانى » الذى تخرج من مدارس الاندلس، وكذلك « البير الكبير » و « روجى باكون » وغيرهم، وكان الله سخر العرب لفتح الاندلس وصقلية وتعميرهما حتى ينقلوا لاهل أوروبا ألهم الحضارات .

وشاعت فى القرون الوسطى يومئذ لغتان شرقيتان واشتهر امرهما بين العلماء هما العربية والعبرانية، فالعربية هى لغة الدين الجديدوالدولة الجديدة العتيدة ولغتها هى لغة العلم والفلسفة يومئذ، واللغة العبرية هى لغة من اللغات السامية الشرقية الاصيلة فكان من الواجب على المستشرق ان يطلع على ما فى هاتين اللغتين من علوم ومعارف، فكان من أثر ذلك تأسيس درس عام بباريس (أواسط القرن الثالث عشر) لدرس اللغة العربية، وكانت أول ترجمة للقرآن عرفتها اوروبا هى ترجمة ما كتب طليطلة التى نقلها « كونيت » سنة 1143 م مستعينا باثنين من العرب وعرضها على « دكلين » بقصد نقدها، فاتضح يومئذ بهذا ميدان للاستشراق .

وكان فى طليعة المعتنين بهذه البحوث الاستشراقية ولا سيما منها العربية هم الرهبان فتراهم منكبين على دراسة الفلسفة الاسلامية وترجمتها الى اللاتينية وبذلك تسربت اليهم علوم العرب . وذلك لان الفلسفة فى عهودها الاسلامية الاولى كانت تنطوى على العلوم كلها ولم تعرف باقسامها الحاضرة الا بعد ان تفرعت العلوم أخيرا فقط .

ثم تنوعت اغراض هؤلاء المستشرقين واختلفت مقاصدهم بحسب اختلاف اتجاهاتهم نحو الشرق وتنوع غاياتهم منه، سياسيا، ودينيا، واقتصاديا، وأدبيا، ففى أوائل القرن السادس عشر ظهر الخلاف الدينى الذى وقع بالثورة البروتيستانية فى المانيا وعم الغرب كله واضطر اهله الى الرجوع بمباحثهم اللاهوتية الى دراسة التوراة العبرية فاضطروا حينئذ الى التعرف على قواعد اللغات الساميةفدرسوا منها العربية والعبرانيةوالكلدانية والسريانية وقابلوها ببعضها بعضا استعانوا فى ذلك باليهود والعرب، فاتسع لهم بذلك مجال البحث وفشت بسببهم البحوث حول الآداب الشرقية وانشئتيومئذ المنابر لتعليم اللغةالعربية فى أشهر مدارس اوروبا . وطبعت التوراة لاول مرة بالعربية فى ألمانيا سنة 1514 م وحصرت هذه الحركة الاستشراقية اتجاهها ضمن الدراسات الدينية ردحا من الزمن ولم تتحول الى الآداب العامة الا فى الاعصر التى نظمت فيها العربية بباريس تنظيما علمانيا ايام وجود المستشرق الفرنسى « سيلفيستر دوساسى » فى القرن الماضى، ويومئذ ظهرت الدراسات الوافية باللغات الاوروباوية كاللاتينية وغيرها تبحث فى تاريخ العرب والاسلام وقل مثل ذلك فى السياسة والاجتماع .

وبما ان كلا من دول فرنسا وانكلترا وهولاندا وأمريكا والنمسا والمانيا كل منها كانت ولا زالت

لها مصالح مرتبطة بالشرق وتلك المصالح غالبا تناط بالسفراء والقناصل فكان رجال السلك الدبلوماسي مضطرين الى دراسة اللغات الشرقية، وكان عكوفهم على تفهمها حق الفهم باعثا لهم على البحث عن المخطوطات المؤلفة بلغات الشرق فاجتمع لهم في تنقلاتهم ورحلاتهم في الشرق كميات ثمينة من المخطوطات النادرة هي اليوم زينة المكتبات المعتبرة في أوروبا ، كما انه كان من بواعث الاستشراق وغاياته التوسع في الميدان الاقتصادى والتجارى ، فكان هذا الميدان ولا يزال ينبوعا فياضا بالخيرات غزير المادة . والفائدة جامعا لمنابع الثروة ، فاقتضى ذلك المزيد من التفقه في فقه اللغات الشرقية ولا سيما منها العربية لانها كما ذكرنا لغة شعب حمل لواء التفكير الانسانى اكثر من اربعة قرون ثم انه كان قبل ذلك يمثل المدنية الانسانية على مستوى العالم وقد اشتملت لغته على جميع ما انطوت عليه الحضارة الانسانية يومئذ ولا تزال هذه اللغة تماشى الحضارة الى اليوم ، ثم ان اساس الحركة الفكرية في اوروبا منذ القرن الثالث عشر الميلادى يرجع الى المؤلفات العربية التى تناولها الاوروباويون بالمطالعة والدرس . وزد الى ذلك ان لهؤلاء العرب دينا جليلا له تأثير عظيم في عقليات كثيرة تبلغ مئات الملايين من الناس منذ نشأته الى الآن ، فمدارسة هذه اللغة يسهل لهم استغلال أهلها والانتفاع بما عندهم .

وهناك طائفة ممن اتخذ الاستشراق مهنة يرتزق منها ولا يبالى حيثما توجهت به الاهواء فهو مع السياسة كيفما كانت اغراض سادته فيستخدم العلم كآلة لبلوغ غاية معينة ، ومنهم من تسوقه الاغراض السافلة الى الطعن في الثقافة الاسلامية وتشويه الحقائق وهذا المسكين لا يدرى وانه بذلك يشوه سمعة جماعة من قومه ومن بنى جنسه اخلصت للعلم وخدمت العلم للعلم ، ومنهم من يخبط خبط عشواء فهو لا يعير اهتماما لتحقيق المسائل ولا يتحرى الصواب في كثير منها ،ومنهم من وقع في اخطاء لم تكن متوقعة من مثله ممن اشتهر بالتحقيق والامعان في البحث وسعة الاطلاع والتضلع من الثقافة الشرقية والغربية ، وخذ اليك مثلا العلامة (بروكلمان) المستشرق الالمانى الكبير الف كتابا في تاريخ الشعوب الاسلامية ونشر بعدة لغات ومنها العربية ، ورغم ما احتوى عليه هذا الكتاب من الفوائد الجمة واستيعابه للتاريخ الاسلامى من مبدأه الى العصر الحاضر . فان صاحبه وقع في اخطاء ولا أدرى أهي عن عمد او عن غفلة وقلة مبالاة ؟!..

فعندما تكلم بروكلمان عن الخليفة الثالث عثمان ابن عفان رضى الله تعالى عنه واتى بتفصيل لحوادث الفتنة الكبرى التى أدت الى اغتياله ذكر من اسبابها خلع عمرو بن العاص رضى الله عنه من ولايته على مصر وتولية عبد الله بن سعد ابن ابى سرح ، قال « واشتدت النقمة على عثمان في مصر وانضم الى عمرو في اذكائها محمد بن ابى حذيفة وهو ابن ابى بكر الصديق بالتبنى ... » !! ..

فوا عجبا هكذا يذكر بروكلمان بنفسه اسم والد محمد فيقول هو ابن ابى حذيفة ، ثم يقول

وهو ابن ابى بكر الصديق بالتبنى ؟٠٠٠ ومعروف ان محمد ابن ابى حذيفة هذا ولد بأرض الحبشة ورباه عثمان بن عفان فلما شب رغب فى غـزو البحر فجهزه عثمان وبعثه الى مصر الخ القصة ٠ وكيف يتبناه الخليفة الاول ابو بكر الصديق وهو ممن تلقى القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم مباشرة ومن أعلم الناس بحلاله وحرامه وحـكم تحريم التبنى فى الاسلام من المسائل المعلومة من الدين بالضرورة فكيف تخفى على ابى بكر حتى يرتكبها بنفسه ؟!!٠٠٠ هذا مما لا يسيغه النقل ولا العقل ولا ادرى كيف وقع فى هـذا الغلط الفاحش مثل بروكلمان ؟٠٠٠

وفى هذا الكتاب أيضا تعرض لتاريخ انشـاء المنبر فى الاسلام فذكر ان هذه المؤسسة الاسلامية « وقعت من عمال الامصـار الذين كانوا يؤمون الناس فى أيام الجمعة فى الصلاة العامة بأنفسـهم فهم أول من اصطنع هذا المنبر ، ولم يصـبح – حسب زعمه – فى الناس عادة شـائعة الا فى المائة الثانية للهجرة » ٠٠٠ والواقع بخلاف ذلك فان علماء التاريخ الاسلامى مجمعون على ان انشاء المنبر وتأسيسه للخطابة بالمسجد كان على عهـد النبى صلى الله عليه وان ابتـداء العمل به كان سنة سبع او ثمان للهجرة وقد شوهد عليه الصلاة والسلام يخطب وهو واقف على المنبر بمسجده فى المدينة ، وكان هذا المنبر يشتمل على ثلاث مراق – درجات او درج – الى زمن خلافة معاوية بن ابى سفيان وكان الوالى على المدينة مروان بن الحـكم (42 – 49 هـ) فزاد فيه هذا ست درجات ، ولقد استمر هذا المنبر الشريف بمكانه من مسـجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ومنه كان يلقى الخلفاء خطبهم الى ان احترق باحتراق المسجد سنة 654 هـ ٠ فكيف يصح بعد هذا ان يقال ان المنبر هو من صنع عمال الامصار ؟!٠٠٠ وانه لم يصبح ارتقاء المنبر للخطابة فى الناس عادة شائعة الا فى المائة الثانية للهجرة ؟!٠٠

وكذلك الامر بشأن احداث المنائر واتخـاذها لتأدية شعيرة الآذان بالمسـاجد ، فاننا نرى بروكلمان يقول : « ٠٠٠ والواقع ان العثمانيين هم اول من ضم المئـذنة الى المسجد فى آسـيا الصغرى ٠٠٠ » والواقع هو بخلاف ذلك ٠ فـان أول من احدث المنائر بالمساجد والجوامع هو مسلمة بن مخلد حين ولايتـه على مصر (47 هـ/667 م) فانه هدم ما كان عمرو بن العاص بناه من المسجد بمصر وبناه هو وأمر ببناء منار المسجد ، فهو أول من احدث المنائر بالمساجد والجوامع ٠٠ (النجوم الزاهرة لابن تغـرى بردى ج 1 ص 133 ط دار الكتب بالقاهرة) فأين هذا مما نسبه بروكلمان الى الاتراك العثمانيين بآسيا الصغرى ؟٠٠

ومن ذلك ايضا قول هذا المستشرق فى نفس الكتاب بان « ٠٠٠ النظر فى المظالم والحكم بـين المتخاصمين ، وهى مهمة لم يكن يعين لها رجـال مخصوصون حتى أيام مؤسس الخلافة الاموية ٠٠ » فأين هذا مما هو مشهور من ولاية القضـاء فى التاريخ الاسلامى على عهد النبى صلى الله عليـه وسـلم ، فقـد بعث على بن ابى طالب الى اليمن ليقضى بينهم، وعلمه كيف يقضى فقال له : اذا جلس

بين يديك الخصمان فلا تقضى بينهم حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الاول فانه احرى ان تبين لك القضاء ...

كما انه عليه السلام عين معاذ بن جبل لقضاء الجند وكان ابو موسى الاشعرى قاضيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان القضاة على عهد النبى ستا : عمر وعليا وعبد الله بن مسعود وابى بن كعب وزيد بن ثابت وابا موسى الاشعرى ، وشريح الكندى كان قاضيا على عهد عمر بن الخطاب بالكوفة ..

الى غير ذلك من مسائل شتى طرقها هؤلاء المستشرقون دون ان يعيروها أدنى تحقيق .وهذا لا يمنعنا من ان نعترف لهم بالفضل فى بذل جهود جبارة فى تحقيق المخطوطات النادرة وطبعها طبعة علمية مفهرسة بفهارس مفصلة مع ترجمتها ونقدها والتعليق عليها بتعاليق مفيدة وشروح فريدة وتوضيحهم لكثير من المسائل العلمية وتبديد ما تراكم عليها من غبار الاوهام والشكوك ، فلهم منا على ذلك مزيد التقدير والاحترام .

الحقيقة عن دور زاوية صدوق والاخوان الرحمانيين في ثورة 1871

يحيى بوعزيز

استاذ جامعة وهران

اصول اسرة الحداد ونشأة زاوية صدوق :

ان البلد الاصلي لاسرة الشيخ الحداد هو بني منصور ،ومنها انتقل بعض الاحفاد الى ايموله في الضفة الغربية لوادي الصومام ، والى بلدة صدوق الفوقانية على الضفة الشرقية للوادي بين مدينتي اقبو ، وبجاية ، وذلك منذ اربعمائة عام قبل وقت الثورة ، وخمسمائة عام حاليا . وفي صدوق تعاطى الحفيد الذي هاجر اليها حرفة الحدادة ، وخلف ولدان احدهما كان مثقفا واسس زاوية لتعليم القرآن ، وهو والد الشيخ امزيان الحداد زعيم الثورة .

تعلم الشيخ امزيان فى زاوية ابيه ، فحفظ القرآن ، وتعلم بعض مبادى العربية ثم ذهب الى زاوية الشيخ ابن اعراب فى جبال جرجرة حيث واصل تعلمه مدة من الزمن ، وفى نهاية دراسته اخذ الميثاق على خليفة سيدى عبد الرحمن بوقبرين فى زاوية سيدى على بن عيسى فى جبال جرجرة • وعاد الى صدوق وتصدى للتعليم فى زاوية ابيه ، واختاره اهل القرية اماما ومعلما فى مسجدهم • وعند ما تكاثر الطلاب فى زاويته اذن له باعطاء الورد كمقدم وخليفة لطريقة سيدى عبد الرحمن ، واصبح يعطى الميثاق للمريدين ، وارتفع عدد الطلبة فى زاويته الى حوالى 500 ياكلون ويشربون ، وشاركت الزاوية فى تقديم اعانات مادية للمعوزين اثناء مجاعة عامى 1867 ـ 1868 م (1) •

وقد استطاعت عائلة الشيخ الحداد ان تفرض نفوذها وسيطرتها الدينية على المنطقة الواسعة شرقى وادى الصومام من البحر الى سهل الحضنة وعلى مناطق واسعة فى منطقة القبائل الكبرى ايضا •

ولزاوية صدوق ، من الناحية الدينية صلة بزاوية طولقة التى تعتبر الزاوية الام لكل الاخوان الرحمانيين فى الهامل ، ونفطة ، وتنافسها فى الاتجاه والسلوك زاويتا تيماسين، وقمار التيجانيتان •

وبين زوايا الرحمانيين انفسهم هناك خلافات وتنافس ، فزاوية طولقة رضيت منذ البداية بالتعامل مع سلطات الاحتلال ، واعلن رئيسها سى على بن عمر طاعته لسلطات الاحتلال منذ عام 1844 ، وفتح زاويته للقوم والجنود الفرنسيين فى احداث بسكرة بنفس العام • بينما زاوية نفطة كانت ملجأ لكل الفارين والمضطهدين من طرف سلطات الاحتلال منذ عام 1849 ، ولكن سياستها تغيرت بعد ان اصبح على راسها سى الحسين بن على بن عثمان شقيق رئيس زاوية طولقة، وتأثر باتجاه اخيه فاصبح من اعوان الفرنسيين وهو الذى ابلغهم عام 1871 بوصول محيى الدين ابن الامير عبد القادر صحبة ابن هلال اقدم كتاب ابيه ، وتقابله مع ناصر بن شهرة ، وبوشوشة •

اما زاوية صدوق فكان لها إتجاه مستقل ويمثل شيخها واتباعها الافكار الديمقراطية لان معظمهم من الطبقة الشعبية الكادحة المحرومة (2) وصلاتها بسلطات الاحتلال محدودة لانها لم تكن اسرة اوروستقراطية غنية من جهة ، ولم يتقلب افرادها فى الوظائف العامة الادارية باستثناء عزيز الذى عين قائدا على دوار عموشة لمدة قليلة وكان الشيخ امزيان الحداد يمثل الروح الاستقلالية والاتجاه الديمقراطى ، ويكره بطبيعة تكوينه الدينى سياسة المراوغة ، والانتهاز التى تتبعها العائلات الاوروستقراطية الاقطاعية امثال

1) سى عزيز : مذكرات متهم ، ص 77 ـ 81
2) لويس رين : تاريخ ثورة 1871 بالجزائر ، ص 89 ـ 92 ـ 105 ـ

عائلة باشاغا شلاطة ، التى تتصف بالكبرياء والتعالى ، وتعارض روح ومبدا المساواة ، والديمقراطية • (3)

مشاكل زاوية صدوق :

ان هذا الاتجاه الديمقراطى لزاوية صدوق ، المعادى بصورة عامة للاوروستقراطية هو الذى خلق لها مشاكل فى المنطقة من ضمنها التنافس والصراع الحاد الضمنى والعلنى مع زاوية باشاغا شلاطة ابن على الشريف ، وزاوية الشريف الشيخ محمد امزيان بن الموهوب ، شيخ العرش فى ايموله ، المتحدتين فى السيرة والاتجاه •

فزاوية الشريف محمد امزيان بن الموهوب سايرت سلطات الاحتلال ، ودخلت فى خدمتها منذ عام 1847 وتضامنت مع زاوية شلاطة ، وتحمل حقدا ضد عائلة الشيخ الحداد ، لان الشيخ محمد بن الشيخ امزيان الحداد كان ضمن جنود الشريف بوبغلة فى حركته ، وهو الذى هاجم زاوية ابن الموهوب فى 5 مارس 1851 ، وخربها ، لمعارضة صاحبها للثورة • وبقى هذا الكره والحقد حتى عام 1871 ، وتعرضت نفس الزاوية لهجوم عزيز فى 15 ابريل 1871 •

اما زاوية شلاطة فمشاكلها مع عائلة الحداد وزاوية صدوق اكثر تعقيدا • فزعيمها ابن على الشريف خضع لسلطات الاحتلال منذ احداث عبد القادر ، وتعاون مع الجنرال بيجو فى اطار المكاتب العربية ، وساعد الجيش الفرنسى على عبور منطقة وادى الساحل فكرموه ومنحوه لقب ضابط الشرف Officier de la Légion d'Honneur ووافقوا على امتيازات احتفاظه بمكانته وخدامه ، وعلى عدم دفع الضرائب • واستدعى عام 1852 لحضور حفلة زواج الامبراطور نابليون فى كومبين Compiègne ويعتبره وارنى من اكثر الجزائريين تنويرا وتحضرا ، ولكن خضوعه لسلطات الاحتلال اساء لسمعته فضعف نفوذه • ومع انه بعد انتصارات راندون فى احتلال القبائل الكبرى استعاد سمعته بعض الشىء الا ان اغلبية اتباعه انضموا جماعات جماعات الى الشيخ الحداد فى صدوق ، ولم يبق له من قوة سوى فرق « القوم » المرتبطين بوظيفته ، والمدعمين بالسلطة الفرنسية • (4)

وكان ابن على الشريف يتباهى باصله لكونه ينحدر كما يدعى من الادارسة ، وبذكائه السياسى ، ويعرض بعائلة الحداد ، ويقول انها لا اصل لها ، وليس افرادها سوى عمال فى مهنة الحدادة • ويعود سبب الكره والحقد بين شلاطة وصدوق الى احداث بوبغلة كذلك حيث هاجم الشيخ امحمد بن الشيخ الحداد ، عزيب بن على الشريف فى 18 مارس 1851 ، تماما كما حصل لزاوية الشريف ابن الموهوب ، ونما هذا الحقد والكره وتضاعف حتى بلغ اقصاه عام 1871•

فقد تأكدت السلطات الاستعمارية من اخلاص

(3) اندرى جوليان : تاريخ الجزائر المعاصر ، ص 481 — 482
(4) اندرى جوليان : تاريخ الجزائر المعاصر ، ص 481

ابن علي الشريف ، فعينته باشاغا على شلاطـة يوم 24 فيفري 1869 ، واصبح نفوذه يشمل زاوية صدوق ، فلم يرتح عزيز لهذا العمل وهو قائـد عموشة ، فقدم استقالته وتحول الى خصم لدود لابن علي الشريف يغتنم كل الفرص لاثارة المتاعب ضده . وقد اكد في مذكراته بان ابن علي الشريف له لسان طويل يلعب على الحبلين ، احيانا مـع سلطات الحكومة ، واحيانا مع الثوار ، حـتى لا يخسر احدا ، ويكون دائما هو الرابح ، ويتضح ذلك من احداث بوبغلة حيث كان يستقبل ثواره سرا ، ويعمل علنا مع فرنسا . (5) وهي نفس الفكرة التي اكدها بيدولت حيث قال : «ان ابن علي الشريف في زاوية شلاطة قوي ومعروف في كل القبائل ، ولكن ماضي اجداده وسلسلة نسبه ضاعت ، وعند ما ارتفعت قيمة الحداد في صدوق حاول ان يكسب السمعة بامواله ، وسياسته ، وذلك بالحصول على منصب باشاغا شلاطة في الجزائر ، واصبح يسيطـر على بني وغليـس ، واوزلاقن ، ويلوله ، وبني عيدل ، وبني مسيسنا واصبح له مرتب شهري بمبلغ 12 الف فرنك (6)

اسباب التجاء المقراني الى الشيخ الحداد :

كانت بمنطقة القبائل الصغرى ، والضفـة الغربية لوادي لصومام وضعية شاذة بـين الزوايـا الدينية ، والعائـلات الارستقراطية ، تعتبر احدى الاسباب التي ادت الى ثـورة 1871 والى فشلها .

5) سي عزيز : مذكرات متهم ، ص 10 ـ 11 و 36 ـ 37
6) بيدولت : الحقيقة على الجزائر ، ص 56 ـ 58

فلقد شرحنا سابقا طبيعة الخلاف والمشاكل بين زاوية صدوق الرحمانية ، وزاويتي شلاطة ، ويلولة ، ونضيف هنا بان عائلة الباشاغا المقراني نفسها ، كانت منقسمة على نفسها الى فرعـين : فرع الباشاغا محمد بمجانة وكان صديقا لباشاغا شلاطة ابن علي الشريف ، وفرع محمد بن عبـد السلام المقراني قائد عين تاغروط شرق بـرج بوعريريج ، وهو صديق للشيخ عزيز قائـد عموشة ، وعائلة الحداد بصدوق . وقد خلـق هذا الانقسام في عائلة المقراني ، وهذه الصداقة المتعاكسة ، وضعا شاذا انعكس على الاحـداث فيما بعد قبيل نشوب ثورة 1871 ، وزاد في حدة هذا الخلاف والشقاق التصرفات السيئة الـتي سلكها الضبـاط الفرنسيـون بالمنطقـة خاصة الجنرال اوجورو، والكولونيل بونفالي ،وريلهاك .

ففي اواخر 1870 استدعى بونفالي من مليانة ليخلف اوجورو في قيادة منطقة سطيف ، بعـد ان نقل الاول الى قسنطينة ، وسلك سياسـة المراوغة واظهر ميلـه لصف اولاد عبـد السـلام خصوم الباشاغا المقراني ، ولعائلة الحـداد خدمة للمصالح الفرنسية ، واقترح عليه اوجورو قبل رحيله ان يحاول اصلاح ذات البين بـين الصفين في منطقة وادي الساحل ، خاصة بـين شلاطة وصدوق ، ورحب المقراني بالفكرة لان ذلك سيضمن عزل الاخوان الرحمانيين عـن خصومه من ابناء عمومته صف محمد بن عبـد

السلام ، فاتصل بعدد من الشيوخ والقيـــاد ، وتألف وفد خلال شهر جانفي 1871 ذهب الـى بجاية ، ومنها الى صدوق ، ثم الى اقبو بصحبة عزيز • وكان اللقاء بين ابن علي الشريف وعزيز يوم 9 جانفي 1871 بأقبو فاترا وباردا محوطـا بالشكوك والريب • ولم يفلح المقراني في ازالة شكوك ابن علي الشريف نحو صدوق • (7)

لم يقدر لهذه الزيارات ان تثمر لان الخلاف كان عميقا وجذريا بين صدوق وشلاطة • وقد وصل الى علم بونفالي تأكيد عزيز بان اى تفرقة بين ابيه والاخوان سيؤدى الى نشوب ثـــورة ، وابلغه ابن علي الشريف نفسه في رسالة وجهها اليه والى حاكم بجاية ويلهاك بان عزيز يضايقه ، وعليه ان يعتقله او يوقفه على الاقل ، فطلب من عزيز بأن يكف عن اثارة المشاكل ، ويتصـــــل بحاكـم بجاية ، ويزوده بالاخبـار والمعلـومـات الضرورية •

وهكذا وجد المقراني نفسه وحيدا ، وشبـه معزول عن تأييد هذه العائلات الاوروستقراطية ، وفي نفس الوقت اشتد قلقه من تزايد صعـود نجم خصومه : صف اولاد بن عبد السلام المقراني واشتدت الاشاعات ، وقـويت عن اعتـــزام السلطات الفرنسية انتزاع الباشاغوية منـــه واعطائها لهم •

وهداه تفكيره الى استمالة الشيخ الحـداد ، والاخوان الرحمانيين بالتبعية • واستغل غضب عزيز الحداد وحدة خلافاته مع ابن علي الشريف، فاندفع بحماس لفتح مفاوضات معه ومع ابيه ، رغم انعزيز كان صديقا شخصيا حتى ذلك الوقت لمحمد بن عبد السلام المقراني • وهذه العلاقـة هي التى اخرت الاتصال بين صدوق ومجانـــة حتى هذه الساعة وجعلتها واهية •

وقد جاء هذا الاتصال ليزيد من طموح عزيـز ويرفعه ، فأكد له بأن كل الاخوان الرحمانيـين سينسحبون من صف ابن عبد السلام ، ويلتحقون به في الحالُ ، ولم يكتف بهذا فأخذ يحث الناس على الجهاد قبل اعلانه رسميا ، وعقد اجتماعـات عامة في صدوق وضواحيها خلال ايام 27 ــ 30 من مارس للتبشير بالجهاد ، وبسرعة اخـــذ الرحمانيون بزمام الموقف ، وتحول عزيـــز الى زعيم ثائر منذ اواخر سبتمبر عام 1870 • وقد كان وارنى منـذ اكتوبـر 1870 قـــد طلب من السلطات الفرنسية ايقاف شقيق عزيز ، الشيخ امحمد ، ولكن دوريو عـارض ، استنـــادا الى تأكيدات وضمانات الجنرال اوجورو في اخلاص عائلة الشيخ الحداد •

ولما كان الشيخ امزيان الحداد كبير السـن ، طاعنا ، ولا يميل الى الحروب لكونه كان يـرى فيها تخريبا وتحطيما لزاويته ، وامكانياتهـــا المادية والدينية ، فقد تسلط عليه ابنه عـزيـز الذى كان على العكس منه حتى اقنعه باعـــلان الجهاد يوم 8 ابريل 1871 • (8)

7) الفريد رامبود : ثورة الجزائر عام 1871 ، ص 19 ، ورين ص : 111 ــ 116
8) جولبان : تاريخ الجزائر المعاصر ، ص 481 ــ 482 ، ورين ص : 198 ــ 199

عوامل استجابة الإخوان الرحمانيين للثورة :

هذه هي بعض الدوافع التي حفزت المقراني على الالتجاء الى اتباع الشيخ الحداد والاستنجاد بهم في حركته الثورية • فما هي العوامل التي حملت عزيزا واباه على الاستجابة بهذه السرعة وتلبية نداء الثورة ، واقحام الاخوان الرحمانيين؟

ان معظم الذين كتبوا على هذه الثورة وعلى راسهم لوى رين ، اعتبروا حركة الاخوان الرحمانيين ، ووصفوها بانها حرب دينية مبنية على التعصب الديني والعرقي ، بل ان البعض منهم اراد ان يتهم الاخوان بانهم مدفوعون من طرف مشوشين جاؤوا من مكة •

ففاوتي مثلا يقول : ان كل الجزائر اخذت تستعمل النار مدعمة برياح التعصب الديني للاخوان (الرحمانيين) الذين انتشروا في مصيف جرجرة ، ومن حدود المغرب الى حدود تونس ، وان اخوان 1863 و 1865 ما يزالون اليوم يقودون الحرب الدينية • وقد جاؤوا من مكة لزرع التشويش الديني في كل الجزائر • (9)

ولكن الحقيقة غير ذلك ، وهناك ظروف عامة وخاصة اقحمت الاخوان في المعركة :

اولا : الخصومة التقليدية والحادة بين زاوية صدوق وزاوية شلاطة ، وتبادل الطرفين التهم والسباب والشتائم ، فابن علي الشريف كان يظهر تكابره نظرا للمنصب الاداري الذي يشغله كباشاغا ، ويعرض بعائلة الحداد ويقول بانها لا اصل لها ، وان ابناءها من الحدادين ، والحدادة في نظره من المهن القذرة • وعزيز يرد عليه في مذكراته ، ويتهمه بالمقابل بانه لا اصل له ولا نسب رغم ادعائه بانتسابه الى الادارسة ، وقد سبق ان عرضنا راى بيدولت في ذلك • ويزيد عزيز ايضاحا لفكرته قائلا : ليس هناك عيب او احتشام ان ينحدر الانسان من جزار او خماس ، او حداد او تاجر او حمال ، ولكن العيب ان يجهل الانسان اصله ، ونسبه ، هذا هو السؤال • (10)

ولم يتورع ابن علي الشريف في اتخاذ اية وسيلة لتحطيم اسرة الحداد ، وبلغت به الجراة ان اقترح على حاكم بجاية اعتقال عزيز باعتباره مشوشا ، ورفض مساعي المقراني وغيره من الشخصيات من اجل تحقيق الصلح بين العائلتين كما سبق • وبالمقابل فان عزيز اندفع ليرد الخطر ويدافع عن اسرته واتباع زاوية ابيه • ان مرارة عزيز من ابن علي الشريف تجاوزت الحد كما يتضح ذلك في مذكراته •

ثانيا : السلوك السيء الذي يتبعه الشيوخ والقواد الموظفون ، وضباط الجيش الفرنسي تجاه الاهالي خاصة الاخوان • ففي رسالة بعث بها عزيز الى ايلهاك حاكم بجاية يوم 14 جوان 71 ، حمل فيها مسؤولية الحرب على هؤلاء القواد والضباط ، الذين خربوا وحطموا المسلمين دون رأفة بما يقومون به من نقل اخبار مزيفة

9) فاوتي : استقلال الجزائر ، ص 3 – 8
10) سي عزيز : ص 81 – 84

له . واكد في مذكراته ان ارهاق القواد والمقربين للناس هو الذى دفعهم الى الانضمام الى صفوف الثوار ، وقال انى شهدت بنفسى كيف عانى سكان قرية صدوق من تبذير اموالهم فى استضافة ولد بن على الشريف حين قدم اليها وبقى بها اربعة ليال كاملة . (11)

واوضح فى رسالته السابقة بانه على استعداد للسلم وفق الشروط التى يقترحها اذا كانت هناك رغبة للسلم ، وهو الاول لذلك ، ولكن اذا احتفظت السلطات الفرنسية باولئك القواد فسيبقى هو ورفاقه واقفين بمساعدة الله وتاييده للجهاد الى اليوم الذى يرزقه الله بحكومة اخرى تضع معهم سلما ، «**والى هنا نحن متحزبون ضدكم بحول الله**» (12)

ثالثا : ان اندفاع الاخوان للثورة لم يكن بسبب العاطفة الدينية المتعصبة كما يصفها الكتاب الفرنسيون ، وانها لاسباب اكثر عمقا سياسية واقتصادية واجتماعية ، وجاء العامل الدينى ليدعمها . وقد دافع عزيز نفسه على هذا خلال دفاعه فى محكمة قسنطينة حيث اكد بان الحرب الدينية التى تزعمها ليست الا وسيلة للعمل ، وليست حربا دينية ، وان الالقاب والعناوين التى الصقت به كأمير المجاهدين ، والمدافع عن الدين ما هى الا تصورات نتجت من الظروف .

رابعا : وهناك الظروف العامة التى تعيشها البلاد من الاقدام على اعادة التنظيم وانشاء النظام المدنى بدلا من العسكرى ، واعطاء اليهود الجنسية الفرنسية بصورة جماعية ، وارهاق الناس بالضرائب ، والتهديد بانتزاع اراضيهم واعطائها للمهاجرين الاوروبيين الجدد بعد حرب السبعين ، وما سبق ذلك من مجاعة ، وما استتبع ذلك من احتمال تسلم اليهود السلطة بالبلاد ، وتسلطهم على الجزائريين . كل هذه الاشياء استعملها عزيز فى دعايته للثورة ، وكذلك كل مقدمى الاخوان الرحمانيين ، وهى امور ذات صلة بالوضع السياسى للبلاد ، ومستقبلها ، ولها تأثير كبير فى دفع الاخوان لخضم المعركة .

وهكذا يتضح ان وصف حركة الاخوان الرحمانيين بانها دينية متعصبة ، فيه نوع من المبالغة ، والتجنى عن الحقيقة .

دور الاخوان فى الثورة :

لا شك ان ارتماء الاخوان فى خضم هذه الثورة هو الذى ادى الى حدوث تطورات خطيرة فيها ، فتحولت الحرب من طابعها الاوروستقراطى ، الى ثورة شعبية ، واصبح الاخوان الرحمانيون يجاهدون بعاطفة الدين لغرض الحصول على الاستقلال ، بتأييد من كل القبائل كقاعدة شعبية .

فبعد اعلان الشيخ الحداد الجهاد المقدس يوم 8 ابريل 1871 ببلدة صدوق امتدت الثورة الى

11) سى عزيز : ص 43 ـ 45
12) جوليان : ص 485 ـ 489

كل المناطق والقبائل الشمالية من الجزائر العاصمة الى القل وجيجل وباتنة ، وحوصرت مراكز الفرنسيين وقلاعهم فى بجاية ، ودلس ، وتيزى وزو ، واربعاء نايت ايراثن ، وذراع الميزان ، والاخضرية ، وغيرها • وجر هذا الاعلان للجهاد من اتباع الحداد الرحمانيين اكثر من مائة وعشرين الف مجاهد ينتمون الى مائتين وخمسين قبيلة تؤلف ستمائة الف نسمة فى خلال نصف شهر تقريبا • بينما لم يستطع الباشاغا المقرانى قبل ذلك ان يجند سوى بعض مئات من آلاف الاشخاص يمثلون 25 الف محارب موزعين بين قبائل برج بوعراريج ، وبوسعادة ، وسور الغزلان •

وهذا الامر اصبح يمثل خطرا كبيرا بالنسبة لفرنسا ، لان عزيز واباه ليسا من المشعوذين او المتعصبين ، واعلانهما للجهاد ، واقحامهما الاخوان الرحمانيين فى المعركة لا يمثل حدثا دينيا فقط ، وانما يتجاوز ذلك الى غرض سياسى يستهدف خدمة مصالح القبائل المادية • (13)

وفى رسالة للجنرال لاباسى الى الجنرال لالمان بتاريخ 18 ابريل 1871 من معسكره بالقصر قرب بجاية قال له :

ان الجزائر تمر بمرحلة صعبة ودقيقة وثورة الاخوان الرحمانيين الموزعة الى عدة فروع دينية اثرت على اصدقاء فرنسا من تونس الى المغرب ، وقد اصبح الشيخ عزيز مثل السلطان بالقبائل (14)

امتداد نفوذ الاخوان :

بعد التعرف على كيفية قيام حركة الاخوان الرحمانيين ، **لابد من التعرف على مدى امتدادها** داخل منطقة الحوادث لاستكشاف مدى نفوذها وخطورتها ومدى سيطرتها على الحوادث •

وما من شك فى ان لزاوية صدوق انصارا واتباعا فى معظم منطقة القبائل الكبرى ، والصغرى ، والشمال القسنطينى ، وفى العاصمة واحوازها ، ولها صلات روحية ببعض الزوايا الاخرى فى حوض الشلف ، وواحات الجنوب الشرقية •

وعلى هذا الاساس تحرك اتباعها فى كل هذه الجهات وقادوا الناس للجهاد افواجا وجماعات بدون صعوبات كبيرة بعد ان اعطى لهم شيخهم اشارة الضوء الاخضر **فى اعلان 8 ابريل 1871** •

ففى جبال بابور بالشمال القسنطينى ، **والمنطقة الشرقية لوادى الصومام** حيث اتباع الحداد بكثرة ، قاد عزيز بنفسه الحركة ، وتحولت زوايا المقدمين فيها الى مراكز الثورة ، ومصادر لالهام المجاهدين بالحماس ، ومن ابرز القادة الرحمانيين رئيس زاوية فرجيوة ، والمقدم **الحسين بن احمد بن الشريف المدعو مولاى** الشقفة زعيم زاوية مولاى الشقفة بالبابور •

غير ان عزيز والاخوان الرحمانيين بجبال البابور واجهوا صعابا ومقاومة من بعض العائلات

13) فيكتور بيكى تاريخ الجزائر الفرنسية (1830 - 1930) ص 230
14) ضابط قديم فى الجيش الافريقى الجنرال لاباسى الجزء 2 ص 259

المتعاونة مع سلطات جيش الاحتلال امثـــال : اولاد نابت ، وعائلة ابن حبيلس ، واولاد داوود ابن كسكاس .

ولا شك أن ثقل الاخوان الرحمانيين كان في هذه المنطقة ، وفي حوض الصومام .

وفي الضفة الغربية لوادي الصومام كـــان شقيق عزيز الشيخ امحمد هو الذي يقود المعركة فواصل محاصرة بجاية ، ومحاربة اتباع واعوان ابن علي الشريف المتعاون مع الفرنسيين ، وخاض معركة تالاوريان غرب بجاية ضد قوات ريلهاك Reilhac يوم 24 ماي فقد كثيرا من جنوده نتيجة اختلاف اساليب الحرب بين الطرفـــين وفقدان جيش الشيخ امحمد للاسلحة الكافيـــة

وغير خفي ان الشيخ امحمد اعتاد على الجهاد منذ مدة طويلة فكان من قادة جيش الشـــريف محمد الامجد بن عبد المالك بوبغلة ، يحمل حقدا دفينا على سلطات الاحتلال وجيشها ولهذا اندفع بحماس للجهاد والحرب ، غير ان استسلام اخيه اثـــر في قواته ، وغـــرر بـــه احـــد اولاد اورابح فسلمه الى حاكم بجاية في اليوم الثاني من شهر جويلية 1871 بعد يومين فقط من استسلام عزيز للجنرال لالمان بالجرجرة .

وفي ذراع الميزان : كانت زاوية سيدي عبد الرحمن بوقبرين مركز نشاط الاخوان الرحمانيين وكان مقدمها الشيخ محمد بن محمد الجعدي قد عينه الشيخ الحداد منذ عام 1860 رئيسا للاخوان في المنطقة ووكيلا للزاوية وهو الذي تولى اعلان الجهاد باسم الشيخ الحداد ، ولم يتورع جيش الاحتلال في حرق القبة والزاوية، بعد ذلك ، وظل الثوار يحاصرون ذراع الميزان حوالى 42 يومـا من 20 ابريل الى 2 جوان ، ويذكر رين ان الجعدي هو الذي تسلم طابع الباشاغا وبعض اوراقـــه بعد استشهاده في معركة وادي السفلي قـــرب البويرة يوم 5 ماي 1871 . (15)

وفي منطقة تيزي وزو : هناك فرع من عائلة اوقاسي المنحدرة من اسرة سلاطين بني حمـــاد ، مالت الى الرحمانيين ، وبرزت السيدة خديجـــة بنت بلكانون ارملة الباشاغا بلقاسم او قاسي ، فربطت صلاتها باتباع الطريقة الرحمـــانية ، وعينها الشيخ الحداد مقدمة لاتباعه في المنطقة ، واصبحت تزوره بين الحين والآخر كما كـــان يزورها مقدم زاوية اوسحنون محمد علي اوسحنون

والى جانب هذه السيدة هناك المقدم الرحماني محمدوعلي اوقاضي من بوهينون الذي قام بنشاط واسع لصالح الثورة منذ 15 ابريل ، وكـــان مرشدا فصيح اللسان ذا سمعة كبيرة ، واستعمل في دعايته نفس الاسلوب واللغة التي كـــان يستعملها عزيز والمقراني في دفع الناس للجهاد، وذلك بالتأكيد لهم على ان فرنسا اصبحت بدون جيش ، ويتحكم فيها اليهود ، وان الفرنسيـــين يحاربون رجالا مخلصين امثال الشيخ الحـــداد والمقراني .

---

15) رين : ص 257 ـ 264

على انه يلاحظ ان وجود على اوقاسي بالمنطقة وصلاته الوثيقة بابن على الشريف باشاغا شلاطة المعروف بميوله لفرنسا ، كان احدى العقبات في عمل الاخوان الرحمانيين بهذه المنطقة رغم ما حصل من حصار البلد ، وحصول حوادث دامية ، وارتماء على اوقاسي بعد ذلك في احضان الثورة ٠

وفي دلس : كان هناك الحاج عمر بن محيي الدين الذى هو خصم لعائلة اوقاسي ، وممثل للاخوان الرحمانيين ٠ وقد عين الشيخ الحداد ابن اخيه الشيخ محمد بن علي بن امحمد مقدما للرحمانيين في هذه الجهة ، وهو الذى اعلن الجهاد في ابريل 1871 ، فارتمى كل افراد قبيلته في احضان الثورة وتبعهم كل الاخوان الرحمانيين وحاول الحاج عمر نفسه رغم كبر سنه ان يغرر بمحافظ شرطة دلس ويأخذ منه الاسلحة بعنوان الدفاع ليسلمها الى الثوار ٠

وقد تأثر نشاط الاخوان في الاخضرية (باليسطرو سابقا) بسبب عمق الخلافات بين العائلات الكبيرة خاصة آيت رحمون ٠

وفي الجزائر العاصمة ومتيجة : امتد نشاط الاخوان الدعائي في محاولة دفع الناس الى الثورة نظرا للعلاقات الروحية الموجودة بين الهيآت الدينية بصورة عامة ، وقد توصلت سلطات الاحتلال بمنشور موزع من طرف الاخوان يوم 26 ابريل ، دون ان يكون عليه امضاء واضح حتى لا يتعرض اصحابه للمتابعة والايقاف ٠ وفحوى هذا المنشور التهيئة لهجوم واسع على قرى سهل متيجة خلال يومي 29 ـ 30 ابريل ٠

وراجت الاشاعات بان الثوار سيطلبون نجدة السلطان العثماني ، ولربما الاسطول الانجليزى ومن الغريب ان التقرير الموجه الى دوقيدون كان مصحوبا برسالة ممضاة من وجهاء قسنطينة ، وكان من ضمن من وقع عليها الشيخ محمد امزيان بن الحداد ٠

وقد حاول وارنى ان يرد هذا الغضب العام للاهالي ، الى قيام سلطات الاحتلال بمصادرة اوقاف المساجد الاسلامية ، والتعريض بالدين الاسلامي ورجاله ، كما حاول ان يدلل على ان محررى الوثيقة من مهاجرى الاندلس المستقرين بالعاصمة ، نظرا لما تحتويه من امثلة عن قيام الاسبان بطرد المسلمين وتنصيرهم بالقوة بالاندلس ٠ (16)

وفي منطقة باتنة والاوراس : لم يكن لاتباع الشيخ الحداد نفوذ ومركز كبير لان السكان هناك مرتبطون بزاوية طولقة التي اظهر شيخها على ابن عثمان بن عمر اخلاصه لسلطات الاحتلال ، وعارض الثورة من اول يوم لارتباطه بالتيجانيين الذين وثقوا صلاتهم بالادارة الاستعمارية ٠

ولكن اتباع الشيخ الحداد لم يقفوا مكتوفي الايدى ، فعلى اثر اعلان الجهاد في ابريل 1871 ، توجه جماعة من مقدمي زاوية صدوق الى بليزما

---

16) رين : ص 252 ـ 253

وعلى راسهم : احمد بن عبد الله ، يخلف بن مرا ، وعلى بن بوشيرب ، حاملين معهم امر اعلان الجهاد، فانضم الى الحركة جماعة من الاخوان الرحمانيين بالمنطقة من جماعة بن رحمون ، وسليمان بن دروعى ، كما انضم بعض مقدمى زاوية نفطة الرحمانية المنشقين عن زاوية بن عبيد ، ثم توالى انضمام الناس للحركة الثورية من غير الرحمانيين غير ان السلطات الفرنسية حاولت ان تعتبرها حركة عصيان من طرف قطاع الطرق والمجرمين : des bandits كما كتب عنها رين ، وروبين (رين 319 – 338 – 487) .

وحتى في بني مناصر : بمنطقة شارشال ، – غرب الجزائر العاصمة – اندلعت حركة ثورية فى جويلية 1871 بزعامة شخصية دينية ، ولكن اسبابها الرئيسية تعود للمشاكل المعقدة بين عائلتى : مالك البركانى*، ومحمد الغبرينى ، ولو ان صدى حركة الاخوان الرحمانيين شرق العاصمة له دخل وتأثير على هذه الاحداث ، خاصة وان الرحمانيين له بعض الانصار والاتباع فى منطقة حمام ريغه .

والخلاصة : ان حركة المقرانى ما كانت لتعم وتنتشر الى كل هذه الجهات ، وينضم اليها عشرات الآلاف من الناس ، لولا قيام الاخوان الرحمانيين الى جانبه ، وارتماؤهم فى خضم المعركة بصورة تكاد تكون جماعية . والسؤال المطروح : لماذا انهارت هذه الحركة بسرعة كذلك ؟ ؟

تعميم حركة الاخوان :

ان الاخوان الرحمانيين اتباع زاوية صدوق ارتموا بكل ثقلهم وبصورة جماعية فى حركة الثورة الى جانب المقرانى . وكان دخولهم على هذا الشكل حدثا بالغ الاهمية بالنسبة للثورة نفسها ، وخطيرا بالنسبة لسلطات الاحتلال ، بحيث تحولت استراتيجية الحرب واساليبها وتغير طابعها . اذ كانت فى البداية حركة اروستقراطية بزعامة رؤساء اقطاعيين، واصبحت في ابريل و ماى ثورة شعبية عارمة يقودها رجال كادحون لا صلة لهم بالمظاهر الاوروستقراطية ولا تربطهم بالادارة الاستعمارية سوى ظاهرة الخضوع ، وكان المفروض ان تكون النتائج في مستوى هذه الخطورة من الجانب الايجابى للبلاد ومستقبلها .

غير ان الملاحظ هو ان الاخوان جاء اخفاقهم بصورة سريعة لها شبيه بطريقة ارتمائهم فى الثورة ، وذلك من الامور التى عجلت بوضع حدلها .

– فالشيخ عزيز استسلم للجنرال لالمان فى جبال جرجرة يوم 30 جوان .

– واخوه الشيخ امحمد غرر به احد رجال عائلة اورابح ، وقاده الى بجاية وسلمه الى حاكمها الفرنسى يوم 2 جويلية ليتقرب بذلك من السلطة .

– وابوهما الشيخ امزيان الحداد سلم للجنرال سوس يوم 13 جويلية في تيزى الاكحل

قرب ذراع الاربعاء بعد ان علم بوقوع ابنيه في يد قوات جيش الاحتلال .

وكان استسلامهم على هذا الشكل كقادة وقيادة ، سببا في استسلام العديد من الرجال والقبائل ، وهذا امر طبيعي لان ضياع القيادة هو ضياع في نفس الوقت للجبهة نفسها خاصة في مثل تلك الظروف .

فما اسباب هذا ياترى ؟

ان الجواب على هذا السؤال ما يزال بحاجة الى تحقيق وتثبت ، ولكن هناك بعض الظواهر يمكن ان تكون جزءا من الاجابة عليه ، مع ملاحظة ضرورة التركيز على عزيز بصورة خاصة باعتباره زعيم الاخوان ونائبا عن ابيه . والمسؤولية الكبرى تقع على عاتقه هو .

واول هذه الظواهر وجود او ظهور خلافات بين عزيز وبومزراق المقراني بعد استشهاد الباشاغا زعيم الثورة ، وهذه الخلافات على ما يبدو تعود الى طبيعة التكوين نفسها،فبومزراق شخصية اوروستقراطية مثل اخيه الباشاغا ، وعند ما تسلم راية الجهاد بعد 5 ماي اراد ان يكون مصدر كل شيء في التوجيه والعمل ، ولكن عزيزا لم يكن يطيق مثل هذه السيطرة وكان يود ان يكون له دور مماثل على الاقل ، ولما اعترضته صعوبات في البابور ، وفشل في تكوين مركز قوي في الضفة الغربية لوادي الصومام ، تسرب اليه الفشل ، واسرع الى الاستسلام .

وثاني هذه الظواهر هو تصرفات عزيز شبه الحمقاء تجاه العائلات الدينية وخاصة زاوية الشريف بن الموهوب ، وزاوية شلاطة ، فرغم ذلك العداء كان من حقه ان يتجنب ما امكن الصدام معها حتى لا يخلق المزيد من الاعداء ، ولا يبعد عن صفوفه المزيد من الانصار ، فهاجم زاوية ابن الموهوب في 15 ابريل ، وزاوية شلاطة يوم 24 ماي .

ولا ننسى ايضا طريقة تعامله مع بعض القبائل حيث كان يرهقها بالضرائب لدرجة اظهرت استياءها وكفت عن تأييده ومناصرته كما حصل مع بني جليل .

وهناك ظاهرة اخطر من كل هذا ، نعتمد فيها على مذكراته وهو انه لم يثر الا انتقاما من ابن علي الشريف ، ومضايقة حاكم بجاية فقد قال في مذكراته : « ان كل ما احكيه عن حاكم بجاية وابن علي الشريف اذا شهدوا على بشيء فهم مخطئون ، الا يبحثون الا على مصالحهم الشخصية، ان السبب الذي دفعنا الى الخصومة ضد الحكومة الفرنسية ليس الا تصرف الجنرال اوجورو ، الحاكم الاعلى لمدينة سطيف الذي يعرف اوضاع الصفوف القبائلية التي لم تحصل على مطالبها » (17) .

17) سي عزيز : ص 22 ـ 23

تاريخنا يحتاج الى اعادة نظر

الطاهر قيقة
مدير المركز الثقافي الدولي
بالحمامات ــ تونس

لابد ان تتبدل نظرتنا الى تاريخنا ...

اذكر استاذا لمادة التاريخ كان يبسط على تلامذته الاسباب التي جرت الغارات المتوالية التي شنها في القرن العاشر الهجري نصارى صقلية والاسبان على سواحل البلاد التونسية وعلى جزرها مثل « قرقنة » التي اكتسحوها اكتساحا وجربة التي خربوها وكانت لهم فيها هزيمة شنعاء .

كان ذلك الاستاذ يقول ما ملخصه : لما ازدهرت البحرية فى موانى شمال افريقيا وعاث القراصنة المسلمون فسادا فى سواحل ايطاليا وفرنسا واسبانيا ، تألب النصارى عليهم وقرروا دفع أذاهم بالغارة عليهم ومحاولة احتلال قواعد انطلاق سفنهم ٠

ولما سئل الاستاذ فقيل له : انت مواطن هذا البلد ، الا يمكن ان كانت الحوادث على عكس ما قلت ، أى ان اجدادك هم الذين كانوا يدافعون عن انفسهم وعن حماهم فى عصر نزلت فيه نكبة من اكبر النكبات التى اصابت دار الاسلام وهى اجلاء الاندلسيين المسلمين عن الاندلس ٠

فاجاب الاستاذ هكذا لقنت التاريخ فى الجامعة٠ وتلك هى الكارثة اخترت هذا المثال عمدا ٠ ان الدراسات فى تاريخنا العربى تقدمت وازدهرت فى اوساط المستشرقين والمؤرخين باوروبا اكثر من تقدمها وازدهارها فى اوساطنا العلمية وهذا تابع لتقدم أوروبا وامريكا الشمالية علينا ٠ وقد وقع تشويه بعض فترات من تاريخنا خاصة تلك الفترات التى اشتد فيها الصراع بين المدنية العربية والعالم الاوروبى النصرانى وفى احسن الحالات اول المؤرخون الاحداث حسب نظرتهم الخاصة المتاثرة طبعا بقيمهم الحضارية ٠

واحسن مثال هو مثال القرصنة ، سموها قرصنة ولصوصية فى البحر ، ونسوا ان الغارات على السواحل كانت تشن على ضفتى البحر الابيض المتوسط الضفة الشمالية النصرانية من قبل السفن المغربية والضفه الجنوبية المسلمة من قبل السفن النصرانية ٠ اولئك الذين كانوا ينطلقون كالعقبان على ظهور سفنهم من موانى طرابلس الغرب وسوسة وبنزرت وعنابة وجيجل والجزائر وشرشال ووهران وندرومة وطنجة ورباط الفتح منقضين على شواطىء صقلية وسردانية وايطاليا الجنوبية وخليج جنوة وجنوبى فرنسا وجزيرتى ميورقة وشواطىء بلنسية كانوا بالنسبة الينا مجاهدين فى البحر يذودون عن سواحلنا وموانينا التى كانت دوما مهددة بغارات الاعادى ٠

كان القرن العاشر الهجرى الموافق للقرن السادس عشر الميلادى شديد الوطأة على المغرب العربى ، سقطت غرناطة فى ايدى الاسبان وكانت آخر معقل للمسلمين فى اسبانيا وأجلى كثير من اهلها فلجأوا الى المغرب العربى ٠ وبعد ثمانية عشر عاما فقط احتل الاسبان مدينة وهران وسقطت عدة مدن ساحلية بايدى الاسبان آخرها تونس ٠

ان تداخل مجاهدى البحر الاتراك ثم الاسطول والجيش العثمانى فى المغرب العربى قد جنبه احتلالا اسبانيا قد خططته الحكومة الاسبانية والكنيسة الكاثوليكية معا ٠

ان خير الدين باشا استخدم اسطوله لحمل اللاجئين الاندلسيين شيوخا ونساء , واطفالا من شواطىء اسبانيا الى الجزائر ، قيل انه حمل قرابة مائة الف لاجىء ، لم تكن هذه العملية قد املاها الطمع والجشع ٠ وان النوتيين فى اسطول خير الدين الخطير كانوا من الاندلسيين اللاجئين

وكانت غارات الاسطول الجزائرى متواصلة على شواطىء اسبانيا حتى اجبر « فيليب » الثانى على بناء سلسلة من المحارس والحصون لمراقبة البحر ودفع الغارات ·

ان جميع اعمال ما سمتهم أوروبا بالقراصنة فيذلكالقرنالمظلم الذى شهد سقوط تونس بأيدى الاسبان كانت تمليه سياسة مخططة باسطنبول ترمىالىحماية دار الاسلام، خاصة فى اخطر منطقة كان يهاجم فيها الاسلام وهى الناحية الغربية من البحر الابيض المتدسط ·

لم تكن غاراتهم فى البحر تلقائية يمليها الطمع والحرص على الحصول على الغنائم ، بل كانتتطبيقا لسياسة عامة كانت تسلكها الدولة العثمانية ·

الدليل على ذلك ، هو ان خير الدين باشا كان يشارك فى اهم العمليات التى يقوم بها الاسطول العثمانى · وان درغوث باشا الذى كان يباغت النصارى بغاراته الفجائية حتى سموه « نمر البحر » كان ممثلا لاوامر الباب العالى يلتحق بالاسطول العثمانى كلما دعى الى ذلك استشهد درغوث باشا تحت اسوار مالطة فى صفوف الجيش التركى ·

من سيهتم منا بأبطال البحر باولائك الذين ذادوا عن حمانا فى احلك ظروف تاريخنا القومى ؟

دور فرنسا في
النهضة القومية الجزائرية
من خلال مزاعم مؤرخين أجنبيين

د . محمد بريج

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

اشكر لمجلة الاصالة الغراء دعوتها الكريمة لى بالمساهمة في بحث في عددها الخاص الذى ازمعت اصداره عن « موقف المؤرخين الاجانب من تاريخ الجزائر عبر العصور » .

وطالما اشتاق المؤرخون في عالمنا العربى لمثل هذه المبادرات من مجلاتنا الثقافية والعلمية للكشف عن ذلك الزور والبهتان الذى غشى تاريخنا بفضل كتابات العديد من المؤرخين الاجانب زيفوا وقائع تاريخنا حتى بات البعض منا يصدق اقوالهم بل ويردد احاديثهم . ويا للاسف !

وبودى لو اتبعت هذه المجلة هذه الخطوة المباركة التى اقدمت عليها بخطوة اخرى هامة اشمل واعم فدعت المؤرخين للمساهمة بالكتابة فى احداث تاريخنا الاسلامى(1) عبر عصوره المختلفة وما زيفه المؤرخون منه وما زالوا يزيفون منه دون ان يجدوا من الدراسات الاسلامية الجادة ما يبطل تشويههم وانى لاظنها قادمة على ذلك باذن الله بعد ان بدات بتاريخ امة اسلامية نالت من تزييف المؤرخين الشىء الكثير ، ذلكم هو تاريخ الجزائر فى مراحله المختلفة .

وسأركز بحثى اليوم حول كاتبين : احدهما امريكى اسمه لوثروب ستودوارد Lothrop Stoddard وهو رجل عالم ما فى ذلك شك ، صدرت له عدة كتب منها الثورة على الحضارة The Revolt against civilisation وكتاب آخر بعنوان : « نهضة الشعوب الملونة » The Rising tide of colour و «اوروبا اليوم : فكرها القومى» Present day Europe : its national states of mind ثم كان كتابه الشهير عن العالم الاسلامى بعنوان عالمنا الاسلامى اليوم The New World of Islam وقد نقل الكتاب الى العربية واختار مترجمه عنوانا له اسم : حاضر العالم الاسلامى . وقد صدر سنة 1925 وعلق عليه المرحوم الامير شكيب ارسلان .

والكتاب دراسة مستفيضة عن العالم الاسلامى ما فى ذلك شك واوفى كثيرا من المسائل حقها من البحث والدراسة خاصة فى مسائل الجامعة الاسلامية . تحدث عن اليقظة الاسلامية والجامعة الاسلامية ثم انتقل الى الحديث عن سيطرة الغرب على الشرق . ثم جاء حديثه عن العصبية الجنسية . نعرف العصبية الجنسية بانها مقصد مشترك عند عدد كبير من الناس يعقدون عايه قلوبهم وضمائرهم فهم يؤلفون ، جنسية ، متمايزة عمن سواها .

ونراه فى بحثه يرجع التنبه القومى وثورة العصبية الجنسية فى العالم الاسلامى الى تيار الغرب الذى وفد على هذا العالم (الاسلامى) . وبدات هذه الحركة القومية فى العالم الاسلامى — وعلى حد قول الكاتب — فى تركيا متمثلة فى حركة تركيا الفتاة « فبات رجال تركيا الفتاة على اختلافهم فى شؤون اخرى يدعون الى هذه العصبية وهم فى سبيلها مغامرون مستبسلون. ... وبعد ان انشات تباشير اليقظة القومية والعصبية تتبدى فى العرب . فيقظوا يقظة كان شانها شان كل يقظة مثلها يبتغيها شعب محكوم ... » . ثم هو يتحدث عن الحركة الوهابية والجمعيات العربية التى قامت فى سوريا قبل الحرب العالمية الاولى والمؤتمر العربى الذى عقد فى باريس سنة 1913 ... مما لا يدخل فى مجال بحثنا هذا .

ثم هو ينتقل — وهذا هو المهم — الى الحديث عن النهضة القومية فى شمال افريقيا فيخطا الخطا كله حين يقول او حين يردد مع القائلين بان الوحدة القومية فى الجزائر مرجعها فرنسا . وننقل هنا فقرة من حديثه :

1) كانت هذه المسالة احدى نقاط جدول اعمال الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى الذى انعقد بالعاصمة بتاريخ 24 يوليو 1972

« ان فرنسا ارخت على البلاد سكينة واكسبتها نظاما ونجحا ماديا • غير ان هذه المنافع والفوائد التى اتت بها السيادة الاوربية فى هذه الاقطار الافريقية كما فى غيرها من الاقطار الشرقية قد كان من شانها ان خلقت نوعا حديثا من الوحدة والتضامن والتماسك بين اهل البلاد حتى غدوا جميعا على مستوى متماثل فى الاجماع على شناة الفاتح الاوربى وعلى نيل المطمح العام الذى يطمحون اليه ، وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتى بمعزل عن السيادة الاجنبية بتة • لذلك فقد شهد العالم خلال الجيل الماضى نشوء (الجزائر الفتاة) و (تونس الفتاة) وفيهما الاحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من اهل العلم والتهذيب المتشبعين كل التشبع بالحكم الذاتى والحرية » •

ومعنى هذا القول وما سبق من حديث الكاتب هو انعدام الوحدة القومية بين اهل الجزائر قبل الحكم الفرنسى فنراه يقول «انه ليس فى الشمال الافريقى (مراكش ، الجزائر وتونس) من كان شعبها فيما مضى امة واحدة • وفوق هذا فليس هناك اليوم من الظواهر الجلية ما يدل على ان احد هذه الشعوب العديدة سائر فى سبيل يصير بها امة صحيحة » •

ونراه يؤكد ان السكينة والنظام والنجاح المادى قد اوجد فى الجزائر نوعا من الوحدة بين اهل هذه البلاد جعلهم يطلبون الاستقلال • وان نشوء تلك الحركات الاستقلالية مرجعه تلك النهضة التى اوجدتها فرنسا •

وسؤالنا الآن : هل حقا اوجدت فرنسا نهضة قومية فى الجزائر ؟ وهل تلك الحركات الاستقلالية التى شهدتها الجزائر مرجعها تلك النهضة التى اوجدتها فرنسا ؟ هذان هما السؤالان اللذان يدوران حولهما بحثى •

يعلق المرحوم الامير شكيب ارسلان على ما قاله هذا الكاتب الامريكى فى كتابه « بينما انا احرر هذه السطور قرات فى الجريدة الفرنسوية نبأ عودة بعض النواب الفرنسيين من الجزائر حيث كانوا قد ذهبوا للاطلاع على حقيقة احوالها • فكان من جملة تحقيقاتهم ان من الاربعة ملايين ونصف مليون مسلم فى الجزائر ،اربعة ملايين نسمة لا يملكون شيئا من الدنيا ، بل هم جميعا مزارعين واجراء وعملة عند طبقة المستعمرين (الكولون) والمتملكين من المسلمين ، وان هذه الملايين الاربعة يتكففون باجرتهم اليومية وتراهم **على اسوا حال من المعيشة ويموت اطفالهم 80 فى** المائة من سوء الغذاء ويمضى شكيب ارسلان فى تعليقه فيقول : **ومعلوم انه منذ سنوات لم تنقطع المجاعة من بلاد الجزائر وكان جميع فتكها بالمسلمين وفى كل سنة تقول الحكومة الفرنساوية انها اتخذت التدابير اللازمة لمنع ويل هذه المجاعة ولم ير العالم من ذلك شيئا • ولا يزال مسلمو الجزائر من 1920 الى اليوم (1925) يموت منهم** الالوف من الجوع كانما ذلك من قبيل مكافأة فرنسا لهم على الاثنين والستين الف قتيل التى سقط منهم فى الحرب العامة (يقصد الحرب العالمية الاولى) • ثم يتعجب شكيب ارسلان كيف ان تجارة الجزائر التى زادت بشكل كبير وثروة

الكولون التى تضخمت على نمو عجيب تعجز عن تحسين حال الجزائريين . ثم يختم كلامه بقوله .

ولا غرو بعد هذه البراهين الحسابية التى لا تقبل ادنى جدال ، ان يبقى اربعة ملايين ونصف مليون نسمة مسلمة هناك (فى الجزائر) لا يملكون شروى نقير ويعيشون بأجرة عملهم اليومى او بالاحرى لا يعيشون ...»

لكن المرحوم شكيب ارسلان وهو يعلق على قول الكاتب الامريكى تناول بالحديث الجانب الاقتصادى لفرنسا فى الجزائر او ان شئت الجانب المادى دون الجانب القومي . ولعله اراد ان يرد على قول الكاتب «ان فرنسا ارخت على الجزائر نظاما ونجحا ماديا ..»

والسؤال الاول ما هى حقيقة دور فرنسا فى النهضة القومية الجزائرية ؟ لقد وقع الكاتب الامريكى شان الكثير من الكتاب الفرنسيين فى خطأ حين يذكرون **ان الجزائر كوحدة سياسية قائمة هو من عمل الفرنسيين .**

وما من شك فى ان ذلك يتجاوز الحقيقة كثيرا . ذلك ان الوحدة السياسية للجزائر تشكلت خلال العهد العثمانى . فلقد شهدت الجزائر تغييرات كثيرة خلال الحكم العثمانى لها حتى انه يمكن تمييز اربع فترات مختلفة فى العهد العثمانى :

الفترة الاولى فترة البيلربكوات سنة 1518 الى سنة 1588 حين نجح الحكام العثمانيون فى السيطرة على رجال الجيش والبحرية ولكن شانهم اخذ يتضاءل بعد هزيمة الاسطول العثمانى فى موقعة ليبانتو فى اكتوبر 1571 (1) ، فالغت الحكومة العثمانية نظام البيلربك وجعلت من الجزائر ولاية عادية يتولاها احد الباشاوات الذين يعينون لمدة ثلاث سنوات فقط . ثم تبدأ المرحلة الثانية من سنة 1588 الى 1659 حين فقد الباشوات سلطتهم على الانكشارية وانتقلت السلطة الفعلية الى الاوجاق او كبار ضباط الجند .

ولم تطل هذه الفترة لان الاهالى استاءوا من استئثار الانكشارية بالسلطة ومالوا الى تاييد الطائفة او رؤساء البحر ، وتبدأ منذ ذلك الحين الفترة الثالثة .

أما الفترة الرابعة فتبدأ حين نجح رؤساء البحر فى فرض احد رجالهم على الاوجاق سنة 1671 وشاع منذ ذلك الوقت استعمال لقب داى .

واذا كان خير الدين قد بسط سلطانه على القسم الشمالى من الجزائر فان خلفاءه اهتموا بتوسيع دائرة نفوذهم جنوبا . فاقيمت حاميات عثمانية فى بسكرة جنوب شرقى الجزائر وكذلك فى تلمسان بعد سقوط الدولة الزيانية ، ونظرا

1) يطلق المؤرخون الفرنسيون على هذه المعركة الحرب الصليبية المسيحية La Croisade Chrétienne والسبب فى تسميتهم لها بهذا الاسم ان حلفا صليبيا تكون ضد العثمانيين عقب سقوط جزيرة قبرص فى ايديهم فدعت اسبانيا والبندقية الدول الاوروبية الى حلف صليبى ضد العثمانيين وقد وضع فى قانون الحلف نص صريح يقرر ان الاستيلاء على بلاد المغرب هو هدف من اهداف الحلف ، واذا كان العثمانيون قد هزموا فى موقعة ليبانت Lepante فانهم استطاعوا ان يفرضوا على البندقية معاهدة مهينة وان ينتزعوا تونس من الاسبان

عن قوات عسكرية تتجه الى توغرت • كما نقرأ فى تحفة الزائر ان السلطنة العثمانية امتدت الى واحات الميزاب • ولكن الكتاب الفرنسيين يحاولون التقليل من اهمية الحكم العثمانى فى الجزائر ، فيقولون انه كان مقصورا على الساحل وانه اتسم بالفوضى وعدم النظام •

ولهذه المغالطات التاريخية هدف سياسى ما فى ذلك شك ، فالمقصود به التاكيد على زعمهم القائل ان الجزائر بحدودها السياسية الحالية هى من صنع فرنسا ومن جهودها •

يردد هذا القول بوضوح وفى اكثر من نقطة كاتب فرنسى استقى منه الكاتب الامريكى الذى سبقت الاشارة اليه ـ بعض معلوماته عن الحركة القومية فى الجزائر • ومن هنا لم يوفق كما سبق ان ذكرت •

اما هذا الكاتب الفرنسى الذى اود الحديث عنه الآن فهو سرفييه SERVIER صاحب الكتاب المعروف **Le nationalisme musulman en Egypte en Tunisie en Algérie.**

وقد سمى هذه الحركة الاسلامية فى كل من مصر وتونس والجزائر بانها خطر المستقبل •
Le péril de l'avenir

ومن اجل هذا فان الاسم الكامل للكتاب هو : خطر المستقبل : القومية الاسلامية فى مصر وتونس والجزائر • والكتاب الذى رجعت اليه هو الطبعة الثانية لكتابه الصادر فى قسنطينة ديسمبر سنة 1912 طبعت طبعته الثالثة بعد ذلك عام 1913 • كتب مقدمة الكتاب نائب فرنسى اسمه موريس آجام AJAM وتلمس من المقدمة التى كتبها هذا الرجل عداءه للاسلام، يقول آجام :

جاءنى فى يوم صديق يزورنى ويقول انت كتبت عن الاسلام وعدم ملائمته للعصر الحاضر وانت تجهل ان الاسلام فى العصور الوسطى كان مشعل الحضارة • وان هناك من المسلمين فلاسفة عظام وعلماء ومفكرين • ويقول ان هذا الصديق وابناءه يجهلون روح الاسلام وانه من الممكن للمسلم ان يتعاون مع «رومى» ويصفهم بانهم مثاليون لا يعيشون الواقع • وان المسلم مهما كان لا يقبل التعاون مع هذا المسيحى ابدا خصوصا اذا كان قد غزا ارضه •

وفى بداية الكتاب يقول سرفييه انه وقعت فى ايدينا (يعنى ايدى فرنسا) وثائق من مصريين يحرضون مواطنينا الجزائريين على الثورة • ويقول ان هذه الوثائق تؤكد ما اصبح يسود تلك المناطق من العالم الاسلامى سواء الخاضعة لانجلترا مثل مصر او الخاضعة لنا مثل تونس والجزائر • اننا ساهمنا فى خلق هذه العصبية الاسلامية» • ثم راح يوضح خطر هذه الحركة الاسلامية Panislamisme ويقول ان عددا من الجزائريين الذين شربوا روح الحضارة الاوربية التى جئنا بها الى الجزائر باتوا يحلمون ان يلعبوا دورا اكبر مما ينبغى ان يلعبوه وصاروا يحلمون احلاما عظمى • انهم يحلمون ان يحكموا انفسهم دون خضوع لسيادة اوروبية • ولقد شجعهم على المضى فى هذا الطريق اطماعهم الشخصية وتشددهم وتعصبهم لدينهم الذى لا يسمح لهم بالتعاون مع غير المسلمين • ومن ثم فانهم (هؤلاء الجزائريون) يعتبرونها نوعا من الحرب المقدسة لتدعيم النفوذ الاسلامى •

ويقول سرفييه Servier ان هذه الحركة (يقصد الحركة الاسلامية فى مصر وتونس والجزائر) بدأت فى مصر فى 22 اكتوبر 1907 حين اعلن فى الاسكندرية عن برنامج الحزب الوطنى الذى اصبح هو رئيسه · وينادى هذا الحزب بتقوية الروابط بين مصر وتركيا وبخروج الانجليز من مصر،ويقول ان مصطفى كامل يردد بأن المصريين لم تعد تخدعهم الالفاظ الطنانة للاصلاحات ولن يهدأ لهم بال الا بوجود حكومة وطنية مستقلة دستورية «فهو (مصطفى كامل) يرمى لطرد الانجليز من مصر» · وجاء من بعده محمد فريد وظهر لطفى السيد بآرائه التى اخذها ينشرها فى صحيفة (الجريدة) وعلى يوسف فى (المؤيد) ·

ويقول سرفييه لا بد ان ندرس افكار هؤلاء ، لان افكارهم وآراءهم اثرت على رجال تونس الفتاة والجزائر الفتاة · وهم (محمد فريد وغيره فى مصر) يرون ان المسلمين فى مصر والجزائر وتونس قدكفاهم ما تعلموه من الانجليزوالفرنسيين وينبغى ان يديروا شؤونهم بانفسهم ويجب اذا ان تكون مصر للمصريين وتونس للتونسيين وكذلك الجزائر للجزائريين ·

ثم نراه ينبه الى **خطورة هذه اليقظة الاسلامية على فرنسا ، انجلترا ، وايطاليا** التى دخلت هى الاخرى طرابلس الغرب · ويقول يجب ان نخطط للمستقبل «ان نكشف عن العصبة الاسلامية وافكارهم وآرائهم · ان هذا محور المشاكل فى المستقبل» ·

ويبدأ الكاتب دراسته للحركة الاسلامية فى مصر ثم فى تونس وهو ما يخرج عن نطاق هذا البحث ، وآمل ان اتناوله فى اعداد قادمة من هذه المجلة ان شاء الله ·

وانما يقتصر حديثنا عن الجزائر ·

والكتاب ملىء بالمغالطات التاريخية والتعصب المتوقع من مثله فيقول ـ وهو يحلل المجتمع الجزائرى ـ انه «مجتمع متأخر عن المجتمع التونسى ليس فيه وحدة الشعب التونسى · قبل الغزو الفرنسى لم توجد قوة قوية تسيطر على البلاد · فالداى لم تكن له سلطة الا على المدن · وان حكمنا الذى قام على اساس احترام النظام والمساواة قد قارب بين هذا المجتمع وبين المجتمع التونسى» · ثم يقول عن المجتمع الجزائرى انه بدأ فى دور التكوين وهناك البرجوازيون (الموظفون ، التجار واصحاب الارض) ثم العمال والفلاحون ·

ثم يتناول بالحديث الجزائر الفتاة ، ويرى ان هؤلاء الشبان الجزائريين الذين تلقوا ـ على حد زعمه ـ تعليما وثقافة فرنسية هم اخطر الناس على فرنسا · هو لا يخشى من الاجيال الجزائرية التى تجاوز اعمار الكثيرين منهم اربعين عاما فهم يقرون لنا بالاصلاحات التى ادخلناها فى بلادهم · اما هؤلاء الذين استفادوا من تعليمنا ونظمنا اى هؤلاء الشباب فهم من نتاج عملنا Est notre œuvre اننا بتشجيعنا للعلم فتحنا الآفاق لهؤلاء فقد كنا كرماء معهم كما كنا دائما عبر تاريخنا كله ! ! · اننا بما فعلناه معهم لم يعد يرضيهم ان يعيشوا معنا فى وئام كما عاش من قبلهم · وهو بهذا يتجاهل تماما تلك الحركات الاستقلالية التى قام بها الوطنيون الجزائريون ضد

المحتل الاجنبي مبتدا بالامير عبد القادر وما تبع ذلك من حركات وطنية عبر السنين التى بسط فيها المحتل الفرنسي وجوده على الارض الجزائرية.

ويرى هذا الكاتب ان حركة تركيا الفتاة ونجاحها في القسطنطينية هي التى فتحت الآفاق امام هؤلاء الجزائريين . «وبمثل ما يطالب به رجال مصر الفتاة (1) ان مصر للمصريين يطالب هؤلاء الجزائريين انه اذا لم يكن ممكنا لهم ادارة بلادهم كاملا فليكن لهم جانب في ادارتها» .

ولا يخشى سرفييه من الفلاح الجزائرى فيقول هو رجل امي لا ينبغي ان يقام له وزن .

ثم ينتقل الكاتب الى الحديث عن اثر الحرب بين روسيا واليابان (التى انتهت في سبتمبر سنة 1905) وكيف ان انتصار اليابان في هذه الحرب قضى على خرافة سيطرة الحضارة الغربية والغرب . ويقول ان اثر ذلك انه بدأت انجلترا تواجه متاعب في الهند . «ونحن في الجزائر نجد ان الحرب التركية الايطالية انعشت الروح الدينية التى تؤثر دائما على المصير السياسي . ان العقيدة خصوصا الاسلامية هي المؤثر الكبير على السياسة»

ثم يتحدث عن **النهضة الجزائرية فيصفها بانها ضعيفة تافهة** تنقل الصحافة الجزائرية كثيرا مما يكتب في مصر وتونس ، ثم يعرج مرة اخرى على سياسة مصطفى كامل في مصر ويقول انها تقوم على ثلاثة امور :

1) ــ عدم الثقة بالادارة الاروبية .

2) ــ اثارة سخط المواطنين بتوضيح سوء حظهم وان المحتل يعاملهم معاملة سيئة ،

3) ــ خلق وحدة في المجتمع الاسلامي .

ويقول ان الصحافة الجزائرية نهجت نفس المنهج. ويقول ان صحيفة الاسلام تنقل وتتبع اسلوب محمد فريد وعلي باشي جانبه في تونس. ويورد مقتطفات من صحيفة «الاسلام» (2) . من ذلك ما كتبته في 14 جانفي ــ يناير سنة 1912 ــ تقول وهي تحرض الجزائريين على الثورة : الشهداء العرب ، ان دروس الماضي علمتنا ما فيه الكفاية ، وما ننتظره من الجزائر التى احكمت فرنسا فيها الظلم من حوالينا ان الجزائر اصبحت شهية للمستعمرين الذين يحتقرون العربي ، هذا العربي ضحية القاهرين استحوذ المستعمرون على الارض واستغلوها وسادوا عليها» .

ثم يورد من نفس الصحيفة اقوالا تثبت قيامهم (قيام كتاب هذه الصحيفة) بالدعوة الى التضامن الاسلامي والتاكيد على ان **الشعب الجزائرى جزء من الامة العربية** .

ويمضي الكاتب يؤكد ان حركة الجزائر الفتاة هي شيء مستورد من آراء وافكار مصر الفتاة وتونس الفتاة وان هذه الحركات الثلاث اقتبست اشياء كثيرة من حركة تركيا الفتاة .

النقطة الاخيرة التى احب ان اتعرض لها في هذا الكتاب ما جاء في الجزء الرابع منه تحت عنوان: «سياستنا (يقصد سياسة فرنسا) الاسلامية»

1) يقصد رجال الحزب الوطني في مصر

2) صحيفة جزائرية كانت تصدر في الجزائر العاصمة اسسها محمد عز الدين القلال وصادق دندان في اوت ــ اغسطس 1912 ــ ارجع الى فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية

يقول الكاتب : يتضح مما استعرضناه عن الحركة الاسلامية فى مصر وتونس ان هذه الحركة الاسلامية حركة متعصبة وانها ممتدة فى انحاء كثيرة من آسيا وافريقيا تحاول ان تثير تعصب الجماهير . ويورد اقوالا لمراسل صحيفة الطان Le Temps من القاهرة يقول ان حرب تركيا مع ايطاليا وحرب البلقان قوت امر هذه الحركة فى افريقيا وهذا امر يهم فرنسا بالدرجة الاولى. ثم يقول ان هناك اتحادا سريا اسمه الوحدة المغربية Union Maghrebine يهدف الى ان يضم كل المسلمين فى المغرب وغرب افريقيا . وان هذا الاتحاد ـ على حد ما اورد الكاتب ـ مؤسس فى القاهرة بتشجيع من الشيخ على يوسف صاحب المؤيد وان امين صندوق هذا الاتحاد جزائرى اسمه امين بك المغربى . ويؤكد المراسل ان لهما فرعا فى الجزائر العاصمة وتونس وان المشجع الكبير لها هو المنتدى الادبى (I) فى القسطنطينية

ويمضى مراسل الطان حسب ما نقله سرفييه يقول : ان هدف هذه الوحدة المغربية تنظيم ثورة عامة فى افريقيا الفرنسية .

يخلص الكاتب من ذلك الى ان هذه الحركة الاسلامية خطر علينا (على الفرنسيين) خطر يهدد النفوذ الغربى فى كل مستعمراته فى آسيا وافريقيا .

ثم يتساءل هل يمكن مقاومة هذا الخطر ؟

يقول سرفييه : «ان القومية الاسلامية هى نتيجة الحضارة التى جئنا بها لهذه البلدان ! ! انها ثمرة الثقافة والحضارة الاوربية . ويقول ان مصر شهدت بداية هذه الحركة الاسلامية لماذا ؟ لان مصر شهدت اول نفوذ اوربى» . ثم يمضى قائلا ان الغزوة الفرنسية بقيادة بونابرت هى التى حركت القومية فى مصر . ان هذه الحملة الفرنسية هى التى جاءت بحضارة اوربا الى الشرق .

واترك الرد على تلك الادعاءات القائلة بان الحملة الفرنسية هى التى نقلت الحضارة الى عالمنا الاسلامى لأبحاث مقبلة , كما اترك تهجمه على الاسلام حين قال : ان الاسلام لا يتمشى مع الحضارة وانه عدو لكل تقدم

Bref : l'Islam n'est compatible avec la civilisation parce qu'il est hostile a tout progrès.

هو يرى ان هناك اخطارا حادقة بالنفوذ الاستعمارى سواء فى مصر او فى تونس او الجزائر ويرى انه يجب على فرنسا ان تبادر باحتواء هذه الحركة ويرى ان ذلك ممكن تحقيقه بان تسمح فرنسا بقدر ضئيل من التعليم يتناول

I) المنتدى الادبى هو جمعية ثقافية اسسها مجموعة من العرب فى عاصمة الدولة العثمانية فى الاستانة ليكون مقرا ومكانا يجتمعون فيه سنة 1910 برئاسة عبد الكريم الخليل وهو احد الشهداء العرب الذين اغتالهم جمال باشا السفاح اثناء الحرب العالمية الاولى

ارجع الى توفيق برد : العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى ص 210 وما بعدها

أول ما يتناول أمور التعليم خاصة الزراعى منه٠
ولا تسمح بوجود مثقفين جزائريين Pour l'instant l'Algérie n'a pas besoin d'intellectuels !

«علينا ان نسيطر على الامور ان نتحكم فـــى الجماهير حتى تكون لنا سيطرة سياسية ومعنوية وثقافية بهدف ان نبقى نحن الموجهين والمرشدين للاهالى» ٠

وبعد ، فتلك لمحة سريعة لما كتبه سرفييه وحاول شأنه شأن غيره ان يغمط الحركة الوطنية الجزائرية حقها ٠ هو يرجعها الى تيار وافد عليها من الشرق الاسلامى ثم هو يرجع تيار هذه النهضة الاسلامية لما تفضل به المستعمرون الاوربيون على عالمنـــــا الاسلامى فتجده يقول فى صفحة 186 من كتـــابه ان انتشار افكارنا الحضارية وانتشار التعليــــم اوجدا اجمــــاعا ، وبدأت احلام الاستقلال تراود الاهالى ٠ ان الحضارة الاوربية اعطتهم احساســا بحقوقهم وجعلتهم يحسون بقيمتهم واشعرتهـــم انهم قادرون على ادارة شؤون بلادهم ٠

وما احوج تاريخنا الاسلامى الى ان يجد مــن ابنائه من يتصـــدون لمثل هذه الاكاذيب والادعاءات والله المـــوفق ٠

مُساهمة المؤرخين الفرنسيين

وهل تصلح أساساً لتنمية تاريخنا القومي ؟

إسماعيل العربي

كاتب جزائري

الصورة الخلفية

ان تاريخ الجزائر عبر العصور القديمة والعصور الوسطى ملتحم بتاريخ المغرب العربى كله التحاما قويا ، ولا سيما بتونس والمغرب الاقصى • وهذا التاريخ يبدأ بانتشار المستعمرات الفنيقية فى الحوض الغربى للبحر الابيض المتوسط فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، اى قبل تاسيس قرطجنة بحوالى اربعة قرون • وفى غضون القرون التالية ، توغل النفوذ السلمى الذى يرافق التجارة الدولية مع الثقافة الفنيقية فى هذه الديار •

وقد ظلت اللغة الفنيقية التى مهدت الطريق للغة العربية شائعة فى المغرب حتى فى عهد الفيلسوف الجزائرى سانت اغسطين (القرن الخامس الميلادى) (١) ، اى قبل الفتح الاسلامى بوقت قصير ـ الامر الذى لم يجد معه سكان هذه البلاد صعوبة فى التفاهم مع العرب وتقبل الدين الاسلامى ·

وبعد سقوط قرطجنة (١٤٦ ق · م ·) ، واحتلال الرومان لشواطىء هذه البلاد ، سار اباطرة روما على حكمها بواسطة الملوك والامراء المحليين · ولكن الطمع وشهوة السيطرة جعلتهم يوسعون سلطانهم تدريجيا حتى اتمواضم الجزائر نهائيا فى عهد الامبراطور كاليجولا (٤٠ م) · على ان مساحات شاسعة من هذه الارض (تلال ولاية الجزائر وتلال ولاية وهران) ظلت مع ذلك حاملة لواء الحرية وافلتت من قبضة الاستعمار الرومانى ·

وفى القرن الخامس الميلادى تعرضت البلاد لغزو الوندال المخربين ، ثم لغزو بيزنطة فى سنة ٥٣٣ م · وفى اواخر القرن السابع ، تم للعرب فتح الجزائر بعد ما قضوا على فلول جيش بيزنطة وتغلبوا على جيوب المقاومة المحلية·

وفى اوائل القرن السادس عشر استقر الامر للاتراك فى هذه البلاد ، بعد ما طردوا الاسبان من شواطئها (فيما عدا وهران التى سيستولون عليها نهائيا فى سنة ١٧٠٨) ·

وقد ظلت الجزائر فى غضون فترة تمتد على ما يقرب من ثلاثة قرون ، القوة الرئيسية فى البحر الابيض المتوسط ، حيث عجزت اساطيل شارل كينت ولويس الرابع عشر عن قهر اسطولها ·

وقد اطلق الاجانب اسماء متعددة لم نعترف بها على بلادنا ، مثل « لوبو » الذى كان اليونان والعبريون يسمون به المناطق الشرقية ، واسم « المور » الذى كان الرومان يطلقونه فى البداية على شمال المغرب الاقصى ، ثم وسعوا مدلوله فى الاتجاه الشرقى · وكذلك عرفت هذه البلاد تحت اسم « البربر » الذى كان الرومان يطلقونه على الشعوب التى لا تنتمى الى الحضارة الرومانية ·

واما العرب ، فقد اطلقوا كلمة « افريقية » (التى يرجح ان تكون تسمية فنيقية) على المناطق التى تعرف باسم تونس حاليا على وجه التقريب ، والمغرب الاوسط ، على الجزائر ، والمغرب الاقصى على البلد الذى لا يزال يحمل نفس الاسم حتى اليوم ·

وفى القرن التاسع عشر ، خلق الجغرافيون الاوروبيون تعبير « افريقية الصغرى » ، على غرار آسيا الصغرى ، للتمييز بين المغرب وبين بقية اطراف القارة ، ولالفات النظر الى اهميتها الاستراتيجية فى حوض البحر الابيض المتوسط الغربى · وهذا التعبير ، كان بمثابة كلمة السر فى عملية انقضاض الاستعمار الفرنسى على هذه البلاد التى ستعيش فى ظله نيفا وقرن من الزمن ستتعرض خلالها مقوماتها الثقافية ومميزاتها القومية لامتحان عسير ·

وجميع هذه الاطوار والحقب التى مرت بها الجزائر ، عالجها المؤرخون الفرنسيون باستفاضة فى كتب تختلف احجامها واهدافها وقيمتها العلمية ·

Gsell (St) l'Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Hachette 1913, T. IV, P. 498.

وعلى الصعيد الجغرافي ، تمثل جزيرة المغرب كما يحلو لبعض المؤرخين ان يسميها ، فضاء مربع الاضلاع يمتد بين شواطىء البحر الابيض ورمال الصحراء الكبرى والمحيط الاطلسي وراس بون . والاضلاع غير متساوية . فان المسافة بين راس اسبرتل وراس بون تبلغ حوالى ١٥٥٠ كيلو متر ، وبين راس بون وجابس ٢،٢٠٠ كيلو متر ، وبين راس بون وجابس ، اقل من ٤٠٠ كيلو متر . ومجموع هذه المساحة تبلغ ٩٣٠٠٠٠ كيلو متر مربع .

ومستوى ارتفاع الارض على البحر فى اكثر من نصف هذه المساحة ، يزيد عن ٨٠٠ متر . والمتوسط فى كل واحد من الاقطار الثلاثة هو ــ ٣٠٠ متر فى تونس ، و ٨٠٠ متر فى المغرب الاقصى ، و٩٠٠ متر فى الجزائر . على ان ارتفاع هذا المعدل ، لا يدل على وجود جبال كبيرة العلو . لاننا اذا استثنينا قمة جبل توبكال فى المغرب (٤١٦٥ مترا) ، واعلى قمم جبل اوراس (٢٣٢٨ مترا) ، فان بقية جبال المغرب لا يتجاوز ارتفاعها ١٦٠٠ مترا . والارتفاع الشائع فى المغرب يتراوح بين ٨٠٠ و ١٢٠٠ مترا ــ وهو ارتفاع معتدل .

على ان الجبال يحدث ان ترتفع قممها وتنفصل عن السهول والوهاد التى تحيط بها فجاة . وهذه هى الحالة ، مثلا ، بالنسبة الى الاطلس التلى المتيجى الذى يطل على مدينة البليدة من ارتفاع قدره ١٤٠٠ مترا فى اعلى قممه . والامر كذلك بالنسبة الى جبل سيدى عقبه الذى يشرف على سهول افلو من علو يبلغ ١٤٢٦ مترا .

لقد بدا الجغرافيون الفرنسيون استكشاف الأراضى الجزائرية ودراسة مختلف نواحيها لاغراض ادارية وعسكرية وعلمية الخ . ، منذ المراحل الاولى بعد الاحتلال . وقد انتهى بهم الامر الى تقسيم البلد فى وقت مبكر الى ثلاث مناطق متوازية تمتد من الغرب الى الشرق : الاطلس التلى ، والسهول المرتفعة ، والاطلس الصحراوى . وقد كان الرأى السائد بين الجغرافيين الاوائل هو أن سلسلتى جبال الاطلس تمتد على هذا النحو من التوازى فى جميع شمال افريقية . ولكن هذا الرأى تغير حينما انتبهوا الى ان سلسلتى الاطلس تلتقيان فى شرق الجزائر ...

ومهما يكن من شىء ، فان سلسلتى الاطلس متميزتان فى هذا البلد . فان الاطلس التلى يتميز بتضاريسه الحادة وبالارتفاع والهبوط الشديد فى منحدراته .

واما الاطلس الصحراوى ، فهو على العكس ، يتسم بالاعتدال فى تعرجه وبالهبوط والصعود الرتيب نوعا ما بحيث ينتهى الى الاتصال بالمرتفعات الصحراوية بصورة لا تكاد تكون ملحوظة .

وكذلك يلح الجغرافيون الفرنسيون على تقسيم آخر بين المناطق الشرقية والمناطق الغربية فى الجزائر . والسهول المرتفعة التى تحيط بها سلسلتا الاطلس لا ترتفع فى الحقيقة الا فى الغرب . فهناك تمتد سلسلتان من السهول : سهول الشلف التى تكملها سهول سيج وسبخة وهران من جهة ، وسهول معسكر وسيدى بلعباس وتلمسان ، من جهة اخرى . وهى تحيط بها من الشمال جبال ساحل وهران وجبال الظهرة المتفرعة عن الاطلس التلى ، ومن الجنوب جبال تسالة والورسنيس التى هى اعظم الكتل الجبلية التى تمتد فى غرب الجزائر .

وفى الجنوب تمتد سلاسل قصيرة من الجبال التى تتصل بالاطلس الصحراوى ، وهى جبال القصور وعمور واولاد نايل التى تبدأ فى المغرب الاقصى وتتجه شرقا حتى الحضنة فى ارتفاع منتظم تقريبا ، وتفصل بينهما ممرات واسعة تسهل المواصلات عبرها من الجنوب الى الشمال ٠

وفى القسم الشرقى فقدت الجزائر كثيرا من انتظام هندسة جبالها ٠ فان معظم المناطق الساحلية عبارة عن جبال تتخذ اشكالا غير متسقة ولا مريحة للنظر ٠ ولكنه فى اقصى طرفى المنطقة الشرقية ، تمتد سهول مجاورة للشاطىء ، وتلك هى سهول متيجة الواقعة خلف الهضاب الشاطئية فى الغرب ، وسهول عنابة المشهورة التى تبدأ فى جنوب جبل ايدوغ ، الذى كثيرا ما يسير موازيا للشاطىء مع سلسلة جبال بلاد القبائل التى تسندها من الجنوب جبال جرجرا ٠ والى الشرق من ذلك ، ترتفع جبال البابور ومجموعة من الجبال المتقطعة التى تمتد بين راس بوقرعون وراس الحديد ٠

وخلف المنطقة الساحلية تمتد جبال التل من الشلف حتى الحدود التونسية فى شكل مختلط الارتفاع والانخفاض بحيث لا يتجاوز ارتفاع اعلى قممها ١٨٠٠ مترا ٠ وهى فى بعض المناطق تمتزج بسهول محدودة المساحة ، مثل سهول ميلة وسهول قالمة ٠

وبنهاية منخفضات الحضنة فى الجنوب ، تنتهى السهول المرتفعة فى هذه المنطقة ، واما سلسلتا الاطلس التلى والصحراوى ، فهما تلتقيان فى منطقة عنابة ، كما اشرنا ، بينما تنتشر جبال ثانوية تشكل امتدادا لهما فى السهول المرتفعة القسنطينية بغير انتظام بحيث يسود هذه المنطقة وضع غير واضح ، اذ تنخفض الارض حينا وترتفع حينا آخر ٠

وعلى كل حال ، فان الاطلس الصحراوى يحتفظ باتجاهه الاصلى ، من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، وتمثل جبال اوراس ذات التكوين غير المنتظم امتدادا مرتفعا له ٠ وبين اوراس ، من جهة ، وبلزمه وجبال الزيبان ، من جهة اخرى ، ينفتح منفذ الى الجنوب عن طريق وادى القنطرة الذى يجمع بين السهول المرتفعة والصحراء ٠

تلك هي ، بايجاز ، المعالم الرئيسية للتكوين الطبيعى للجزائر الذى عنى بدراسته وابراز تفاصيله عدد من الجغرافيين الفرنسيين الذين ندين لهم باعمال لابد من الاشادة بقيمتها الموضوعية ، خصوصا لان هذا المجال علمى ويبتعد اكثر من التاريخ عن التاثر بالاعتبارات السياسية ٠

ولكن ما هى آثار هذا التكوين الطبيعى للارض على السكان والمؤسسات والمجتمع البربرى ، بصفة عامة ؟ هل كان عاملا من عوامل القوة والوحدة ، أو سببا فى الضعف والانقسام ؟ وباختصار ، هل كان له حقا ذلك الثقل المزعوم على تاريخ المغرب وعلى تطوره السياسى والاجتماعى ؟

تلك اسئلة تلقت ردودا بالايجاب من الكتاب الفرنسيين لا نعتبرها مدعمة بما يكفى من الادلة والتحليل العلمى ٠ وهى فى راينا لا تتعدى كونها فروضا واستنتاجات يمكن للباحث ان يصل بسهولة الى نتائج تناقضها ٠ (١)

(١) قارن
Ch. - André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, 1/12
E. F. Gautier, le passé de l'Afrique du Nord, P. 9 - 10.

نمـوذج ممثل لمساهمة الفرنسيين

Paul Azan (Général), l'Emir Abd El-Kader du Fanatisme Musulman au patriotisme Français. Hachette 1925.

يمثـل هذا العمل الموجـه لخدمـة اهداف سياسية مجهودا فى البحث · وقد تمكن مؤلفه ، بفضل لقبه العسكرى الرفيع ، من الحصول على وثـائق اداريـة والتنقيب فى الارشيفات ـ وهى مزية لاتتاح لباحث عادى · واما نـزعة الكاتب واغراضه ، فيدل عليها عنوان الكتاب بوضوح · وقد اراد ابـراز بطولـة الامير عبد القـادر فى المعارك لكى يـزيد من قيمـة انتصارات الجيش الفرنسى عليـه ، ثـم لكي يضرب بتحول الامير عبد القادر المزعوم ، مثلا للجزائريين لكي يحذوا حذوه ·

E. Abertini, G. Marçais et G. Yever, l'Afrique du Nord Française dans l'Histoire Lyon-Paris, 1937.

كتاب غزير المادة ، حسن الترتيب ويقـرا بسهولة ، ولكنه كثير الايجاز · وضع له مقدمة ـ

R. Lespes

A. Bernard, l'Afrique Septentrionale et Occidentale (Collection Géographique Universelle de P. Vidal de la Blanche et L. Gallois) , 1937.

كتاب مهم يعطى فكرة اجمالية عن الجغرافيا الطبيعية والبشرية للمناطق التى يعالجها (وهى لا تشمل ليبيـا) ·

A. Bernard, l'Algérie, 1929.

كتـاب فى التـاريخ والجغرافيـا يعـالج مختلف النواحى مستعينا بوثائق متينة ·

G. Boissiere, Esquisse d'une Histoire de la Conquete et de l'Administration Romaine dans l'Afrique, et particulièrement dans la Province de Numidie, 1878.

كتابضعيف المـادة · وعلى الرغـم مـن عنوانـه الطويـل والمغرى ، فهـو قليل الفـائدة والقيمة العلمية ·

R. Cagnan, l'Armée Romaine en Afrique et l'occupation militaire sous les Empereurs, 1912.

كتاب متوسط المادة حسن الترتيب ويحتوى على معلومات من كل نوع تتجاوز النطاق الذى حدده المؤلف لبحثـه ·

H. Carrot, Histoire générale de l'Algérie, 1910.

عمل ضخم الحجم ، جمعت مواده تجميعـا دون عنايـة فى التنسيق والاختيـار والترتيب · وهو لا يقدم مساهمة تستحق الذكر ·

E. Carette, Recherches sur les origines et les migrations des principales tribus de l'Afrique septentrionale et particulièrement de l'Algérie, sur exploration scientifique de l'Algérie, III, 1853.

كتـاب يمثـل مجهـودا كبيـرا فى البحث وترتيب المواد ، وهو لا يـزال مرجعا مفيدا لمـن يهمه الموضوع ، ولا سيما الخريطة المرفقة به ·

J. Despois, l'Afrique du Nord (Collection géographie de l'Union Fraçaise. T. I.) 1949.

عمل يعطى فكرة واضحة عـن الجغرافيا الطبيعيـة والبشرية لبلدان المغرب · والكتـاب يحتوى على قائمة كبيرة من المراجع · والقسـم الثانى منه يعالج الصحراء ·

Ch. Dichl, l'Afrique Bysantine, Histoire de la domination Bysantine en Afrique (533 - 709) , 1890.

كتاب كبير القيمة ويحتفظ بكثير من جدتـه فى هذا المجال الذى لم يحظ بعنـاية الباحثين · ولكنه مع ذلك يحتاج الى نظرة نـاقدة متفحصة ممن يريدون الاستفادة منه ·

Four - Biguet (Général) l'Histoire de l'Afrique Septentrionale sous la domination des Arabes, 1905.

كتاب متوسط الحجم حسن المادة والترتيب ويمتاز بالتحرى فى ترجمة النصوص العربيـة

واستعمالها ، حيث كان الكاتب ذا معرفة طيبة بلغتنا ٠

H. Fournet, les Berbères, Etude sur la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes, 2 vol. Paris, 1875-1881.

كتاب اكبر حجما من الكتاب السابق ويضم وثائق ونصوصا مترجمة او مختصرة من اللغة العربية بدون كبير عناء فى التحرى ٠ وهو يعالج تاريخ المغرب حتى رحيل المعز لدين الله الى القاهرة ٠ ويلاحظ على الكتاب ايضا ضعف الربط وقلة التسلسل ٠ والكمية فيه لا تغنى عن النوع ٠ والباحث الذى تتوفر لديه امهات الكتب العربية ويمكنه استعمالها يمكنه ان يستغنى عنه ٠

E. F. Gautier, le passé de l'Afrique du Nord, Payot, 1952.

كان هذا الكتاب قد نشر معظمه فى مجلة Revue Africaine تحت عنوان

Considérations sur l'Histoire du Maghreb

ثم طبع الكتاب تحت عنوان

les Siecles obscures du Maghreb

فى سنة ١٩٢٧ ، واعيد طبعه فى سنة ١٩٣٧ ٠ والكتاب ، مثل كاتبه ، العلامة جوتيه ، يتمتع بشهرة خاصة بين الباحثين فى تاريخ افريقية الشمالية ٠ ويمتاز الكتاب الذى نقح عدة مرات بنظرة نفاذة تتجاوز ما يستخلص من النصوص الى اعماق الماضى السحيق ، وكذلك يمتاز بما يشتمل عليه من المحاولات الجرئية ، التى قد لا يوافقه الكثيرون عليها للتركيب والتقريب بين التيارات والحوادث ٠ والكتاب يقدم كثيرا من الحلول الافتراضية لمشاكل تعوزنا الوثائق بشانها ، وكل ذلك مع احترام لقواعد متشددة فرضها الكاتب على منهاجه فى البحث ٠

S. Gsell, l'Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, 8 vol. : I: Les conditions du développement Historique (1913) ; II l'Etat Carthagenois, 1918; III Histoire militaire de Carthage, 1918 ; IV Civilisation Carthagenoise, 1920 ; V Organisations sociale, Politique et Economique, 1927 (2ᵉéd. 1929), VI les Royaumes Indigènes, vie matérielle, Intellectuelle et morale, 1928 ; VII la République Romaine et les Rois Indigènes, 1928 ; VIII Jules César et l'Afrique. Fin des royaumes indigènes 1928.

كتاب نادر المثال فى غزارة المادة والتعمق فى البحث ويمتاز بالعرض الشيق والتحليل النفاذ٠ ولكن البحث العلمى قد تجاوز الآن بعض اقسامه٠ ونحن نشير على من يهمه الامر بتكميل اطلاعه على الجزء الاول بمراجعة الكتابين التاليين :

P. R. Wulsin, The Prehistoric Archeology of North Weat Africa, Harward university, 1947 , M. Almagro Basch, Prehistorica del Norte de Africa y del Sahara Espagnol, Barcelone, 1946.
St. Gsell, Atlas Archéologique, 1911.

كتاب متخصص فى المعالم والاثار القديمة ولكنه يتناول ايضا العصر الاسلامى ٠ وهو ذوفائدة كبيرة للباحث المتعمق فى آثار الشمال الافريقى فى هذه العصور ٠

St. Gsell, G. Marçais, et G. Yever, l'histoire de l'Algérie, 1927.

كتاب لا يزال من احسن المؤلفات التى تعالج تاريخ الجزائر فى جملته ٠ وكان القسم الذى يتعلق منه بالعصور القديمة قد نشر قبل ذلك فى سنة ١٩٠٣ تحت عنوان

l'Algérie dans l'Antiquité

H. R. Idris, la Barbarie orientale sous les Zirides. Paris 1962.

دراسة يمكن القول بانها ستظل وقتا طويلا من ضمن المراجع الاساسية فى الموضوع • وهى تمتاز بالمنهج المحكم وبما تشتمل عليه من التفاصيل الدقيقة فى الحياة الاقتصادية والثقافية الى جانب النواحى السياسية والعسكرية فى عهد الزيريين فى افريقية (تونس) • واما شئون المغرب الاوسط تحت ملوك بنى حماد ، فان المؤلف قد اكتفى بنظرات سريعة عليها • وهو لا يمكن ان يلام على ذلك ، حيث ان عنوان الاطروحة يحدد موضوعها بوضوح •

P. Jalabert, Histoire de l'Afrique du Nord, 1945.

كتاب ضعيف المادة ضحل التحليل وليس له اية قيمة علمية •

Ch. - André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, 2 vol. : (I. des origines à la conquête arabe (647) ; II de la conquête arabe 1930) 1968 (1949)

كتاب كبير الفائدة يسمح باخذ فكرة تركيبية وافية عن تاريخ افريقية الشمالية ، خصوصا للقارىء الفرنسى وقد اعتمد المؤلف لتحرير هذا العمل على جميع الوثائق التى اكتشفت حديثا ، ولو انه ــ كما هى الحال فى كل عمل تركيبى من نوعه ــ لا يحيل الى المراجع التى ياخذ منها ، وهو امر يحرم القارىء من متعة المقارنة والمراقبة ومن بعض الفائدة ايضا • ويؤخذ على الكتاب فى مجموعه قلة التوازن بين مختلف اقسامه والتركيز على العصور القديمة خصوصا ، على حساب العصور الاسلامية • ويكفى ان نذكر هنا ، مثلا ، بان المؤلف لم يكرس فى هذا العمل لدولة بنى حماد (حوالى قرن من الزمن) سوى اربع صفحات • ثم ان افريقية الشمالية لا تزال تحمل فى الطبعة الاخيرة المنقحة اسم « افريقية الشمالية الفرنسية » •

G. Marçais, les Arabes en berberie du XI[e] au XIV[e] siecle, 1913.

كتاب يعالج بكثير من الدقة والاستقصاء (اطروحة) غزو بنى هلال وتوسعهم • وهو من الاعمال التى لا يستغنى الباحث عن الرجوع اليها فى تاريخ هذه الفترة المضطربة من حياة المغرب•

G. Marçais, la Berberie musulmane au moyen age 1946

يمثل هذا الكتاب المتوسط الحجم ما يقرب من ثلاثين سنة قضاها المؤلف فى البحث والتنقيب والتامل فى تاريخ افريقية الشمالية فى العصور الوسطى • والكتاب مكتوب باسلوب علمى ولكنه غير ممل ويسود مختلف اقسامه تنظيم للمواد وتوازن فى توزيعها •

E. Mercier, l'Histoire de l'Afrique septentrionale (Berberie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête Française, 3 vol 1888 - 1891 .

هذا العمل يمثل مجهودا فرديا منقطع النظير فى الموضوع ، ولا سيما اذا اعتبرنا ان هذا الكاتب كان يعمل فى قسنطينة ، وبالتالى ، بعيدا منقطعا عن مكتبات العاصمة ومتاحفها وغير ذلك من مصادر المعلومات التى لا يستغنى عنها الباحث • والكتاب غنى بالمعلومات المختلفة القيمة ويعتبر من الامهات التى استفاد منها كثير من الكتاب الفرنسيين ، على انه اصبح الآن قديما وتجاوزه الوقت •

L. Mouggu, vue générale de l'Histoire berbère, Alger, 1950.

كتاب يعرض المعلومات فى ترتيب علمى محكم ويعتمد على وثائق حسنة ولكنه يدافع عن عدد من النظريات بحجج ضعيفة •

E. Pellissier, mémoire historique et géographique sur l'Algérie, 1844.

يشتمل على دراسات لا تـزال لهـا بعض القيمة عن الحملات التى شنها الاسبان والايطاليون والانجليز والفرنسيون على بلاد البربر ·

تلك رزمة من الكتب اخترناها من بين مئات مـن الكتب والمنشـورات التـى تحتـوى علـى مساهمات تختلف قيمة كـل منها عـن الاخرى ، بقصد تقديم نموذج يمثـل الاعمال التى تعـالج مختلف العصـور · وغيرى قد يضيف الـى هذه القائمة او يحذف منها ، ولكننى اعتقد انهـا فى مجوعها تشكل العمود الفقرى لمساهمة المؤرخين والجغرافيين الفرنسيين · وكمـا يلاحظ ، فـان بعض هذه الاعمال يتناول التاريخ العام لشمـال افريقية او للجزائر ، والبعض الآخر يتناول حقبا معينة · ولكن هذه القائمـة لا تشمل الكتب التى تتخصص فى نواحى معينـة ، مثل تـاريخ الفن والحفريات الخ ·· ، كما انها لا تشمل الدراسات التـى ظهـرت فـى الدوريـات وتعـالج مختلف الموضوعات ·

الاسلوب والمنهج

كان المترجمون فى الجيش والادارة (مثل فيـرو ودو بارسيفال) والصحـافيون واشبـاه الصحافيين أول مـن تفتحت اعينهم الى اهميـة تاريخنا وتصدوا للكتابة عنه بمحصولهم العلمى المتواضع فى المراحل الاولى عقب الاحتلال · وقد ترك لنا فيرو ، مثلا ، دراسة لا تخلو من قيمة عن مدن ولاية قسنطينة ، كما وضع دوبارسفال (وهو الذى تولى ترجمة معاهدة تافنا) دراسات منها رسالة عن تاريخ العرب تقع فى جزأين · وقد قام عدد كبير من الصحافيين فى بداية عهد الاحتلال بنشـر استطلاعات ومقـالات عديدة فى الصحف الجزائريـة والفرنسية · ونحن ندين بـالفضل ، مثلا ، لبربروجر (محرر المجلة الافريقية) بالتعرف على موقع اشير والفات نظر علماء الحفريات الى اهمية خرائبها ·

وفى مـرحلـة تـاليـة ، اكتشفت الادارة الفرنسية فى الجزائـر ابعـاد التراث الثقـافى العربى ، ولا سيما ما يتصل منه بالتاريخ ، كما ادركت اهميـة فهم هذا التراث لارساء قـواعد الاستعمـار على اسس متينـة ، فاخذت تشجـع ترجمة بعض الكتب العربية الى الفرنسية · وقـد كان مـن بين الاوائل ومن اكبر العاملين فى هذا الحقل ، المستشرق المعروف ، البارون دوسـلان الذى حقـق القسم الذى يتصل ببلاد البربر مـن كتاب العبر لابن خلدون ونشره فى جزأين ، ثـم وضع ترجمة له الى اللغة الفرنسية (١) · وكذلك نشر دوسلان ايضا كتاب المغرب فى ذكر افريقية والمغرب لابى عبيد البكرى فى فترة تالية وترجمه الى الفرنسية (٢) وفى أواخر القرن كان عدد من امهات الكتب العربية فى التاريخ او من النصوص المقتبسة منها ما يتعلق بالجزائر والمغرب مترجما وتحت تصرف الباحثين ·

وقد كـان المستشرق فانان E. Fagnon الذى تـرجم عددا مهمـا مـن النصوص ، وفـى مقدمتها تـاريخ الموحدين والحفصيين للزركشى (٣) ، والنصوص التى تتعلق بالمغرب فى الكامل

1) نشر النص المحقق مع الهوامش فى سنة 1848 ، ثم ظهرت الترجمة الفرنسية خلال الفترة بين 1852 ـ 1856

2) ظهرت طبعة الجزائر المرفقة بالترجمة فى سنة 1911 ـ 1913

3) قسنطينـــة ، 195

لابن الاثيـر (١) ، والنصوص التى نشرهـا فى مجلد تحت عنوان « نصوص غير منشورة » (٢) ، فضل كبير فى توسيع نشاط الترجمة التى تحسنت الآن واصبحت اكثر دقـة ·

ومع ذلك كله ، فان المؤرخ الجاد ، لم يكن فى استطاعته ان يكتب تاريخ الجزائر فى العصور الاسلامية بالاعتماد على الاعمال المترجمة وحدها، حيث كـانت معظم المصادر لـم تتنـاولها حركـة الترجمة ·

وكذلك ظهرت فى اوائـل القـرن الحـالى مشكلة كان مـن المفروض ان يتعـرف عليهـا المؤرخون منذ البداية وهى : هل المؤرخ ان يكتب عن افريقية فى العصور الوسطى العليا ، اذا لم يكن مستعربا ويملك الوسيلة الضرورية (اللغة) للبحث والتحقيق ؟

وهذه المشكلـة ، نجد رجعيا أنهـا تهمنـا نحن المغاربة بصفة خاصة ، لان التاثير (ان لـم نقل التوجيه) المباشر وغير المباشر الذى تتعرض لـه الدراسات التاريخية من الادارة السياسيـة والاكاديمية والراى العـام الفرنسى والناشرين والمناخ الثقافى بصفة عامة ، تجعلنـا نفقد حتى الحد الادنى مـن الضمانات والمراقبـة العلمية ، متى كان المؤرخ فى حل من الرجوع الى الاصول العربية والاحالة الى مراجعه · واذا كان من بين الباحثين ، مثل جوتيه ، مـن فرض على نفسـه منهجا علميا متشددا يراعى الدقة والامانة ، فان هذه الفئة تشكل اقلية صغيرة ، مع الاسف ·

ومن جهة اخرى · هل يترك تاريخ افريقية الشماليـة فـى العصـور الـوسطى الاسلاميـة للمستعربين دون سواهم – مع العلم بأن تكوين المستشرق يختلف عن تكوين المؤرخ · وهذا فضلا عن أن المستشرق قلما يترك له عمله الذى يتصل بالنصوص ، وقتا لمعالجة المشاكل التاريخية ·

وهكذا كان يبدو وكان المشكلة حلقة مفرغة لا يدرى أحد أين طرفها (٣) ·

على أن هذه المشكلة النظرية وجدت حلها عمليا اذ مضى الكتاب الذين لا يحسنون اللغة العربية ، يكتبون فى التاريخ ، وذلك فى الوقت الذى ظهرت فيـه نخبـة من المؤرخين الذيـن مكنتهم معرفتهم باللغة العربيـة من استقـاء مادتهم من المصادر مباشرة ·

وفى مقدمة هذه الفئة ، بـل وعلى رأسها ، العالم جورج مارسى ، الذى ندين له بأهم ما لدينا مـن الدراسات عن تـاريخ الفن الاسـلامى فى المغرب وبعدد مـن الكتب التى تتنـاول بكل مـا يشرف العالم من الجد والاستقصاء حقبا كانت مغلقة من تاريخنا ·

ولكن التضلع فى اللغة العربيـة والتفرغ لتـاريخ المغرب ، لم يكن دائمـا ، مـع الاسف ، مرادفا للولاء للثقافة العربية ، أو حتى وسيلـة لفهم التاريخ فهما موضوعيا مجردا من الاغراض·

والحـق ان هذا العـالم الذى تجد اعمـاله تقديرا شاملا بين المهتمين بتاريخ المغرب (ومـن

1) الجزائـر ، 1901

2) Extraits inédits relatifs au Maghreb, géographie et Histoire Alger, 1924.

3) عانى جوتيه من هذه المشكلة شخصيا وكرس لها فقرة فى كتابه المذكور حدد فيها موقفه . راجع le passé de l'Afrique du Nord, P. 51.

بينهم بعض علماء المغرب ايضا) ، لا تختلف نظرته الى المغرب ، ولا يختلف تفسيره العام لتاريخ هذه البلاد عن تفسير أجهل الكتاب الفرنسيين بالتاريخ والثقافة المغربية ·

لماذا ؟ أهى العنصرية وحدها ، أم تضاف الى العنصرية أغراض اخرى مثل الرغبة فى كسب الشهرة بين الجماهير والسعى لتسخير العلم لاهداف السياسة الاستعمارية ؟

مهما تكن الدوافع والاسباب ، فان جورج مارسى تجنى بالقلم على ثقافة هذه البلاد وعلى الشعب المغربى ، كما اعتدى عليه غيره بالسيف ، وذلك فى اكثر من موضع فى كتبه · ونحن ناخذ هنا اشهر كتبه واكثرها تدعيما لسمعته العلمية ، وهى اطروحته التى سبقت الاشارة اليها والتى تشتمل على الخطوط العريضة لنظرياته التى تبلورت فى اعماله اللاحقة · فما هو راى الكاتب فى هذا الشعب الذى يصر على تسميته بالبربرى ، ياترى ؟

يقول مارسى : انه « تنقصه الوحدة والاستمرار » ونحن « لا نكتشف فيه شيئا يمكن مقارنته بالمجهود الشاق الواعى (···) الذى يدفع الشعوب الاروبية نحو تحقيق مثال اجتماعى ، أو لتكوين دولة اكبر » (١) ·

ويمضى الكاتب فيقول :

« وبلاد البربر لا يبدو أن فى امكانها التقدم بوسائلها الخاصة ، بل يجب عليها أن تضع نفسها وراء عربة اخرى لتجرها · فان قضاء وقدرا يمنعها من أن تكون الاتابعة أو خاضعة لغيرها · فهى مستودع لقوى لا التحام بينها (وبالتالى) فهى تحتاج الى تلقى النفوذ الموجه من الخارج : من الفنيقيين أو من الرومان ، أو من الشرق أو من اسبانيا » ·

والمؤلف يصطنع الخجل ، فلا يضيف فرنسا الى قائمة مصادر النفوذ المحتملة ، ولكن ذلك مفهوم ضمنيا وبحكم الامر الواقع !

وكانما خشى الا يستخلص قارئه جميع النتائج التى يريد أن يستخلصها من ملاحظاته ، فتكفل هو بالقيام بهذا العمل واردف فى شكل خاتمة يقول :

« وما اشد ردود البربر ضد التقدم الذى يفرض عليهم ! وكم تساوى كلمة « البربر » معناها باللغة اللاتينية (أى الهمج) !

« وفى المعركة الهائلة التى تشنها بلاد البربر على الحضارة ، كم من مرة كان حظ البربر فيها الهزيمة والاندحار ! » (٢) (علامات التعجب مرقومة فى النص الاصلى)

والقارىء الحسن النية سيندهش بدون شك لهذا التهجم الخالى من كل تحفظ فى كتاب علمى وفى موضوع بعيد عن النزاع بين الجزائريين والاستعمار · بل ان البعض قد يتساءل فى براءة :

كيف يجهل هذا الكاتب ان سكان هذه البلاد هم الذين فتحوا الاندلس ومعظم جزر البحر الابيض المتوسط ، وان كتامة (هذه القبيلة البربرية) كانت ارضها منبت الدولة الفاطمية ،

1) راجع المصدر المذكور 1

2) نفس المصدر ، ص 2

G. Marçais, les Arabes en Berberie, P. 1.

وان القبيلة هى التى حملت لواء الدولة لفتح مصر والشام ، وان صنهاجة اقامت دعائم حضارة من اعظم ما شهده البحر الابيض المتوسط وان زناتة اقامت عددا من الدول فى المغرب بدات بدولة عطية بن زيرى ، وان امير المؤمنين يوسف بن تاشفين الذى بسط سلطان المرابطين على المغرب والاندلس ، هو نبتة « اصيلة من تربة هذه الارض ، وان ابن تومرت وعبد المؤمن واضعا اركان دولة الموحدين ، لم يكن لهما ولاجدادهما وطن غير هذ الوطن ، وذلك على الرغم من جميع شجرات النسب المختلفة !

ولكن المشكلة هى ان جورج مارسى ، مثل غيره من العنصريين ، لا يجهل هذه الامور ، بل هو يعرف تفاصيلها كما لا يعرفها الا الخبراء ·

ان المنطق واعتبارات الكرامة تفرض علينا الا ندع ما تنطوى عليه كثير من المساهمات الفرنسية من الاغلاط والانكار المغرض لماضينا يتسرب كالسموم الى عقول الناشئة والمثقفين الذين لم يتسلحوا بالمعرفة وطرق النقد التى تسمح لهم باكتشاف التزييف والتجنى على وطننا ·

ضرورة اعادة التقييم

قد تبدو فكرة اعادة تقييم المساهمة الفرنسية فى تاريخنا فكرة غريبة لاول وهلة · فان الباحثين فى كل بلد يتناولون بالدرس ويكتبون تواريخ جميع البلدان الاخرى ويقعون فى اغلاط ايضا ، دون ان نسمع ان واحدا من هذه البلدان شعر بالحاجة الى تقييم المساهمة الاجنبية فى تاريخه — فضلا عن اعادة تقييم هذه المساهمة · فالهند (وباكستان) التى ظلت تحت الاستعمار البريطانى نيفا وثلاثة ارباع القرن (اقل منا قليلا !) ، لم تقم فيها دعوة لمراجعة التاريخ الذى سجل فى العهد البريطانى والعمل على أسس جديدة لتنمية تاريخها القومى · والهند الصينية وافريقية الغربية وغيرها من المستعمرات السابقة كلها كانت فى وضع مماثل لوضع شمال افريقية·

وقد يقال ايضا ان فكرة اعادة تقييم المساهمة الفرنسية تعبر عن نزعة وطنية ضيقة ، وانها حتى لو وجدت ما يبررها نظريا ، فان تطبيقها عمليا يكاد يكون فى حكم المستحيل ، بسبب ضخامة هذه المساهمة وشمولها ·

ونحن لتوضيح الفكرة ينبغى ان نبين اولا مالا تستهدفه · فهى لا تدعو الى اى تحريم للكتب التى وضعها المؤرخون الفرنسيون عن تاريخ بلادنا · وزيادة على ذلك ، فهى لا تنادى بالاستغناء عن هذه المساهمة وبدء العمل من الصفر لتنمية تاريخنا القومى · واعادة التقييم يعنى ضمنيا الاعتراف بقيمة نسبية لمجهود الباحثين بقدر ما يكون هذا المجهود نزيه الدوافع وبقدر أهمية النتائج التى كشف عنها بالنسبة الينا وفى حدود استجابته لاولويات التنمية الثقافية فى بلدنا ·

واعادة تقييم المساهمة الفرنسية فى تاريخنا عملية تفرضها عدة اعتبارات ، يمكن ان نوجز اهمها فيما يلى :

١ — ان النظام الاشتراكى الذى اختارته الجزائر والذى حطم معظم الاطارات الاجتماعية التقليدية بما فى ذلك نظام الملكية الزراعية ، لا يمكن ان يهمل قطاعا ثقافيا حيويا له اوثق الصلة بشخصيتنا ، ونعنى بذلك تاريخنا القومى· فمما لا ريب فيه ان هذا التاريخ لم يكتب حتى

الآن بالطريقة التى تتلاءم مع هذا التطور ومع النظرة الاشتراكية الى الاشياء • ومجهود اعادة تقييم ما كتب باللغات الاجنبية عن تاريخنا ، مجهود يخرج عن نطاق امكانيات الافراد من الباحثين ، ولذلك فهو يحتاج الى اهتمام قومى يمنح العمل لتخليص هذا القطاع من آثار الاستعمار الثقافى مكانة عالية بين او لويات التنمية الثقافية •

٢ ـ ان الشعوب التى قبلت المساهمة الاجنبية بدون مراجعة هى ، اما شعوب لم يمس استقلالها وكرامتها السياسية ، او هى من الشعوب التى رضيت نهائيا بمبدأ « ازدواج الشخصية » ، ذلك الانحراف الذى يصعب معالجته فى الافراد ، ولكنه اصبح الآن اساسا شائعا للتنمية الثقافية فى عدد من المجتمعات المتطورة • واما الجزائر ، فقد شفيت من هذا الانحراف بفضل الصدمة التى هزت كيانها فى ثورة شاملة • فاذا رضيت شعوب افريقية الغربية والهند ، وخصوصا أمريكا اللاتينية ، بادماج تراثها الثقافى القومى فى تيار الثقافة الغربية ، فذلك لانها قامت بعملية المواءمة والتوفيق الضرورى بين هذين التراثين فى اطار الشخصية المزدوجة • ولكن الجزائر التى اختارت مبدأ « الاصالة الشخصية » ، قد التزمت نحو نفسها ضمنيا بهذا الاختيار ببذل مجهود لفرز جميع العناصر التى ستشكل اساسا لنهضتها الثقافية المقبلة •

٣ ـ ومن هذا الاعتبار ينبثق اعتبار آخر ، فرعى ولكنه مهم ، وهو ان كثيرا من المستعمرات سابقا (والامثلة السابقة صالحة فى هذا السياق) قد اختارت لغة المستعمر السابق لتكون لغتها الوطنية ، بينما أبت الجزائر ، فى هذا المجال ايضا ، الا أن تعود الى اصلها • وانطلاقا من هذا الاختيار ، فان اعادة التقييم عملية يحتمها التحول اللغوى نفسه •

٤ ـ جرى المؤرخون الغربيون على تنسيق حوادث تاريخ المغرب خارج السياق الثقافى الاسلامى التقليدى ، بحيث يكون التاريخ المعروض قريبا من نمط التاريخ الدنيوى الذى الفه القارىء الاروبى • وهذا المنهج ، اذا كان لا يخلو من بعض المزايا من حيث الشكل ، فهو فى الحقيقة يضع عقبة فى طريق فهم الاتجاه العام للتاريخ ، حيث يسلخ الحوادث من مناخ الثقافة الاسلامية ويعزلها عن الجو الفكرى الذى جرت فيه • فان القارىء الاروبى ، مثلا ، يفهم ان انطلاق بنى هلال لغزو المغرب ، كان سببه قرارا سياسيا اتخذه المعز بن باديس بالاستقلال بالمغرب عن الخليفة الفاطمى • وهذا صحيح من الناحية الشكلية (وخروج امير تابع عن طاعة ملك من الاحداث الشائعة فى التاريخ الاروبى وغيره) • ولكن هذا التعليل غير كاف لفهم صلب المشكلة وابعادها ، حيث ان السبب الحقيقى لهذا الحدث الذى كان من نتائجه تخريب الحضارة الزيرية ، هو تحول المغاربة عن عقيدة الشيعة التى فرضت عليهم فرضا ، الى مذهب أهل السنة ، حينما وثقوا من زوال نفوذ الفاطميين ، وشاع أن الملك نفسه كان على مذهب أهل السنة (سرا) •

كيف يستطيع المؤرخ الاروبى ان يقدم هذا التعليل ، لدى عرضه لهذا الحادث ، دون أن يحتاج الى بحث خاص للتعريف بمذهب السنة وعقيدة الشيعة ؟

وخلاصة القول ، ان العودة بتاريخنا الى مناخ التقاليد الثقافية الاسلامية ، يجب أن يكون من الاهداف الاساسية التى نتوخاها وراء مجهود اعادة تقييم المساهمة الغربية عموما والمساهمة الفرنسية ، خصوصا •

موقف المؤرخين الأجانب من
تاريخ المغرب العربي

ادار الندوة
عثمان شبوب

اود أولا ان أشكر الاساتذة الافاضل الذين لبوا دعوتنا وساهموا معنا فى هذه الندوة التى تطرق موضوعا على غاية من الاهمية بالنسبة لتاريخنا ، وهو موقف المؤرخين الاجانب من تاريخ المغرب العربى ، واضع أمامكم للنقاش ثلاثة مسائل يدلى فيها كل واحد منكم برأيه ثم نجرى المناقشة ان كان هناك ما يستوجب ذلك ٠ وفيما يلى هذه المسائل :

1 ـ كيف نشأ الاهتمام عند المؤرخين الاوروبيين بتاريخ المغرب العربى ؟

2 ـ ما هى العوامل الاجتماعية والسياسية والثقافية التى انطلقوا ومارسوا فيها كتاباتهم ·

3 ـ ما هى الجوانب الايجابية او السلبية فى هذه الكتابات ؟

4 ـ ما هو المنهج الذى ينبغى اتباعه فى اعادة كتابة تاريخنا من جديد ؟

الاستاذ مصطفى زبيس ··· متفقد الآثار بتونس ·

نشأت فكرة التاريخ لدول المغرب العربى عند المؤرخين الاجانب غالبا لظروف سياسية ولخدمة سياسة معينة ، أى السياسة الاستعمارية · ولا يمكن ان نفرق بين من اخذ منهاجا موضوعيا وغيرهم ، لان العمل كان متجها الى تدعيم السياسة مهما كان الشخص الذى تعاطى هذه المهنة ، ففى ميدان الآثار بالخصوص كانت النزعة الاصلية التى وجهت جميع المجهودات هى ان هذه البلاد كانت بلادا تشبعت بالحضارة الرومانية ، ثم انقلبت عند مجىء العرب الى تحطيم هذه الحضارة الرومانية وغالبا لم يكن رأيهم الا المرور مرورا عابرا على هذه الفترة الطويلة ، وكان رأيهم الاستنتاج وراء الاستكشافات التى عثروا عليها بعد التنقيب والبحث لاثارة أولى الامر من المستعمرين لتعاطى السياسة المعينة ، فمثلا اذا نظرنا الى الفسيفساء ، يقول هؤلاء ان الفسيفساء ازدهرت فى هذه البلاد ايام الرومان وبعدهم ، لانهم يحكمون على أنها انقطعت عند مجىء العرب وهذا غلط من الناحية المنطقية ، أولا وغلط من ناحية الواقع ·

من الناحية المنطقية هذا لان اصحاب الصناعة ـ الفسيفساء ـ كانوا من الاهل من سكان البلاد الذين كانوا فى انعزال سياسى ، فكانوا يعملون لهؤلاء وهؤلاء لاغراض مالية وعيشية لكسب عيشهم ، فعندما تتبدل الاوضاع السياسية فالمعمل او المصنع الذى كان يصنع فيه الفسيفساء او غيره كان دائما اعماله متواصلة واصحابه فى مبانيهم ، وكان الصانع يتعاقب مع صناع آخرين من ابنائه ومن الآخرين المتواردين بعده ، ولم يكن هناك سبب لانقطاع هذه الصناعة من جراء تبديل الوضع السياسى ، من الناحية الواقعية نجد فى كثير من الاماكن قطع من الفسيفساء ازدهرت ايام العرب وتمادت الى مدة طويلة فقد وجدنا فى المهدية قاعة من قاعات القصور الفاطمية او الصنهاجية يعنى القرن 4 و 5 هـ وجدنا هذه الفسيفساء فى مكانها وعلى مساحة جيدة ولا يمكن ان تكون من آثار الرومان او البيزنطيين ، وفى رقادة وهى مدينة انشأها الاغالبة فى القرن 3 هـ ، هناك قاعة من الفسيفساء وهناك امكنة استعملت فيها فسيفساء جلبت من امكنة اخرى ، هذا ربما تضطرب من أجله الافكار الا أن القاعة التى هى ما زالت موجودة تدل على أن هذه الفسيفساء استمرت بعد الرومان وبعد البيزنطيين ، وقد عثرنا على أناس كانوا يبحثون هنا فى تونس فى 1947 ، 1948 فى ناحية جبل مروج فى ضيعة من

ضيعات اصدقائي فوجد الباحث الاثري في هذا المكان وكان مبدئيا قرر ان هــذا المكان انما هو مكان لا يمكن ان يكون فيه الا الآثار الرومانية ، واذا به فوجيء بالعثـور على كميــات من النقود الاغلبية ، فما جعل هذا بدل ان يضم هــذا الى مستكشفاته ، اخذ هذه الكمية ووضعها جانبــا حتى تبعد عن أصل البحث ، فمثل هذه الاعمال انما تؤدي الى قلب الحقائق والى البعد من الحقيقة الموضوعية المجردة في البحث ، ومثل هذه الحالات كانت موجودة منذ ان تدخل الباحثون في هــذه البلاد اما للبحث عن الآثار وأما للبحث عن التاريخ .والى جانب هذا توجد النزعة من طرف العسكريين والسياسيين ورجال الدين ، هــذه النزعة كانت تهدف الى جعل هذه البلاد دائما وأبدا بلادا منجرة عن لاتينية والحضارة الرومانية بصورة عامــة ، هــذا كان مبدؤهم ، وعلى هــذه الاسس كانوا يعملون وكانوا يبحثون كأنهم يقدمون النتيجــة على البحث ، وكان البحث يستمر في تدعيم وجهات هذه النظرة العنصرية ، واذا وجد من بين هــؤلاء من ينازع هذا المبدأ او من يناصر الحــق فكانت هناك هيئات عظيمة تحطمه ، ولعلكم تتذكــرون وانه في سنة 1940 او 1942 كان هناك أب يقــال له الاب بيريه فالف كتابا عن الحضارة الاسلامية وانتشارها في العالم الغربي وكان بحثه ممجــدا من أوله لآخره لهذا المبدأ ، ولكن لا يمكن لاحــد ان يجد هذا الكتاب ،فقد غمر ، وفقد منذ صدوره، ولم أعثر عن هذا الكتاب الا في نص تحليــلي في مجلة من المجلات ، فهذه النزعة لم تكن ألا نزعــة أصيلة متماشية مع السياسة التي كانت هناك ، ولهذا كثيرا من هؤلاء الباحثين - على انهم عملــوا عملا طيبا ومستفيضا في نشر كثير من المعلومات وكثير من المصادر ، فلا نحكم على هؤلاء بالبطلان التام ، فهناك من الكتب ما يفيدنا الا اننا معشر الجيل الحاضر لابد ان نعيد النظر في هذه الكتب وفي هذه النظريات وينفي ما يمكن الغاؤه ونزيل ما هو باطل ومخالف للحقائق التاريخية وتاريخنا بالخصوص .

الدكتور محمد طالبي - استاذ بكلية الآداب - جامعة تونس :

كيف نشأ اعتناء الغربيين بالتاريخ الاسلامي ، يرجع ذلك الى قرون بعيدة جدا ، وهذا الاعتناء في الحقيقة لم ينقطع أبدا طوال العصور بالنســبة للغربيين فيما يخص الامم الاخرى لان الاتصـــال بين المسيحية والاسلام كان متواصلا منذ الفتــح الاسلامي الى يومنا هذا ، فريمو جولو الاســباني الشهير كان قام بتنشئة أولاد الاموين ، ويمكن ان أضرب امثلة عديدة ، اذن كان الاتصال دائما وأبدا موجودا بين الاسلام والمسيحية التي أصبحت فيما بعد العالم الغربي ، لكن نشأت حركة جديدة في هذا الميدان يرجع ذلك فيما أظن الى القــرن السابع عشر عندما اخذ الغرب يشعر بقـوته من ناحية وبضعف الطرف المقابل - الاسلامي - من الناحية الاخــرى ، فالغرب قد اكتشف ضعف العالم الاسلامي في القرن الســابع عشر فانقلبت الاوضاع والصلات التي كانت موجــودة والتي كانت صــلات تبـادل وتعارف اصبحت صــلات

دراسة من طرف الاخصاصيين لحضارة عدوها قد انقرضت أو اخذت فى التلاشى . هذا الموقف ادخل اختلافا فى النظر ، فالغربيون اخذوا شيئا فشيئا يشعرون لا بقوتهم المادية فقط ، بل أيضا بقوتهم الفكرية وصادف ذلك القرن الثامن عشر نشوء فكرة الرقى والنور والتقدم والتطلع الى الحضارات الآفلة فاعتنى بعض علماء الغرب فيما اعتنوا به من جملة المواد بما سموه بالشرق . وهذا الشرق يمتد من اليابان الى البلاد الاسلامية ، ونشأت بأتم معنى الكلمة مدارس الاستشراق فى كامل البلاد الغربية واسست المؤسسات واصدرت الاموال لذلك واسست المكتبات واخذوا يعتنون بالحضارة الاسلامية من جملة الحضارات التى هى جديرة بالاعتناء والاهتمام ، فاعتناؤهم اذن بهذه الحضارة ناشىء عن فكرة علمية عن تقدم علمى اخذ يخرج بالعلماء من نطاقهم القومى الضيق الى نطاق عالمى ، هكذا اذن نشأ الاعتناء ، ونجد من بين هؤلاء المستشرقين من بذل الجهود الجبارة لاكتشاف كثير من البحوث العربية التى غفلها اصحابها فاخذوها بالنشر وبالبحث والقواعد مؤلفات فيما يخص كامل مظاهر الحضارة الاسلامية . ثم كان القرن التاسع عشر وصادف ذلك القرن التوسع الغربى بالقوة طبعا وبالعنف فى كثير من الاحيان الى خارج حدوده ، فقسمت الاراضى بين أمم كانت تحتل الركب التاريخى كما لفرنسا وكانت تمتاز بقوة مادية وفكرية واحتل كل فريق المنطقة التى اعدت له بعد المقاسمة الشهيرة فى برلين سنة 702 أو 1872 ، طبعا هناك أناس كانوا قد اعدوا العدة من قبل وكونوا مدارس الاستشراق ، ثم وجدوا أنفسهم فى صلب الاقطار التى كانوا قد افردوها بعنايتهم ، فهذا الوضع التاريخى الجديد كان حافزا لهم ومنشطا للتنقيب بأكثر جدية واهتمام ، فاعتنوا بجغرافية بلاد مختلفة وحيوانها ونباتها واقتصادها واجتماعها ، وبتاريخها ، فاخذوا يكتبون تاريخ هذه البلاد . كل مؤرخ مهما كانت أرادته كى يصل الى الموضوعية يستحيل عليه ان يتخلص تماما من الملابسات الزمنية والاوضاع الاجتماعية التى يعيش فيها ،فالغربيون كانوا يشعرون بحكم قوتهم وحضارتهم يتفوق كبير بالنسبة لاهالى البلاد المحتلة . طبعا فى هذه الصورة كان يعسر عليهم ان لا ينظروا الى هذا التاريخ نظرة تحليلية تمكن من تفسير الوضع الذى عليه هذه الامم المتخفلة على ضوء تاريخها . تلك هى المشكلة ، هم أرادوا ان يعللوا الوضع التخلفى الراهن بحكم تطور تاريخ هذه الامم قرأوا فى ذلك التاريخ تاريخا يؤدى الى التخلف ، فكانت هذه النظرة من هذه الزاوية تؤدى الى قراءة للنصوص لا تتفق وما اصبح عليه التاريخ اليوم ، لكن تلك القراءة فى عصرهم وفى ظروفهم وفى حياتهم كان من العسير جدا ان يتخلصوا منها ، والتاريخ دائما يجب ان يقرأ من جديد حسب الملابسات والظروف . لان التاريخ شعرا كان تأويلا واسئلة تلقى على الماضى ، فهذه الاسئلة التى تلقى على الماضى يجب ان تلقى بها اجوبة لما يخامر نفوسنا اليوم ، لذا يجب ان يكتب التاريخ دائما ونحن نحاول اليوم بفضل ما اكتسبنا من

تجربة فى الماضى ان نكون اكثر موضوعية ممن تقدم او لعل مهما بلغت جهودنا ومهما بذلنا من عناية فى هذا الصدد . حكم المؤرخين فى المستقبل لعله لا يكون أقل شدة من حكمنا اليوم على من سبقونا ، اذن يحسن بنا عندما ننظر الى هذه الامور ان لا ندخل فى قراءة تاريخيه مدحية لماضينا لاننا اليوم نشعر بالنقص فنحاول ان نتلافى ذلك النقص بأن ننظر الى مرآة مجد نعتبره صافيا عظيما خالصا ،ونحرف‌هذا التاريخ تحريفا يجد السبب فيه أهواءنا اليوم كما فعل القدامى الذين حرفوه لاسباب ناتجة عن ملابسات‌وضعف، نحن هذا القيد نخشى ان نحرف تاريخنا أيضا اعتمادا على ملابساتنا فنكتب تاريخا مدحيا ، وهذا نجده فى كثير من الكتب فهى فاسدة تماما لانها تمجيد اكثر منها تثبت واعتناء ، اذن يجب علينا عندما ننظر الى هذا المشكل ، كيف كتب تاريخنا من طرف غيرنا وماذا يجب علينا ان نفعل فى تاريخنا ، يحسن بنا ان نقف موقف الاعتدال‌بدون تهجم على من سبقنا مهما كانت ظروفه وملابساته. وبدون ايضا سذاجة تجعلنا نؤمن بما كتبه كل غربى لان نكسب عليه هذا التقليص ، وفى نفس الوقت يحسن بنا ايضا ان نقاوم فينا النزعة المدحية بتحليلها بصفة علمية فنخرج من المازق ونخطو خطوة اخرى‌فى طريق‌الموضوعية التاريخية حتى نصبح فى يوم من الايام نؤمن بأن التاريخ علم بأتم معنى الكلمة ، لا علم الدولة التونسية او الفرنسية او الروسية ، بل يجب ان يكون علما بشريا ، الذى يريد لنا سر هذه البشرية كيف مرت بمراحل عسيرة هائلة خطيرة شاقه وهى تسير الى الامام لان سنة الله ان تسير البشرية الى الامام كى يتم الخلق لان الخلق مستمر والكائن البشرى جعله الله متطورا وجعله يسير الى اكثر انسانية ، كى نصل اذن الى هذا يحسن بنا ان ننظر الى التاريخ نظرة علمية‌وان نضع دائما وأبدا الامور فى مستواها العالمى كى نخرج من التحزب الى شق دون شق والى التأويل العاطفى الذى يبعدنا عن العلم ٠

عثمان شبوب ـ أريد ان اسأل الاستاذ طالبى سؤالين : السؤال الاول : ما رأيه فى بعض المناهج التى استعملها المؤرخون الاوروبيون فى دراستهم لهذه المنطقة من المغرب العربى ، المنهج الاتنوغرافى مثلا ٠ والسؤال الثانى هل تتفقون مع الذين يقولون بان المنهج الماركسى هو أفضل منهج لاعطائنا تفسيرات دقيقة عن احداثنا التاريخية ٠

د٠ محمد الطالبى : الاتنوغرافى علم منفصل ليس بالتاريخ ، لان الاتنوغرافية تهتم بالعادات‌والاوضاع التى عليها‌مجتمع من المجتمعات فى يومه الحاضر ، فاذن تصور الحياة الحاضرة فى أشكالها الاجتماعية وفى عاداتها ٠ وتقاليدها الخاصة ، والتاريخ يهتم بالماضى ، فهما اذن علمان مستقلان ، لكن الاتنوغرافيا قد تكون بالنسبة للمؤرخ من العلوم المساعدة كالآثار او غير ذلك من العلوم ، فالاوروبيون طبعا قد اهتموا اهتماما كبيرا بالاتنوغرافية وذلك امر طبيعى بالنسبة لهم لانهم قد وجدوا انفسهم فى بلاد جديدة وعوالم هامة يتعرف عليها ، أما لاسباب علمية ٠٠٠ أو

لاسباب عملية لان هذا التعرف يعينهم على حسن سياسة تلك البلاد كيف يعاملون الناس ، كيف يجب ان يتفهموا عقول الناس حتى يحسنوا التصرف معهم باثارة أقل ما يمكن من المشاكل والقلق ، وحتى طبعا يتمكنوا من استثمار البلاد لصالحهم . عندما يحتلون بلدا من الطبيعى ان يحاولوا استثمار مجهوداتهم التى مكنتهم من الاستيلاء على مقاطعة من المقاطعات فالاتنوغرافية اذن بالنسبة اليهم علم هام جدا لانه علم ككل العلوم يمكن فيما بعد ان يبحث فى مقارنة عادات هذه المدينة وهذه المدينة ، والعيوب الاجتماعية والاخلاقية واللسانية وغيرها ، وعندما نجمع الملاحظات الاتنوغرافية لبلاد العالم فان يمكن فيما بعد ان نستنبط بعض القوانين العامة التى تتصل بالبشرية وفيما يخص أيضا الحضارة ، اذن هو علم مستقل اعتنوا به كثيرا لاسباب نظرية ولاسباب عملية ونحن اليوم فى كثير من الاحيان ندين لهم بالفضل الكبير فى هذا لان كنا نحس بمركب النقص الذى زرع فينا من تخلفنا ننقم نقمة كبرى على عاداتنا وتقاليدنا ولا نريد ان ننظر فيها ولا نريد ان نسجلها للتاريخ ، فمن بين بنى وطن المغرب كتب فى عاداتنا وتقاليدنا منذ قرن أو نصف قرن منا اعتنى بالبربر وعاش اوساطهم وصوروهم للعظمة . نحن لا نفعل ذلك ، فالغربيون اذن دبجونا بهذه الصفة بمجموعة من الوثائق الهامة التى اصبحت تاريخا ، فالمؤرخ اليوم عندما ينظر فى تاريخ القرن العشرين او التاسع عشر سوف يجد مجموعة من الوثائق حرر ودبج بفضل مجهودات هؤلاء الاجانب الذين عندما فتحوا البلاد وجهوا عنايتهم الى مختلف أوجه الحياة فى هذه البلاد .

السؤال الثانى : هذه الايام اصبحت من الوسائل التى تعاد وتكرر ، أى هل يكتب التاريخ كتابة ماركسية وما هى قيمة هذه الكتابة ؟

أظن ان الحرب بين الطرق التقليدية لكتابة التاريخ والطرق الماركسية بدأت تضع اوزارها فاليوم اصبحنا وكل ذى عقل يؤمن بذلك ان ماركس اتى بأشياء هامة وفتحت فى ميدان التاريخ بفضل الآراء التى ابداها ووجه البحث الى نواحى لم يكن الاعتناء بها كثيرا ، وكل منا اليوم مقتنع بتلك الفكرة الماكسية ، من ان عنصر التاريخ أو ان محور من محاور التاريخ هذا المحور الذى له دور هام الى جانب المحاور الاخرى هو المحور الاقتصادى ، هذا لا يشك فيه اثنان ولا يتناطح فيه عنزان ، الآن أصبح الامر واضحا جليا ، اهتمام مثلا ماركس بقراءة النصوص تجعلنا احيانا نرى فيها حركة جدلية تدفع البشرية الى الامام . كل مؤرخ اليوم يؤمن بأن هذه القراءة ان لم تكن الوحيدة فهى مفيدة جدا لانها قد تفسر كثيرا من الاشياء لولاها لتبقى غامضة ، فاذن ماركس اليوم قد قبل بصدر رحب من كل علماء التاريخ .المشكل الوحيد هو ان هناك من المؤرخين الذين يريدون ان يجعلوا من كتاب ماركس قرآنا وان ينظروا اليه نظره تعصبية تتنافى والمبنى الماركسى نفسه ، لان ماركس كان ثوريا على الاساليب التى تقاومه، فاذا أردنا نحن ان نقلده تقليدا ديناميكيا حركيا

يجب ان نقلده بأثمن شيء علمنا اياه هذا الرجل ، هى النظرة النقدية وعدم التبعية ، لم يكن متبعا ولذلك انشأ نظريته ، فاذا نحن تبعناه بما يؤدى الى الجمود والتبعية فقد خنا رسالة ماركس خيانة كبرى . وهذا ما فعله كثيرون ، فأصبحوا يحرفون تاريخهم تحريفا بليغا لانهم أرادوا ان يقصدوا من التاريخ محاور أخرى توجههم كالمحاور النفسية ، ونحن نعرف ان فى كثير من الاحيان الحركات العاطفية كان لها دور هام جدا فى توجيه التاريخ فبقطع النظر عن الحركات الاقتصادية ، ثم ايضا يجب ان لا نؤمن بالتحليل الماركسى الاقتصادى الى حد ان نجهل او نتجاهل قيمة عمل الفرد ،فمن منا مثلا يستطيع ان يعتبر ان تاريخ قرطاج كان يكون هو نفس التاريخ بعدم وجود هانيبال ، هذا من المستحيل ، أو تاريخ المانيا فى الفترة الاخيرة هل كان يكون نفس التاريخ لاسباب اقتصادية او غير ذلك ، اذن لو حذفنا هتلر وما اصيب به من أمراض عقلية . اذن هذا التطرف فى كتابة التاريخ على مذهب وحيد هو الذى يجرنا دائما وأبدا الى الانحراف ، اذن يحسن بالمؤرخ ان يكون دائما وأبدا انسانا حرا . يجب ان يتحرر من أهوائه وعاطفته وان يقاوم فى نفسه نزعاته ، ويجب ان يتحرر ايضا من الضغوط الخارجية من ملابسات وأوضاع وحالات سياسية واقتصادية ، ويجب ان يتحرر ايضا من المفكرين الذين قد يوجهوه توجيها غير طيب ، اذن يجب التحرر والتفتح لان يعسر عليه ان يكتب التاريخ وهو يجهل ما قاله المؤرخون والعلماء من قبل ، فهى اذن حياة عسيرة جدا حياة المؤرخ لانه يجب ان يكون جماعا لعلوم شتى ويجب ان يكون ايضا محللا لنفسه ومحللا لوضعه ومتفتحا على كل التيارات والافكار وفى نفس الوقت متحررا من كل التيارات والافكار .

عثمان شبوب : أنا أود من الاساتذة الآخرين ان يناقشوا جميع هذه الافكار المنهجية وغيرها . وأود ان أوضح ان الاتنوغرافيا وهو منهج داخل فى نطاق علم الاجتماع كما هو معروف ، لكن كثير من المؤرخين بنوا على هذا المنهج كثيرا من الاستنتاجات العنصرية الاستعمارية .

الدكتور التميمى : اجابتى عن السؤال متى بدأ اهتمام المؤرخين الاوروبيين بالتاريخ المغربى وكيف ؟ ان شاركت الاستاذ محمد طالبى فيما قاله حول اهتمام الاستشراق فى العالم العربى والاسلامى والبحر المتوسط ، لا أشاركه بأن اهتمامهم بتاريخ المغرب العربى قد ساير هذا الأهتمام فى نفس الوقت ، ذلك ان اهتمامهم بتاريخ المغرب العربى قد ظهر اخيرا فى القرن 19 اما اهتمامهم قبل هذا الوقت فقد كان مقتصرا على ارسال بعض الرحالين لمعرفة عادات وتقاليد والظروف المناخية التى يعيش فيها المغرب العربى، وعندنا عدد كثير من الرحالة الاوروبيين الذين تركوا لنا انطباعات ، غير اننا لا نعرف اى عمل تاريخى كتب عن تاريخ المغرب العربى قبل 1830 وذلك تاريخ احتلال المستعمر الفرنسى للجزائر ويمكن اعتباره نقطة التحول باهتمام المؤرخين وخاصة الفرنسيين بتاريخ مغربنا ، ذلك ان

احتلالهم الجزائر جعلهم فى وضعية جديدة امام شعب جديد ومعطيات جديدة ودين جديد وانظمة جديدة ، هذه الفترة وهذا التاريخ بالذات 1830 قد جعل المسؤولين الفرنسيين يعجلون بارسال الفرنسيين الى البلاد العربية ويلحون على معرفة اللغة العربية وبالتالى الى معرفة الشعب الجزائرى، من هو هذا الشعب ؟ وفعلا تعددت بعثات الفرنسيين وأذكر دوسلان كان أول احتكاكه — وهو اكبر المستشرقين — فى الجزائر قبل ان يحتك بأى شعب آخر ، وجاند روجر ودوفكس وكثيرا من الفرنسيين الذين شعروا ان نواشدهم هو التعرف على الشعب الجزائرى ومعرفة معطيات الشعب ، هذا بطبيعة الحال تفوقهم الاقتصادى والثقافى جعلهم ينظرون ويقللون من أهمية الشعب المغربى وتاريخ الشعب المغربى وهذا يعلل اهتمامهم بفترات دون أخرى وتركيزهم بالبحث على شخصيات دون أخرى ، هادفين بذلك مباشرة تفكيرهم ومخططاتهم التى تهدف بالدرجة الاولى الى جعل الشعوب المغربية يشعرون بدور التقليل من شأنهم وعدم اظهار مميزات التاريخ المغربى اذكر بذلك اهتمامهم بالتاريخ ما قبل الفتح العربى كان بالغا اذا ما قارناه بالتاريخ العثمانى فى شمال افريقيا . وتعتبر فعرة مظلمة والفرنسيين لم يهتموا بها وقد كانوا يؤكدون على ان هذه الفترة فترة مظلمة وحكام قساة وجور . هذا بقطع النظر عن اسباب اخرى ، معناه حديثهم هدفه هو افساد • والطابع الفرنسى طابع عدالة وطابع انقاذ للشعب المغربى من محيط التخلف العقلى الذى هو فيه •

السؤال الثانى كيف كتب هذا التاريخ ، بطبيعة الحال كتب من وجهة نظر معينة معتمدين على معطيات معينة ان وجد بعض المستشرقين الذين درسوا التاريخ الوسيط وكانوا يعرفون العربية ، فانه لا يوجد حسب علمى فى القرن الماضى من اهتم بالتاريخ المغربى يعرف العربية الا القليل جدا منهم • وعلى هذا الاساس فان التاريخ المغربى الذى كتب فى القرن الماضى لا يجب اعتباره تاريخا فنيا ، ويجب تنقيته وتصحيحه ، هذا باختصار حتى افسح المجال لبقية الزملاء •

الاستاذ محمد فنطر — استاذ بكلية الآداب — قسم التاريخ : فى الحقيقة عندما ننظر الى سؤال اهتمام المؤرخين الغربيين واخص منهم المؤرخين الفرنسيين ، فيما يتعلق مثلا بالدور القديم قبل احتلال ••••

نرى ان امثال جورج غوتيه او جلير شارل بيكات ، بما انهم قرأوا التاريخ او حاولوا قراءته لاهداف معينة كانت لهم أهداف ويصرحون بها فى صريح العبارة . فعند ما نقرأ مثلا كاتوبينوف يقول فى مقدمة كتابه المتعلق بالمغرب : « انه يحاول ان ينظر فيما كان عليه المغرب فى عهد الرومان حتى يستنتج ما يساعده على ارساء الحماية أو الاحتلال الفرنسى فيقول انه لاحظ ان الحضارة الرومانية اينعت بالبلاد ويعتبرون ان الافارقة اقبلوا على هذه الحضارة وتبنوها وساعدوا على اثرائها ، اذن يعتبرون ان الاحتلال الرومانى كان ناجحا ، فاطلاعهم على تاريخ البلاد يهدف الى مد السلطة الفرنسية بوسائل تساعدهم على ارساء

الاحتلال الفرنسي وتساعدهم على التقرب من العنصر الوطني حتى يصبح متحمسا للحضور الفرنسي وللحضارة الفرنسية والى غير ذلك ، وهناك نظرة أخرى هي انهم يريدون تعليل او تبرير الحضور الفرنسي ، هنا فيه شيء لازما من واجبات الحضارة أن يكون الغربيون والفرنسيون بالذات في هذه البقعة ، لماذا ؟ يقولون ان هؤلاء الافارقة البرابرة هم عاجزون بطبعهم عن ادارة شؤونهم بأنفسهم ، فلابد ان يكون خارجي يأتي ليستتب الامن ويتمكن من ادارة هذه البقاع ، ونرى ان من كتب في التاريخ المغربي ينظرون الى الحضارات التي تعاقبت على البلاد دون ان يفرزوا مساهمة المغاربة في تلك الحضارات . فيقولون : الفنيقيون ، الرومان ، العرب الى غير ذلك لكن دائما البلاد لا وجود لها ، وهذا ما يدفعهم للقول جاء الفينقيون ، جاء الوندال ، جاء البيزنطيون جاء العرب ، ولا وجود لسكان البلاد ، بل الحضارة لا تثبت وتظهر الا اذا كان أجنبي موجود في البلاد ، كل التاريخ يكاد يكون مركز على هذه النظرة وربما في شيء من اليأس ما زلنا للآن ندرس تاريخنا بهذه النظرة ، في كتب تقدم الى الطلاب والتلاميذ والاطفال تقدم لهم هذه النظرة . عطاء ، فقر ، هاتان الفكرتان هما جعلا بصفة عامة هناك ربما بعض الاشياء لا تدخل في هذا النطاق ، لكن في غالب الامر الدراسات ، هاتان الفكرتان هما الموجودتان ، حتى شارل اندرى جوليان الذى نعتبره او نغالى بسخاء اراءه هو لم يتخط هذه الفكرة وهو يقول ان الافارقة لا يستطيعون ان يديروا انفسهم بأنفسهم.

ثم هناك حاجة اخرى خاصة بالتاريخ القديم ، الفرنسيون لما درسوا التاريخ قالوا — موش كور الذى كان يمضى بعض مقالاته بكلمة رد بالك — يقول موشى كور : عندما اضع اذنى على الارض استمع الى رنين خطوات جنود اجدادنا الرومان . فاذن قرأوا التاريخ الرومانى باعتباره حضور آثار اجدادهم في هذه الديار ، ويقول موشى كور : نحن لسنا أجانب في هذه البلاد ، بل العرب هم الاجانب ، هذا يقوله بصريح العبارة وهذه الافكار سيطرت من غير شك كما قال الاستاذ طالبى بصفة شعورية او غير شعورية وكانوا غير قادرين على التخلص من تلك الملابسات والجو الذى كان يعيش فيه ، وكلنا مجبورون على أن نتحمل بصفة ما المحيط وما في المحيط من ظروف سياسية واجتماعية الى غير ذلك . هذا هو الشيء هذا هو النبراس الذى على ضوئه درسوا تاريخنا في القديم والوسيط والمعاصر .

بقى كيف نحن نقرأ التاريخ : نحن نقرأ التاريخ بالتخلص من كل ما يجعلنا نزيف التاريخ ، لا ينبغى أن نمجد ولا ينبغى أيضا ان تكون لنا مركبات نقص أو غرور تكون خطرا على الحقيقة التاريخية . فان هؤلاء رغم نظرتهم الخاطئة ويمكن أن نقول الملتزمة (لانه كان تاريخا ملتزما) ينبغى أن نؤمن بأن المنهاج ، لا شك أنهم بلغوا مستوى علميا لا بأس به ينبغى ان نتحلى به ونأخذه ، هذا المستوى العلمى يمكن أن نقوله في جميع الوثائق وتكوين الملفات لحل القضايا التاريخية ، ففى مستوى التحقيق — لان المؤرخ يمكن ان نقارنه

بقاضي التحقيق ـ ففي جمع الوثائق وطـــريقة الاستنطاق ينبغي ان ناخذ بطرق علمية عالمية لا يمكن ان نقتصر بها نحن دون غيرنا ، لـــكن في مستوى استنطاق الوثائق ، المرحلة الثانية ، لا شك اننا نحن أدرى بشعابنا كما قال سقراط : « أعرف نفسك » نحـــن أقرب الناس لان نعرف أنفسنا ، فاذا دخلنا الى أنفسنا وتعرفنا على أنفسنا أمكننا ان نقترب اكثر من غيرنا الى الحقيقة التى عشناها سواء بأنفسنا أو بالاستمرار من الــذين سبقونا والذين ما زلنا نحمل آثارهم على كتفينا .

الحبيب الجنجحاني ـ كليــة الآداب ـ تونس : شخصيا في الحقيقة انني أعتقد ان الزملاء الذين سبقوني قد عالجوا الموضوع من زوايا مختــلفة ، وهنالك اجـــابة طبـــعا من الطبيعي ان تختلف باختلاف النظرة الى هذه القضـــايا ، ولذا أنا شخصيا لي ملاحظتان خاصة بما استمعت اليه من الزملاء ، الاولى لا شك أنا نحن نفرق كما قيـــل سلفا بين الاتصالات القديمة بين الاسلام والمسيحية وقد كانت صـــلات تعارف وتبـــادل قبل العهد الاستعماري ، ولكن كما أشير أيضا تغير طابعها تغـــيرا كبـــيرا بعـــد نهاية العهـــد الاستعماري وهـــذا مـــن الطبيعي لان هـــذه العـــلاقـــات ليست علاقات التعامل الند للنـــد ، بل علاقات هيمنة ، يعنى سيطرة جديدة على شعوب مستعمرة ومسيطرة عليها ، فمن الطبيعـــي ان تتغير طبيعة هذه العلاقات ، ونتيجة تغير طبيعة هذه العلاقات نلاحظ بروز فئتين من المستشرقين والباحثين في شـــؤون المغـــرب العـــربي والعـــالـــم العـــربي بصفة عامة ، هنالك فئة بحكم الاتصال بالشرق وربما هي امتداد لتقاليد من القرون الوسطى منذ العلاقات بين الاسلام والمسيحية هذه الفئة اهتمت بالدراسات الشرقية واللغويات وكانت بعيـــدة والاستعمار سهل لها الاتصال والزيارات ولكنها بقيت في ميدان الاختصاص الضـــيق ، والفئة الثانية واعتقد أنها لعبت الدور الاكمل على الاقـــل في مرحلة معينة هي فئة المستشرقين الذين دخلوا ميدان الاستشراق عن طـــريق خـــدمة الادارة الاستعمارية في بلدان المغرب العربي والعـــالم العربي ، مثلا .. وقد أشرت في الكلمة وهذا ليس سرا من أن موتلنسكي نفسه يقول بأنه كان مترجما عسكريا في بني ميزاب ، عن طريق خدمته للادارة الاستعمارية في هذه المنطقة اصبح يهتم بالحركات الاباضية وببني ميزاب وأصحاب هذا المذهب .. الخ يعني كاتب آخر وهو من كبار المعروفين في حياة تاريخ المغرب العربي ، ولكن لا ننسى انه بدأ حياته موظفا اداريا في المغرب ، جاك بيرك نفسه وربما هذا يفسر لنا التحـــول في مواقف هؤلاء المستشرقين من قضايا هذه البلدان ، لان البعض منهم نرى كتاباته قبل 20 أو 25 سنة كتبوا أشياء ومواقف معينة ، وكتبوا اشياء بعد استقلال بلاد المغرب العربي بنظرة أخرى ، حولوا في مواقفهم ربما عن اقتناع وربما حسب الظروف ، وأود ان أذكر اسما آخر يعد من كبار المستشرقين في الادب ورجال اللغة ولا يزال حيا ، وهو لم يكن يشتغل في الادارة الاستعمارية وانما كان موظفا اداريـــا في المكتب الثاني الفرنسي ، في سوريا .. الخ ، شامبليون هذا ليس سرا مثلا بالنسبة لالمانيـــا بيكر كان من كبار الموظفين في وزارة الخارجية واهتم بشؤون الاسلام وكتب عنه ، لكن هنا أيضا نود أن نقول ان الحقيقة بدأوا طريقهم وحياتهم في

الاستشراق عن هذا الطريق . البعض منهم بعد ذلك بعد عن ميدان الخدمة الادارية واصبح يهتم فقط بالبحث ، وهذا يفسر لنا ويلفت النظر ان كثيرا منهم تحولوا من موظفين اداريين الى اساتذة كراسى فى الجامعات الاوروبية ،لكن مع بقاء الصلة وايضا ليس من السر ان الكثير منهم رغم اختصاصهم أنهم يستشارون من وزارة الخارجية فى شؤون المغرب او بلاد العالم العربى فى القضايا السياسية ، وهذه الطريقة ما زالت مستمرة بشكل آخر باسم الاستعمار المقنع من طرف البلدان الاخرى ، كثير من الباحثين الاوروبيين يأتون الى البلد ان العربية باسم البحث واعداد الاطروحات ولكنهم يكتبون تقارير من نوع آخر يرسلونها الى مراكز أخرى ، بحيث تغيرت ، لكن مثل ما قال من سبقونى أن هؤلاء الناس الذين توفرت لهم الظروف تركوا لنا أعمالا يجب ان نعترف بها ونعتمد عليها مثلا احياء قسم من المخطوطات ، بعض الدراسات ذات الطابع التاريخى او اللغوى ، المهم هذا عمل قاموا به وان لم يقوموا به من اجل العلم والبحث فالنتيجة قد حصلت ، فيجب ان نقف منها موقف الجراة نعترف بالنقاط الايجابية منها ، ولكن نقف موقف جرأة متخلصين من المركبات ونقاط الضعف ، طبعا الامثلة كثيرة ، والا يعنى هى ظاهرة مثل ظاهرة التبشير مرتبطة فى بعض مظاهرها بالاستعمار بالعالم العربى والمغرب العربى على الخصوص . وليس من الصدفة ان نجد الالمان يعتنون بالدراسات الافريقية كتاباتهم احسن ما كتب عن افريقيا الشرقية ، لماذا ؟ لان المانيا المستعمرات الوحيدة فى الحرب العالمية الاولى كانت فى افريقيا الشرقية ، بلاد السودان طبعا اهتمام البريطانيين . معناه اذا أردنا اليوم ان نكتب بحثا عن السودان وعن جنوب السودان لا نستطيع بدون الرجوع الى ما كتبه البريطانيون، ولماذا لم يكتب الفرنسيون عن السودان وكتبوا عن شمال افريقيا ، اذن اسئلة واضحة ومنطقية بين ظاهرة الاستعمار والاستشراق ، بقى نحن انذاك لم نفعل شيئا ، طبعا المسألة مسألة تخلف لاننا كنا شعوب كانت بعيدة عن الحضارة كان الجهل منتشرا . وكانوا هم فى موقف القوة والسيطرة ، لكن المهم كما قلت هو فى نظرتنا فيما كتب التخلص من مركبات النقص تجاه ما كتبه المؤرخون الاجانب عن تاريخنا ، نعترف بالاشياء الحقيقة التاريخية والاخرى ندينها . يعنى لا نمجد الدراسات ربما الهزيلة التى كتبت فى عهد معين فى تاريخنا ، ولكننا أيضا لا نمجد ما كتبه الاوروبيون لانه كتب من طرف الاوروبيين ، وهذا ما يعانى منه بعض المؤرخين المغاربة ، هو النظرة التمجيدية لهؤلاء الاوروبيين ، هذا ليس صحيحا، هو المهم التخلص من عقدة النقص هذا الشىء الاساسى .

عثمان شبوب الآن نأتى على النقطة الثانية وهى المناهج، أظن ان الاستاذ طالبى تكلم عن هذه المشكلة وانتهى ، فالآن الكلمة للاستاذ التميمى :

بالنسبة للمنهج الذى يجب اتباعه فى كتابة تاريخنا تحدث الاستاذ طالبى عن المنهج العقائدى بقى المنهج العلمى لكتابة هذا التاريخ وسأتكلم

في نطاق التاريخ الحديث والمعاصر . فكل ما عندنا وكل ما كتبه الفرنسيون كان يعتمد على الوثائق ودور الارشيف الفرنسية ، واغلب المؤرخين لم يعتمدوا على دور الوثائق العربية والتركية ، فهذا الوضع جعل المؤرخين الفرنسيين يشعرون بالنقص ، هم يعترفون ان كتاباتهم تعكس وجهة نظر فرنسية . والدليل على ذلك بكل تواضع ، هناك استاذ فرنسي هو كربواييه ويعتبر المختص الوحيد لدراسة تاريخ الجزائر كتب أخيرا مقالا في مجلة « افريقيا المسلمة والبحر المتوسط » العدد الاخير كتب يتكلم عن كتاب نصوص ووثائق التاريخ المغربي ، ويقول بالحرف الواحد : أنا لا أخجل ان أقول انني كنت مخطئا عندما كتبت عن تاريخ الجزائر بهذه الطريقة ، ولا أخجل ان أقول انني غيرت رأيي راسا عن عقب » أنا أظن ان هذا المثال في منتهى الشجاعة الادبية ويؤدي بنا الى الاعتراف بأن ما كتبه الفرنسيون يجب ان نقف منه موقف الحذر لا أن نرفضه بالعكس . أن ناخذه ونكمل عليه ، ما هي الطريقة العملية ،

أولا يجب ان نقوم بعملية احصاء لكل تراثنا سواء كان المخطوط او المطبوع وبالدرجة الاولى المخطوطات والوثائق سواء كانت عربية او تركية أو ايطالية أو اسبانية او غيرها ، ثم ان تكون عندنا قدرة كاملة على استيعاب كل هذه المعطيات وان نفهم ونذهب الى أبعد ما يكون من الوثيقة ، أن لا نقف عند ظاهر كلمات الوثيقة . بل أن نعرف الظروف الجغرافية والظروف المناخية والحياتية ، كل هذا يؤدي بنا الى فهم جديد اكثر وعيا واكثر شمولا ، بطبيعة الحال هذا يتوقف لا فقط على المؤرخين لان المؤرخ يحتاج الى عالم اجتماع والى الاديب . ثم شيء متكامل لا يمكن ان نفصل علم التاريخ عن الاجتماع ، أنا اعتبرهما علمان متكاملان في هذا الاطار ، اطار فهم جديد اكثر وعيا لوضعيتنا الجغرافية ولفهم الماضي ايضا يمكن لنا ان ان نضع اطارا جديدا لمبدأ منهجية تأخذ بالاعتبار كل ما كتب وكل معطيات الوثائق التاريخية ، وهذا الحال لا يتوقف على فرد معين ولكن على المعاهد العلمية في تاريخ المغرب العربي، يمكن ان ننشىء عددا من المعاهد وكل معهد يختص بفترة معينة ثم تستكمل الابحاث بعضها البعض المهم من هذا نظرية الشمول . لابد ان تكون نظرية الشمول ونظرية ان يكمل الباحث التونسي الباحث المغربي والباحث الجزائري ٠

بالنسبة للمذهب الماركسي ، والله أنا لا اضيف شيئا لما قاله استاذنا الفاضل محمد الطالبي ، اعتقد ان المذهب الماركسي فيه عناصر ايجابية لابد ان تؤخذ بالاعتبار . وفيه عناصر سلبية الا انني اعتقد ايضا ان المؤرخ يجب ان يكون بعيدا على كل التيارات فوظيفته الفهم ، محاولة الفهم ، ممكن ان لا يفهم ، محاولة فهم المعطيات مهما كانت الطريقة. اذا كان المذهب الماركسي يؤدي بنا الى ان نفهم مجتمعنا اكثر وضوحا واكثر عمقا فمرحبا لكن شخصيا اعتقد ان المؤرخ يحتاج الى كل المعطيات وكل المذاهب دون ان يركز على مذهب دون آخر ٠

الاستاذ محمد فنطر : فيما يتعلق بالمنهج الذى ربما يتبغى على المؤرخ ان يتوخاه في قراءة التاريخ